أخبار الخوارج



تأليف

الإمام أبي العبّاس المبرّد

دار الفكر

اهـــــــداء2005

ا.د.عباس عبد الحميد

جامعة الإسكندرية



من كتاب



في اللغة والأدب والنحو والتصريف

تأليف

الإمام أبي العباس المبرد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكامل

حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر قال : حدثنا أبو الحسن عليّ بن سليمان الأخفش قراءةً عليه قال : قرىء لي هذا الكتاب على أبي العباس محمد بن يزيد المُبرّد :

الحمد لله حمداً كثيراً يبْلغُ رضاه ، ويوجب مزيده ، ويجيرُ من سخطه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدّي حقه ، وتُزْلفُه عند ربه .

قال أبو العباس : هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروبا من الآداب ، ما بين كلام منثور ، وشعرٍ مرْصوف ، ومثلٍ سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خُطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنيّةُ أن نُفسّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مُستغلِقٍ ، وأن نشرح مايعرضُ فيه من الإعْراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يُرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً ، وبالله التوفيق والحول والقوة ، وإليه مفْزعُنا في دركِ كل طَلِبة ، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا منْ عملٍ بطاعته ، وعقدٍ يرضاه ، وقولٍ صادقٍ يرفعه عملٌ صالح ، إنه على كل شيء قدير .

أخبار الخوارج

قال أبو العباس : ذَكر أهلُ العِلم من الصُّفْريّة أنّ الخوارجَ لمّا عزَموا على البَيعةِ لعبدِ الله بن وَهْبٍ الرّاسِبيّ من الأزْدِ تَكرّهَ ذلك ، فأبَوا مَنْ سِواهُ ، ولم يُريدوا غيرَه . فلمّا رأى ذلك منهم قال : يا قومِ ! اسْتَبيتوا الرأيَ . أيْ دَعوهُ يَغبُّ . وكان يقول : نعوذُ بالله من الرأيِ الدَّبَرِيّ .

قوله « استَبيتوا الرأيَ » يقول : دَعوا رأيَكم تأتِ عليه ليلةٌ ثم تعقّبوهُ ، يقال « بيّتَ فلانٌ كذا وكذا » إذا فعلَه ليلًا . وفي القرآن : (إذ يُبَيّتونَ مالا يَرْضى مِنَ القَوْلِ) أيْ أدارُوا ذلك ليلًا بينهم . وأنشدَ أبو عُبيدةَ :

أَتوني فلم أرْضَ ما بيّتوا وكانوا أتَوني بأمرٍ نُكُرْ
لأُنكحَ أيّمهمْ مُنْذِرا وهل يُنكِح العبدَ حُرٌّ لِحرّ

« والرأيُ الدَّبريُّ » : الذي يَعرِضُ مِن بعدِ وقوعِ الشيءِ ، كما قال جريرٌ :

ولا يَعرِفونَ الشرَّ حتى يُصيبَهم ولا يعرفونَ الأمرَ إلاّ تَدبُّرا

وكان عبدُ الله بنُ وَهْبٍ ذا رأيٍ وفَهْمٍ ، ولسانٍ وشجاعةٍ ، وإنما لَجؤوا إليهِ وخلَعوا معْدانَ الإياديَّ لقول معدانَ :

سَلامٌ على مَنْ بايعَ اللهَ شارياً وليس على الحِزْبِ المُقيم سَلامُ

فبرِئَتْ منه الصُّفْرِيّةُ ، وقالوا : خالفتَ ، لأنّكَ برِئْتَ من القعَدِ .

قال أبو العباس : والخوارجُ في جميع أصنافِها تَبرأُ من الكاذب ، ومن ذي المعصيةِ الظّاهرةِ .

وحدّثتُ : أنّ واصلَ بنَ عطاءٍ أبا حُذيفةَ أقبلَ في رُفقةٍ ، فأحسّوا الخوارجَ ، فقال واصلٌ لأهلِ الرفقة : إنّ هـذا ليس من شأنِكم ، فاعتزِلوا ودَعوني وإيّاهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطبِ ، فقالوا له : شأنكَ ، فخرجَ إليهم ، فقالوا : ما أنتَ وأصحابُكَ ؟ قال : مُشرِكونَ مُستجيرونَ ، ليسمَعوا كلامَ الله ، ويَعْرِفوا حُدُودَه ، فقالوا : قد أجَرْناكم ! قال : فَعلّمونا ، فجعلوا يعلمونه أحكامَهم ، وجَعل يقول : قد قبلتُ أنا ومَن معي ، قالوا : فامضوا مُصاحِبينَ ، فإنكم إخوانُنا ! قال : ليس ذلك لكم ، قال اللهُ تبارك وتعالى : (وإنْ أحدٌ مِنَ المُشركينَ استَجارَكَ فأجِرْهُ حتّى يسْمَعَ كلامَ اللهِ ثم أبلِغْهُ مَأمَنَهُ) فأبْلِغونا مأمَننا ، فنظر بعضُهم إلى بعضٍ ، ثم قالوا : ذاكَ لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بَلّغُوهم المأمَنَ .

وذَكر أهلُ العلمِ مِن غيرِ وجهٍ : أنّ علياً رضي الله تعالى عنه لما وجّهَ إليهم عبدَ الله بنَ عبّاسٍ رحمة الله عليه ليُناظِرَهم ، قال لهم : ما الذي نَقِمتُمْ على أميرِ المؤمنين ؟ قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلمّا حكّمَ في دين الله خَرجَ من الإيمانِ ، فَليَتُبْ بعدَ إقرارِه بالكفر نعُدْ لهُ ! فقال ابنُ عباسٍ لاينبغي لمؤمنٍ لم يَشُبْ إيمانهُ شكٌّ أن يُقِرّ على نفسه بالكُفرِ . قالوا : إنه قد حكّمَ ، قال إن اللهَ عزّ وجلّ قد أمرَنا بالتحكيم في قتلِ صَيدٍ ، فقال عزّ وجلّ : (يحْكُمُ به ذَوا عَدْلٍ منكم) فكيف في إمامةٍ قد أشكلَتْ على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حُكِمَ عليه فلم يَرضَ . فقال : إنّ الحكومةَ كالإمامةِ ، ومتى فسَق الإمامُ وَجَبتْ معصيتُه ، وكذلك الحكمانِ ، لمّا خالفا نُبِذتْ أقاويلُهما . فقال بعضُهم لبعضٍ : لاتجعلوا احتِجاجَ قريشٍ حُجّةً عليكم ! فإنّ هـذا من القومِ الذين قال الله عز وجلّ فيهم : (بَلْ هُمْ قَومٌ خَصِمونَ) وقال عزّ وجل : (وتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً) .

★ ★ ★

والشَّيءُ يُذْكرُ بالشيء ، وجاء في الحديث : أن رجلاً أعرابيّاً أتى عمرَ بْنَ الخطاب رضي الله عنه فقال : إني أَصبْتُ ظَبْياً وأنا مُحْرِمٌ ؟ فالتفتَ عمرُ إلى عبدِ الرحمن بنِ عَوْفٍ ، فقال : قل ، فقال عبدُ الرحمن : يُهدي شاةً ، فقال عمرُ : أهْدِ شاةً ، فقال الأعرابيُّ : واللهِ ما دَرَى أميرُ المؤمنين مافيها حتى اسْتَفتى غيرَهُ ! فخَفقهُ عمرُ رضوان الله عليه بالدِّرةِ ،وقال:أتَقْتُلُ في الحرمِ وتَغمِصُ الفُتيا ؟ ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال : (يَحْكُمُ به ذَوا عَدْلٍ مِنْكُم) فأنا عمرُ بن الخطاب ، وهذا عبدُ الرحمن بن عوفٍ .

قال أبو العباس : وفي هذا الحديثِ ضُروبٌ من الفقه : منها ماذكروا أنَّ عبد الرحمن بنَ عوفٍ قال أوَّلاً ، ليكون قولُ الإمام حكماً قاطعاً . ومنها أنه رأى أنَّ الشاةَ مثلُ الظبيةِ ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ : (فَجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) . وأنه لم يسأله : أخطأً قَتلهُ أم عمْداً ؟ وجعل الأمرين واحداً . ومنها أنه لم يسأله : أقَتلْتَ صيداً قبلَه وأنتَ مُحرِمٌ ؟ لأن قوماً يقولون : إذا أصابَ ثانيةً لم يحكَمْ عليه ، ولكنّا نقولُ له : اذهبْ فاتّقِ اللهَ ، لقول الله تبارك وتعالى: (ومَنْ عادَ فيَنْتَقِمُ اللهُ منه) .

قال أبو العباس : مِنْ طريفِ أخبارِ الخوارجِ قولُ قطري بنِ الفُجاءَةِ المازنيِّ لأبي خالد القَنانيِّ ، وكانَ مِن قَعدِ الخوارِجِ :

أبا خالدٍ يانْفِرْ فلَستَ بخالدٍ ... وما جعلَ الرحمنُ عذْراً لقاعدِ
أتزْعُمُ أنَّ الخارجيَّ على الهُدَى ... وأنت مُقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ

فكتب إليه أبو خالدٍ :

لقد زادَ الحياةَ إليَّ حُبّاً ... بناتي ، إنّهنَّ من الضّعافِ
أُحاذِرُ أنْ يَرَيْنَ الفقرَ بعْدي ... وأن يشْربنَ رنْقاً بعدَ صافِ
وأنْ يعرَيْنَ إن كُسيَ الجواري ... فتَنبو العينُ عن كرمٍ عِجافِ
ولولا ذاكَ قد سوَّمتُ مُهري ... وفي الرحمنِ للضُّعفاءِ كافِ
أبانا مَنْ لنا إنْ غبتَ عنّا ... وصارَ الحيُّ بعدكَ في اختلافِ

وهذا خلافُ ما قال عِمرانُ بن حِطّانَ ، أحدُ بني عمرِو بن شيْبانَ بن ذُهلِ بن ثعلَبةَ بن عُكابَةَ بنِ صعبِ بن عليٍّ بن بَكرِ بن وائلٍ ، وقد كان رأسَ القَعدِ من الصُّفرِيّة وخطيبهم وشاعِرَهم ، قال لمّا قتِلَ أبو بلالٍ ، وهو مِرداسُ بن أديّةَ ، وهي جدّتُه ، وأبوه حُدَيرٌ ، وهو أحدُ بني ربيعةَ بنِ حَنظَلةَ بنِ مالكِ بن زيدِ مَناةَ بن تميمٍ ، قال عِمرانُ بنُ حِطّانَ :

لقد زاد الحياةَ إليَّ بُغْضاً ... وحُبّاً للخروجِ أبو بلالِ
أحاذرُ أن أموتَ على فراشي ... وأرْجو الموتَ تحتَ ذرى العوالي
ولو أنّي علِمتُ بأنَّ حَتْفي ... كحتْفِ أبي بلالٍ لم أبالِ
فَمنْ يكُ همُّهُ الدنيا فإنّي ... لها واللهِ وربِّ البيتِ قالي

وفيه يقولُ :

ياعينُ بَكّي لِمرداسٍ ومصرعِهِ ... يارَبِّ مِرداسٍ اجعلني كمِرداسِ
تركْتني هائماً أبكي لِمرزئتي ... في منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ من قد كنت أعرفه ... ما الناسُ بعدكَ يا مِرْداسُ بالناسِ
إمّا شربْت بكأسٍ دارَ أوّلُها ... على القرون فذاقوا جُرعة الكاسِ
فكلُّ منْ لم يذُقها شاربٌ عجِلاً ... منها بأنفاسِ وِردٍ بعد أنفاسِ

★ ★ ★

قال أبو العباسِ : وكان من حديث عمران بن حطّان فيما حدثني العباسُ ابنُ الفرج الرِّياشيُّ عن محمد بن سلامٍ : أنه لمّا أطْردهُ الحجاجُ كان ينتقلُ في القبائل ، فكان إذا نزل في حيٍّ انْتسب نسباً يقرُبُ منه ، ففي ذلك يقولُ :

نزلْنا في بني سعْدِ بن زيدٍ ... وفي عكٍّ وعامرِ عوبْثانِ
وفي لخمٍ وفي أُدَدِ بْنِ عمرٍو ... وفي بَكرٍ وحَيٍّ بني الغُدانِ

ثُمَّ خرَج حتى نَزل عند روحِ بن زِنباعٍ الجُذاميّ ، وكان روْحٌ يَقري الأضيافَ ، وكان مسامراً لعبد الملك بن مروانَ أثيراً عنده ، فانْتَمى

له من الازْد . وفي غير هذا الحديث : أنَّ عبد الملك ذكر رَوْحاً فقال : مَنْ أُعْطِيَ مثلَ ما أُعْطِيَ أبو زُرعةَ ؟أعطيَ فِقْهَ أهل الحجاز،ودَهاءَ أهل العراقِ ، وطاعة أهل الشام . ورَجْعُ الحَديثِ : وكان رَوحُ بنُ زِنباعٍ لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عندَ عبد الملك فيسألُ عنه عِمْرانَ بنَ حِطّانَ إلاّ عرَفه وزادَ فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك ، فقال إن لي جاراً من الأزدِ ما أسمعُ من أمير المؤمنين خَبَراً ولا شعراً إلا عَرَفَهُ وزاد فيه ، فقال : خبّرْني ببعض أخباره ، فخبّرَهُ وأنشده ، فقال : إن اللغةَ عدْنانيةٌ ، وإنّي لأحْسبُهُ عمرانَ بنَ حطانَ ، حتى تذاكروا ليلةً قول عِمرانَ بنِ حطان يمدحُ ابن مُلْجَمٍ لعنه الله :

يا ضَرْبةً مِنْ تَقيٍّ ماأرادَ بها إلا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العرشِ رِضْواناً
إنّي لأذكُره حيناً فأحْسِبُهُ أوْفى البَرِيّةِ عندَ الله ميزَاناً

قَلَبه الفقيهُ الطبَريُّ فقال :

ياضربةً من شَقِيٍّ ما أرادَ بها إلا ليَهْدِمَ مِن ذي العرشِ بنْيانا
إنّى لأذكُره يوما فألعنُهُ إيهاً وألعَنُ عمرانَ بنَ حِطّانا

قال محمدُ بنُ أحمد الطّيبُ يَرُدُّ على عمرانَ بنِ حطانَ :

ياضربةً من غَدورٍ صار ضارِبُها أشقَى البَرِيّةِ عندَ الله إنسانا
إذا تفكّرْتُ فيه ظَلْتُ ألعنُهُ وألعنُ الكلْبَ عمران بن حطانا

فلم يَدْرِ عبدُ الملك لِمنْ هو ، فرجع روحٌ إلى عمرانَ بنِ حطانَ ، فسأله عنه ، فقال عمرانُ : هذا يقوله عمرانُ بنُ حطانَ يمدح به عبدَ الرحمن بنَ مُلْجَمٍ قاتلَ عليّ بن أبي طالبٍ ، فرجَع روحٌ إلى عبد الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : ضَيْفُكَ عمرانُ بنُ حطانَ ، اذهبْ فجئني به ، فرجع إليه ، فقال : إن أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراكَ ، قال له عمرانُ : قد أردتُ أن أسألك ذلك فاستحييتُ منكَ ، فامضِ فإني بالأثرِ ! فرجع روحٌ إلى عبد

الملك فأخبره ، فقال له عبدُ الملك : أما إنـّك سترجعُ فلا تجدُه ! فرجع وقد ارتحل عمرانُ ، وخلـّف رُقعةً فيها :

ياروحُ كم من أخي مثوىً نزلتُ به	قد ظنَّ ظنـّك من لخمٍ وغسّان
حتى إذا خفتُهُ فارقتُ منزله	من بعدِ ماقيل عمرانُ بنُ حطّان
قد كنتُ جارك حولاً ماتروّعني	فيه روائعُ من إنسٍ ومنْ جان
حتى أردت بي العُظمى فأدركني	ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذرْ أخاك ابن زنباعٍ فإنّ له	في النائبات خُطوباً ذاتَ ألوان
يوما يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ	وإن لقيتُ مَعدّياً فعدْناني
لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغيةٍ	كنتَ المُقدَّم في سرّي وإعلاني
لكنْ أبتْ لي آياتٌ مطهرةٌ	عند الولاية في طه وعمْران

ثم ارتحل حتى نزل بزُفر بن الحرث الكلابيّ ، أحد بني عمرو بن كلابٍ ، فانتسب له أوزاعيّاً ، وكان عمرانُ يُطيلُ الصلاة ، وكان غلمانٌ من بني عامرٍ يضحكون منه ، فأتاه رجلٌ يوماً ممّن رآه عند روح بن زنباعٍ فسلم عليه ، فدعاه زُفرُ فقال : منْ هذا ! فقال : رجلٌ من الازد رأيتُه ضيفاً لروح بن زنباعٍ ، فقال له زُفرُ : ياهذا ؟ أأزدياً مرةً وأوزاعياً مرةً ؟! إن كنت خائفاً آمنّاك ، وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رُقعةً فيها :

إن التي أصبحتْ يعْيي بها زُفرٌ أعيتْ عياءً على روح بن زنْباع

قال أبو العباس : أنشدنيه الرّياشيُّ . أعيا عياها على روْح بن زنْباع ، وأنكره كما أنكرناه ، لأنه قصر الممدود ، وذلك في الشعر جائز ، ولا يجوز مدُّ المقصور .

مازال يسألُني حوْلاً لأُخْبره	والناسُ من بين مخدوعٍ وخدّاع
حتى إذا انقطعتْ عنى وسائلُهُ	كفَّ السؤال ولم يُولع بإهلاعى

فاكفُفْ كما كفَّ عنّي إنني رجلٌ إمّا صميمٌ وإما فقعةُ القاع
واكفُف لسانك عن لومي ومسألتي ماذا تُريدُ إلى شيخٍ لأوْزاع
أما الصلاةُ فإني غيرُ تاركها كُلُّ امرىءٍ للذي يُعنّى به ساعي
أكرمْ بروح بن زنباعٍ وأسرته قومٌ دعا أوّلهم للعُلى داعي
جاورتُهمْ سنــــة فيما أسرُّ به عرضي صحيحٌ ونوْمي غيرُ تهجاع
فاعملْ فإنك منعيٌّ بواحدةٍ حسبُ اللبيب بهذا الشّيب من ناعي

ثم ارتحل حتى أتى عُمان ، فوجدهم يُعظّمون أمر أبي بلال ويُظهرونه ، فأظهر أمرهُ فيهم ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عُمانـ ، فارتحل عمرانُ هارباً ، حتى أتى قوماً من الازد فلم يزلْ فيهم حتى مات . وفي نزوله بهم يقولُ :

نزلنا بحمد الله في خير منزلٍ نُسرُّ بما فيه من الأُنس والخفر
نزلنا بقومٍ يجمعُ الله شملهمْ وليس لهم عُودٌ سوى المجد يُعتصر
من الأزد إن الأزد أكرمُ أسرةٍ يمانيةٌ طابوا إذا نُسب البشرْ
فأصبحتُ فيهم آمناً لا كمعشرٍ أتوني فقالوا من ربيعة أو مضرْ
أم الحيّ قحطانٍ ؟ فتلكُمْ سفاهةٌ كما قال لي روحٌ وصاحبهُ زفرْ
وما منها إلا يُسرُّ بنسبةٍ تُقرّبُني منه وإنْ كان ذا نفرْ
فنحنُ بنو الإسلام والله واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكرْ

قوله « ياروحُ كم من أخي مثوى نزلتُ به » ، قد مر تفسيره ، يقالُ « هذا أبو مثواي » وللأنثى « هذه أمُّ مثواي » ، ومنزلُ الضّيافة وما أشبهها « المثوى » وكذلك قال المفسرون في قول الله عز وجل (أكرمي مثواهُ) أيْ إضافته ويقالُ من هذا « ثوى يثوي ثُوياً » ، كقولك « مضى يمضي مُضيّاً » ، ويقال « ثواءً » و « مضاءً » كما قال الشماخُ :

طال الثواءُ على رسم بيمؤُود أودى وكلُّ جديدٍ مرةً مودي

وقوله «فيه روائعُ من إنس ومن جان» الواحدةُ «رائعة» يقال «راعني يروعني روعاً» أي : أفزعني. قال اللهُ تعالى ذكرُه : (فلما ذهب عن إبرٰهيم الروعُ) ويكونُ «الرائعُ» الجميل يقال : جمالٌ رائعٌ، يكون ذلك في الرجل والفرس وغيرهما، وأحسبُ الأصل فيها واحداً : أنه يُفرطُ حتى يروع، كما قال اللهُ جل ثناؤُه : (يكادُ سنا برقِه يذهبُ بالأبصار) للأفراط في ضيائه، و «الرائعُ» مهموزٌ ، وكذلك كل فعلٍ من الثلاثة ممّا عينُه واو أو ياءٌ إذا كانت معتلةً ساكنةً، تقولُ «قال يقول» و «باع يبيع» و «خاف يخافُ» و «هاب يهاب» يعتلُ اسمُ الفاعل فيُهمزُ موضع العين نحو «قائل» و «بائع» و «خائفٍ» و «هائبٍ». فإن صحّت العين في الفعل صحّتْ في اسم الفاعل، نحو «عَورَ الرجلُ فهو عاورٌ» و «صَيِدَ فهو صايدٌ»، و «الصيَدُ» داءٌ يأخذُ في الرأس والعينين والشؤّون وإنما صحت في «عور» و «حول» و «صيد» لأنه منقولٌ من «احولّ» و «اعور». وقد أحكمنا تفسير هذا في الكتاب المقتضب.

وقوله :

«يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ ... وإن لقيتُ معدّيّاً فعدناني»

يُريد : أنا يوماً يمانٍ، ولولا أن الشّعر لا يصلحُ بالنصب لكان النصبُ جائزاً، على معنى أتنقل يوماً كذا ويوماً كذا، والرفع حسنٌ جميلٌ. وهذا الشعرُ يُنشدُ نصباً.

أفي السّلم أعياراً جفاء وغلظةً ... وفي الحرب أمثال النساءِ العوارك

«العواركُ» هُن الحوائضُ. وكذلك قوله :

أفي الولائم أولاداً لواحدةٍ ... وفي المحافل أولاداً لعلات

قال «العلاتُ» سُميت لأن الواحدة «تُعلُ» بعد صاحبتها، وهو من «العلل» وهو الشربُ الثاني، اي يختلفون ويتحولون في هذه الحالات. ومن

كلام العرب: أتميمياً مرةً وقيسياً أخرى ؟ وكذلك إن لم تستفهم وأخبرتَ قلت تميمياً مرةً علم اللهُ وقيسياً أخرى . أي : تنتقلُ . ومن ثم قال له زُفرُ بنُ الحرث : أزدياً مرةً وأوزاعياً أخرى ؟ والرفع على « أنت » جيدٌ بالغٌ .

وقولهُ : « لو كنتُ مستغفراً يوماً لطاغية » يكون على وجهين : لنفسٍ طاغيةٍ ، والآخرُ للمذكّر ، وزاد الهاء للتوكيد والمبالغة ، كما يقالُ : رجل راويةٌ وعلامةٌ ونسابةٌ ، وكلاهما وجهٌ . ويقال : جاءت طاغيةُ الرُّوم ، يرادُ الجماعةُ الطاغيةُ ، كما قال رسولُ الله ﷺ : « تقتلك الفئةُ الباغيةُ » .

وقوله « عند الولاية » إذا فتحت فهو مصدرُ « الوليّ » وفي القرآن المجيد : (ما لكمُ من ولايتهم منْ شيءٍ). والوِلايةُ مكسورةً نحو السياسة والرياضة والإيالة ، وهي الولايةُ ، وأصله من الإصلاح ، يقال « آلهُ يؤولهُ أوْلاً » إذا أصلحه . قال عمرُ بن الخطاب : قد ألنا وإيل علينا . تأويل ذلك قد ولينا ووليَ علينا . وهذه كلمةٌ جامعةٌ ، يقول : قد ولينا فعلمنا ما يُصلحُ الوالي ، ووُلي علينا فعلمنا ما يصلحُ الرَّعيّة .

وقوله « حتى إذا ما انقضتْ مني وسائله » ، « الوسائلُ » واحدُها « وسيلةٌ » وهي : الذَّريعةُ والسَّببُ . يقال : قد توسَّلتُ إلى فلانٍ ، قال رؤبةُ بنُ العجّاج :

والناسُ إنْ فصَّلتهمْ فصائلا كلٌّ إلينا يبتغي الوسائلا

وقوله : « ولم يولعْ بإهلاعي » أي : بإفزاعي وترويعي . والهلعُ من الجبن عند ملاقاة الأقران ، يقال : نعوذ بالله من الهلع . ويقال : رجلٌ هلوعُ إذا كان لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ ، حتى يفعل في كل واحدٍ منها غير الحقّ ، قال اللهُ وهو أصدق القائلين : (إنّ الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسّهُ الشّرُّ جزُوعاً . وإذا مسّهُ الخيرُ منوعاً) . وقال الشاعرُ :

ولي قلبٌ سقيمٌ ليس يصحو ونفسٌ ما تفيقُ من الهلاع

وقوله . « إمّا صميمٌ وإمّــا فقعةُ القــاع » « الصّميمُ » الخالصُ من كل شيءٍ ، يقال : فلانٌ من صميم قومه ، أي : من خالصهم . وقال جريرٌ لهشام ابن عبد الملك :

وتنزلُ من أُميّة حيثُ تَلقى ... شؤونُ الرأس مجتمــعَ الصّميم

وقوله « وإمّا فقعةُ القاع » يقال لمن لا أصـل له : هو فقعةٌ بقــاعٍ ، وذلك لأن الفقعة لا عروق لها ولا أغصان ، والفقعة الكمأةُ البيضاءُ ، ويقال : حمامٌ فقّيعٌ : لبياضه . ومن ذا قولُ الشاعر :

قومٌ إذا نسبوا يكونُ أبوهمُ ... عند المناسب فقعةً في قرْقر

وقال بعضُ القرشيين :

إذا ما كنت متّخذاً خليلًا ... فلا تجعلْ خليلك من تميم
بلوْتُ صميمهمْ والعبد منهم ... فما أدنى العبيد من الصّميم

وقوله « نسرُّ بما فيه من الأنس والخفر » فأصل « الخفر » شدّةُ الحيـاء يقال « امرأةٌ خفرةٌ » ، إذا كانت مستترةً لاستحيائها ، قال ابنُ نميرالثّقفيُّ :

تضوّعُ مسكاً بطنُ نعمان أن مشتْ ... به زينبٌ في نسوةٍ خفرات

وقوله « إنّ الأزد أكرمُ أسرةٍ » يقولُ : عصابةٍ وقبيلة ، ويقالُ للرجل : من أيّ أُسرةٍ أنت ؟ وأصلُ هذا من الاجتماع ، يقال للقتب « مأسورٌ » وقد مضى تفسيره .

وينشدُ « يمانيةٌ قرْبوا إذا نسب البشرْ » يريدُ « قرُبوا » . وهذا جائزٌ في كلّ شيءٍ مضمومٍ أو مكســورٍ إذا لم يكن من حركات الإعراب ، تقولُ في الأسماء في « فخذٍ » ، « فخْذٌ » وفي « عضُدٍ » ، « عضْدٌ » . وتقولُ في الأفعال « كرْم عبدُ الله » أي كرُم ، و « قد علم اللهُ » أي علِم اللهُ . قال الأخطلُ :

فإن أهجهُ يضجرْ كما ضجْر بازلٌ ... من الإبل دبرتْ صفحتاهُ وكاهلهُ

وقالَ آخرُ :

عجبتُ لمولودٍ وليس له أبٌ   وذي ولدٍ لم يلدْهُ أبوانِ

ولا يجوزُ في « ضرب » ولا في « جملٍ » أن يسكَّن ، لخفة الفتحة .

وقوله « أتوْني فقالوا من ربيعة أو مضرْ » يقول : أمن ربيعة أم من مضر ؟ ويجوزُ في الشعر حذفُ ألف الاستفهام ، لأنَّ « أم » التي جاءتْ بعدها تدلُّ عليها . قال ابنُ أبي ربيعة :

لعمرُكَ ما أدْري وإنْ كنتُ دارياً   بسبعٍ رمين الجمر ام بثمانِ

يريدُ : أبسبعٍ ؟ وقال التّميميُّ :

لعمرُكَ ما أدري وإنْ كنتُ دارياً   شعيثُ بن سهمٍ أم شعيثُ بن منقرِ

الروايةُ على وجهين : أحدُهما « مِن ربيعة أم مُضرْ أم الحيّ قحطانٍ » يريدُ : أذا أم ذا ؟ والأصلحُ في الرواية « مِن ربيعة أو مضرْ ، أم الحيّ قحطانٍ » لأن ربيعة أخو مُضر ، فأراد من أحد هذين أم الحيّ قحطان ، لأنه إذا قال : أزيدٌ عندكِ ام عمرٌو ؟ فالجوابُ : نعمْ ، أو لا ، لأن أحد هذين عندك ، ومعنى الأول : أيُّهما عندك ؟ ويُروى — وحدّثنيه المازنيُّ — : أن صفيّة بنت عبد المطّلب أتاها رجلٌ ، فقال لها : أين الزُبيرُ ؟ قالت : وما تُريدُ إليه ؟ قال : أريد أن أباطِشهُ ! فقالت : ها هو ذاكَ ، فصار إلى الزبير فباطشه . فغلبه الزبيرُ ، فمرَّ بها مفلولاً ، فقالت صفية :

كيف رأيت زبرا . أأقِطاً أو تمراً . أم قُرشيّاً صقرا

لم تشكُك بين الأقط والتّمر فتقول أيُّهما هو ؟ ولكنها أرادتْ : أرأيتهُ طعاماً أم قرشيّاً صقراً ؟ أي أأحد هذين رأيتهُ أم صقراً ؟ ولو قالت : أأقطاً أم تمراً : كان محالاً على هذا الوجه .

وقوله : « وما مِنها إلا يُسرٌ بنسبةٍ » معناه : وما منها واحدٌ ، فحذف لعلم المخاطب . قال الله جلَّ اسمه : (وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤْمِنَنَّ به

قبل موته) أي : وإن أحدٌ . ومعنى « إنْ » معنى « ما » قال الشاعرُ :

وما الدهرُ إلا تارتان فمنها أموتُ وأُخرى أبتغي العيش أكدحُ

يريدُ : فمنها تارةٌ .

وقوله :

« فنحنُ بنو الإسلام واللهُ واحدٌ وأولى عباد الله بالله من شكر »

يقول : انقطعت الولايةُ إلا ولاية الاسلام ، لأن ولاية الأسلام قد قاربت بين الغرباء . وقال الله عز وجل : (إنما المؤمنون إخوةٌ) . وقال عز وجل فباعد به بين القرابة : (إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرُ صالح) وقال نهارُ بن توسعة اليشكُريُّ :

دعيُّ القوم ينصرُ مُدعيه ليُلحقهُ بذي الحسب الصميم

أبي الاسلامُ لا أب لي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

* * *

ويقالُ فيما يُروى من الأخبار : إن أول من حكم عروةُ بن أدية ، وأدية جدةٌ له جاهليةٌ ، وهو عروةُ بن حُدير ، أحدُ بني ربيعة بن حنظلة . وقال قومٌ : بل أول من حكم رجل يقال له سعيدٌ من بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مُضر ولم يختلفوا في إجماعهم على عبد الله بن وهبٍ الراسبيٍّ ، وانه امتنع عليهم ، وأومأ إلى غيره ، فلم يقنعوا إلا به ، فكان إمام القوم ، وكان يُوصفُ بالرأي .

قال أبو العباس : فأما أولُ سيفٍ سُلَّ من سيوف الخوارج فسيفُ عرْوةَ ابن أديّة ، وذلك : أنه أقبلَ على الأشعثِ فقال : ما هذه الدَّنيئةُ يا أشعثُ ؟ وما هذا التحكيمُ : أشرْطٌ أوثقُ من شرْطِ الله عزَّ وجلَّ ؟ ! ثم شهر عليه السيفَ والأشعثُ مولٍّ ، فضربَ به عجزَ البغلة ، فشبّتِ البغلةُ فنفرت اليمانيةُ ، وكانوا جلَّ أصحابِ عليٍّ صلواتُ الله عليه ، فلما رأى ذلك الأحنفُ قصد

هو وجاريةُ بن قُدامة ومسعودُ بن فدكيّ بن أعبد وشبثُ بنُ ربعيّ الرّياحيُّ ، إلى الأشْعث ، فسألوه الصّفح ، ففعل .

وكان عروةُ بن أديَّة نجا من حرب النّهروانِ ، فلم يزلْ باقياً مدةً من خلافة معاوية ، ثم أُتي به زيادٌ ومعه مولىً له ، فسأله عن أبي بكرٍ وعمر ، فقال خيراً ، ثم سأله فقال : ما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان بن عفّان وأبي تراب عليّ بن أبي طالبٍ ؟ فتولى عثمانَ ست سنين من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر ! وفعل في أمر عليٍّ مثل ذلك إلى أن حكّم ، ثم شهد عليه بالكفر ! ثم سأله عن معاوية ؟ فسبَّه سبّاً قبيحاً ! ثم سأله عن نفسه ؟ فقال : أولُك لزنيةٍ وآخرُك لدعوةٍ ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك ! ثم أمر به فضُربتْ عنقه ، ثم دعا مولاه فقال : صفْ لي أُموره ؟ فقال : أأُطنبُ أم أختصرُ ؟ فقال : بل اختصر ، فقال : ما أتيته بطعامٍ بنهارٍ قطُّ ، ولا فرشتُ له فراشاً بليلٍ قطُّ .

وكان سببُ تسميتهم الحرُوريّة : أن علياً لمّا ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس رحمه الله إياهم ، فكان مما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لمّا رفعوا المصاحف قلتُ لكم أن هذه مكيدةٌ ووهنٌ ، وأنهم لو قصدُوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني ثم سألوني التحكيم ، أفعلمتمْ أنه كان منكم أحدٌ أكره لذلك مني ؟ قالوا : اللهم نعمْ . قال : فهل علمتمْ أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطتُ أن حكمها نافذٌ ما حكما بحكم الله عزّ وجلّ ، فإن خالفاه فأنا وانتم من ذلك برآء ، أوأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدُوني ؟ قالوا : اللهم نعم — وفيهم في ذلك الوقت ابنُ الكواء ، وهذا من قبل ان يذبحوا عبد الله بن خبّابٍ ، فإنما ذبحوه بكسكر في الفرْقة الثالثة — فقالوا : حكّمت في دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأنّا قد كفرنا ، ونحن تائبون ! فأقرْ بمثل ما أقررنا به وتبْ ، ننهضْ معك إلى الشام !! فقال : أما تعلمون أن الله جل ثناؤُه قد أمر بالتحكيم في شقاقٍ بين رجلٍ وامرأة ، فقال تبارك وتعالى : (فابعثوا حكماً منْ أهله وحكماً من أهلها) وفي صيدٍ أُصيب في الحرم ،

كأرنب يساوي رُبع دينارٍ ، فقال عز وجل (يحكمُ به ذوا عَدْلٍ منكم) فقالوا : إن عمراً لمَّا أبى عليك أن تقول في كتابك « هذا ما كتبه عبدُ الله عليٌّ أميرُ المؤمنين » محوْت اسمك من الخلافة ، وكتبت « عليُّ بنُ أبي طالبٍ » فقال لهم رضي الله عنه : لي برسول الله ﷺ أسوةٌ ، حيثُ أبى عليه سهيلُ بنُ عمروٍ أن يكتب « هذا كتابٌ كتبه محمدٌ رسولُ الله وسهيلُ بن عمروٍ » فقال : لو أقررنا بأنك رسولُ الله ما خالفناك ، ولكني أُقدّمك لفضلك ، ثم قال : اكتبْ « محمدُ بنُ عبد الله » فقال لي : يا عليُّ ، امحُ « رسولُ الله » فقلتُ : يارسول الله ، لا تَسخو نفسي بمحو اسمك من النبوة ، فقال عليه السلام : قفني عليه ، فمحاهُ بيده ﷺ ، ثم قال اكتبْ « محمدُ بنُ عبد الله » ثم تبسَّم إلي فقال ، ياعليُّ : أما إنك ستسامُ مثلها فتعطي فرجَع معه منهم ألفان من حروراء ، وقد كانوا تجمَّعوا بها ، فقال لهم عليٌّ صلواتُ الله عليه : ماتسَمِّيكمْ ؟ ثم قال : أنتم الحرُوريّةُ ، لاجتماعكم بحرُوراء .

والنّسبُ إلى مثل « حرُوراء » « حرُوراويُّ » فاعلمْ ، وكذلك كلُّ ما كان في آخره ألفُ التأنيث الممدودة ، ولكنه نسب إلى البلد بحذف الزوائد ، فقيل « الحرُوريُّ » .

★ ★ ★

وقال الصَّلتانُ العَبديُّ في كلمةٍ له :

أرى أُمّةً شهَرت سيفها ... وقد زيدفي سوْطها الاصبحي
بنجديّةٍ وحرُوريّةٍ ... وأزْرق يدْعو إلى أزْرقي
فملّتنا أنّنا المسلمون ... على دين صدّيقنا والنّبي

وفي هذا الشعر مما يستحسنُ قوله :

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيرَ ... مرُورُ اللّيالي وكرُّ العشيّ
إذا ليلةٌ هرّمت يومها ... أتى بعد ذلك يومٌ فتيّ

نروحُ ونغدُو لحاجاتنا وحاجةُ منْ عاش لاتنقضي
تموتُ مع المرْء حاجاته وتبقى له حاجة مّا بقي

قوله « وقد زبد في سوطها الأصبحي » ، فإنه تسمّى هـذه السياطُ التي يعاقبُ بها السلطانُ « الأصبحيّة » وتنسبُ إلى ذي أصبح الحميريّ ، وكان ملكا من ملوك حمير ، وهو أوّلُ من اتخذها ، وهو جـدُّ مالك بن أنسٍ الفقيـه رضي الله عنه .

« والنّجديّةُ » تنسبُ إلى نجـدة بن عويْمرٍ ، وهو عامرٌ الحنفيُّ ، وكان رأساً ذا مقالةٍ منفردةٍ من مقالات الخوارج ، وقد بقي من أهلها قومٌ كثيرٌ . وكان نجدةُ يصلي بمكة بحذاء عبد الله بن الزُبير في جمعه في كل جمعةٍ ، وعبد الله يطلبُ الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم . قال الراعي يخاطبُ عبد الملك :

إني حلفتُ على يمينٍ برةٍ لا أكذبُ اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيتُ أبا خبيبٍ وافداً يوماً أريـد ببيعتي تبديلا
ولا أتيتُ نجيدة بن عويمرٍ أبغي الهدى فيزيدني تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حيلتي إني أعـدُّ له عليّ فضولا

وفي هذه القصيدة :

أخذُوا العريف فقطّعوا حيزومهُ بالاصبحيّة قائمـاً مغلولا

قوله « وأزْرق يدعو إلى أزْرقي » يريدُ من كانْ من أصحاب نافـع بن الأزرق الحنفي ، وكان نافعٌ شجاعاً مقدّماً في فقه الخوارجْ ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كثيرة ، وسنذكر جملة منها في هذا الكتاب إن شاء الله .

وقوله « على دين صدّيقنا والنبي » فالعربُ تفعـلُ هذا ، وهو في الواو جائز ، أن تبدأ بالشيء ، وغيرُهُ المقدمُ . قال الله عز اسمـه : (هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ) وقال : (يامعشر الجنّ والإنس) وقال : (واسجدي وارْكعي مع الراكعين) وقال حسّانُ بن ثابتٍ :

بهاليلُ منهم جعفرٌ وابنُ أمّه عليٌّ ومنهم أحمـدُ المتخيّرُ

يعني : بني هاشم . ومن كلام العرب ربيعةُ ومضرُ وقيسٌ وخندفُ وسُليمٌ وعامرٌ . وأصحابُ نافع بن الأزرق هم ذوُو الحَدّ والجدّ ، وهم الذين أحاطوا بالبصرة حتى توحّل أكثر أهلها منها ، وكان الباقون على التّرحّل ، فقلّد المهلّبُ حربَهم ، فهزمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ، ثم أخرجهم إلى كرْمان . وفي ذلك يقول شاعرٌ منهم في هذه الحرب التي صاحبها صاحبُ الزّنج بالبصرة ، يرثي البلد ، ويذكر المنقبة التي كانت لهم . قال الأخفشُ : أنشدنيه يزيدُ المهلبيُّ لنفسه :

سقى الله مِصراً خفّ أهلوهُ من مصر ... وماذا الذي يبقى على عُقبِ الدهرِ
ولو كنتُ فيه إذ أبيح حريمه ... لمتُّ كريماً أو صدرت على عذر
أبيح فلم أملك له غير عبرة ... تُهيب بها أن حاردت لوعة الصدر
ونحن رددنا أهلها إذ توحلوا ... وقد نُظمتْ خيل الأزارق بالجسر
ومن يخش أطراف المنايا فإننا ... لبسنا لهن السابغات من الصبر
فإنّ كريه الموت عذبٌ مذاقه ... إذا ما مزجناه بطيبٍ من الذّكر
وما رزق الانسانُ مثل منيةٍ ... أراحت من الدنيا ولم تخز في القبر

وفي هذا الشعر يقول :

ليشكر بنو العباس نعمى تجددت ... فقد وعد اللهُ المزيد على الشُّكر
لقد جنبتكم أسرةٌ حسدتكمُ ... فسلت على الإسلام سيفاً من الكفر
وقد نغصتَهمْ جولةٌ بعد جولةٍ ... يبيتون فيها المسلمين على ذعر

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات :

ألا طرقت من أهل تَيبة طارقةْ ... على أنها معشوقةُ الدلّ عاشقهْ
تبيت وأرضُ السُّوس بيني وبينها ... وسُولاف رُستاقٌ حمتهُ الأزارقهْ
إذا نحنُ شئْنا صادفتنا عصابةٌ ... حروريةٌ أضحت من الدّين مارقهْ

وكان مقدارُ من أصاب عليٌّ صلوات الله عليه منهم بالنهْروان ألفين وثماني مائةٍ ، في أصحّ الأقاويل ، وكان عددُهمْ ستة آلاف ، وكان منهم بالكوفة

زُهاءُ ألفين ممن يُسرُّ أمرهُ ولم يشهر الحرب ، فخرج منهم رجلٌ بعد أنْ قال عليٌّ رضوان الله عليه : ارجعُوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خبَّابٍ ، فقالوا : كلُّنا قتلهُ وشرِكَ في دمه ! ثم حمل منهم رجلٌ على صفِّ عليٍّ ، وقد قال عليٌّ : لاتبدؤُوهم بقتالٍ ، فقتل من أصحاب عليٍّ ثلاثة وهو يقولُ :

أقتلُهُمْ ولا أرى عليّاً ولو بدا أوْجرتُهُ الخطّيا

فخرج إليه عليٌّ صلوات الله عليه فقتله ، فلما خالطه السيفُ قال : حبّذا الروْحةُ إلى الجنّة ، فقال عبد الله بنُ وهبٍ : ما أدْري إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال رجلٌ من بني سعدٍ : إنما حضرتُ اغتراراً بهذا ، وأراه قد شكّ!! فانخزل بجماعةٍ من أصحابه ، ومال ألفٌ إلى ناحية أبي أيوب الأنصاريِّ ، وكان رحمة الله على ميمنة عليٍّ ، وجعل الناسُ يتسلّلون،وقد قال عليٌّ ،وقيل له : إنهم يريدون الجسر ، فقال : لن يبلغوا النُّطفة ، وجعل الناسُ يقولون له في ذلك ، حتى كادوا يشكُّون ، ثم قالوا : قد رجعُوا ياأمير المؤمنين ، فقال : والله ما كذَبتُ ولا كذِبتُ ، ثم خرج إليهم في أصحابه ، وقد قال لهم : إنه والله ما يُقتلُ منكم عشرةٌ ، ولا يُفلتُ منهم عشرةٌ ، فقتل من أصحابه تسعة ، وأفلت منهم ثمانيةٌ .

* * *

قال أبو العباس: وقيل: أولُ من حكم ولفظ بالحكومة ولم يُشدْ بها رجلٌ من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرٍّ ، من بني صريمٍ ، يقال له الحجاجُ بنُ عبد الله ، ويُعرفُ بالبُرك ، وهو الذي ضرب معاوية على أليته ، فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أيحكَّمُ في دين الله ؟ لاحُكم الا لله ! فسمعه سامعٌ فقال : طعن والله فأنفذ .

وأولُ من حكم بين الصفّين رجلٌ من بني يشكُر بن بكر بن وائلٍ ، فإنه كان في أصحاب عليٍّ ، فحمل على رجلٍ منهم فقتله غيلةً ، ثم مرق بين

الصفين فحكم ، وحمل على أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع الى ناحية عليٍّ صلوات الله عليه ، فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجلٌ من همدانَ فقتله ، فقال شاعرُ همْدانَ :

ما كان أغنى اليشكُري عن التي تصلى بها جمْراً من النار حاميا
غداة يُنادي والرماحُ تنوشُه خلعتُ علياً بادياً ومُعاويا

وجاء في الحديث ، ان علياً رضي الله عنه تُلي بحضرته : (قُلْ هل نُنبئُكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيُهمْ في الحياة الدُّنيا وهم يحسبونَ أنهم يُحسنون صنْعاً) فقال عليٌّ : أهلُ حروراءَ منهم

ورُوي عن عليّ صلوات الله عليه : انه خرج في غداةٍ يُوقظُ الناس للصلاة في المسجد ، فمرَّ بجماعةٍ تتحدثُ ، ، فسلمَ وسلّموا عليه ، فقال وقبض على لحيته : ظننتُ أن فيكم أشقاها ، الذي يخضِبُ هذه من هذه . وأوْمأ بيده إلى هامتهِ ولحيتهِ .

ومن شعر عليٍّ بن أبي طالب أمير المؤمنين الذي لا اختلاف فيه أنه قاله ، وأنه كان يُردّده : أنهم لما ساموه أن يُقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام ، فقال : أبعد صُحبة رسول الله ﷺ والتفقُّهِ في الدين أرجع كافراً !؟ :

ياشاهد الله عليَّ فاشهدِ أنّي على دين النبيِّ أحمدِ
من شك في الله فإنّي مهتدي

ويروى : أنّي توليت وليَّ أحمد

ويُروى : « أن رجلاً أسود شديد بياض الثياب وقف على رسول الله ﷺ وهو يقسم غنائم خيبر ، ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية فأقبل ذلك الأسود على رسول الله ﷺ ، فقال : ما عدلتَ منذُ اليومِ ! فغضب رسول الله ﷺ حتى رؤي الغضب في وجهه . فقال عمر بن الخطاب : ألا أقتله يارسول الله ؟ فقال رسول الله : إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبأٌ » .

وفي حديثٍ آخر : « أن رسول الله ﷺ قال له ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدلْ ؟ ثم قال لأبي بكرٍ : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يارسول الله ! رأيته راكعاً ، ثم قال لعمرَ : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال يارسول الله ! رأيته ساجداً ، ثم قال لعليٍّ : اقتله ، فمضى ثم رجع ، فقال : يارسول الله ! لم أره ، فقال رسول الله : لو قتل هذا ما اختلف اثنان في دين الله » .

قال أبو العباس : وحدثني إبراهيم بن محمد التيميُّ قاضي البصرة في إسنادٍ ذكره : « أن علياً رضي الله عنه وجّــه إلى رسول الله ﷺ بذهبه من اليمن ، فقسمها أرباعاً ، فأعطى ربعاً للأقرع بن حابس المجاشعيّ ، وربعاً لزيد الخيلِ الطائيّ ، وربعاً لعيينة بن حصنٍ الفزاريّ ، وربعاً لعلقمة بن علاثة الكلابي فقام إليه رجلٌ مضطرب الخلق ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، فقال له : لقد رأيت قسمةً ما أُريد بها وجه الله !! فغضب رسول الله ﷺ حتى تورد خداه ، ثم قال : أيأمنني الله عزّ وجلّ على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ فقام إليه عمر فقال : ألا أقتله يارسول الله ؟ فقال ﷺ : انه سيكون من ضِئْضِىءِ هذا قومٌ يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّميّة ، تنظر في النّصل فلا ترى شيئاً ، وتنظر في الرّصاف فلا ترى شيئاً ، وتتمارى في الفوق » .

قوله ﷺ « من ضِئْضِىءِ هذا » أي : من جنس هذا . يقال : فلانٌ من ضِئْضِىءِ صدقٍ ، ومن محتد صدقٍ ، وفي مركّب صدقٍ . وقال جريرٌ للحكم بن أيّوب بن الحكم بن أبي عقيلٍ ، وهو ابن عمّ الحجاج ، وكان عامله على البصرة :

أقبلن من ثهلان او وادي خيمْ على قلاصٍ مثل خيطان السّلمْ
إذا قطعن علماً بدا علمْ حتى أنخناها الى باب الحكَمْ
خليفة الحجّاج غير المتّهم في ضِئْضِىءِ المجد وبحبوح الكرمْ

ويقال « مرق السهم من الرميّة » إذا نفذ منها وأكثر مايكون ذلك ان

لا يعلق به من دمها شيءٌ ، وأقطع ما يكون السيف إذا سبق الدم . قال امرؤ القيس بن عابسٍ الكنديُّ :

وقد أختلس الضّربـ ـة لا يدمى لها نصلي

فأمّا ما وضعه الأصمعيُّ في كتاب الاختيار فعلى غلطٍ وضع . وذكر الأصمعيُّ ان الشّعر لإسحق بن سويدٍ الفقيه ، وهو لأعرابيٍّ لا يعرف المقالات التي يميل إليها أهل الأهواء ، أنشد الأصمعيُّ :

برئت من الخوارج لست منهم من الغزّال منهم وابن باب
ومن قومٍ إذا ذكروا عليّاً يردُّون السّلام على السّحاب
ولكني أُحبُّ بكلّ قلبي وأعلم أن ذاك من الصّواب
رسول الله والصدّيق حبّاً به أرجو غداً حسن الثّواب

فإنّ قوله « من الغزال منهم » يعني واصل بن عطاء ، وكان يكنى ابا حذيفة ، وكان معتزلياً ، ولم يكن غزالاً ، ولكنه كان يلقّب بذلك ، لأنه كان يلزم الغزالين ، ليعرف المتعفّفات من النساء ، فيجعل صدقته لهنّ ، وكان طويل العنق . ويروى عن عمر بن عبيد ، أنه نظر إليه من قبل ان يكلمه ، فقال : لا يفلح هذا ما دامتْ عليه هذه العنق !

وقال بشار بن بردٍ يهجو واصل بن عطاءٍ :

ماذا منيت بغزّالٍ له عنقٌ كنِقنق الدوّ إن ولى وإن مثلا
عنْق الزرافة ما بالي وبالكم تكفّرون رجالاً أكفروا رجلا

ويروى ، لا بلْ كأنه لا يشكُّ فيه : إن بشّاراً كان يتعصّب للنّار على الأرض ، ويصوّب رأي إبليس – لعنه الله – في امتناعه من السجود لآدم عليه السلام ، ويروى له :

الأرض مظلمةٌ والنار مشرقةٌ والنار معبودةٌ مذْ كانت النار

فهذا ما يرويه المتكلمون .

وقتلهُ أميرُ المؤمنين المهديُّ على الإلحاد . وقد روى قومٌ أن كتبهُ فتّشتْ فلم يصبْ فيها شيءٌ مما كان يرْمى بـه ، وأُصيب له كتابٌ فيـه : إني أردتُ هجاء آل سليمان بن عليٍ ، فذكرتُ قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكتُ منهم إلا اني قلتُ :

دينارُ آل سليمانٍ ودرْهمهمْ ... كبابليّين حفّا بالعفاريت
لا يرْجيان ولا يرْجى نوالهما ... كما سمعت بهارُوتٍ ومارُوت

وحدثني المازنيُّ قال : قال رجلٌ لبشّارٍ : أتأكلُ اللّحم وهو مباينٌ لديانتك ؟! يذْهبُ به إلى أنه ثنويٌّ ! قال : فقال بشّارٌ : ليسوا يدْرُون أن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظّلمة .

وكان واصلُ بنُ عطاءٍ أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللُّثغة في الراء ، فكان يخلّصُ كلامـه من الراء ، ولا يُفطنُ بذاك ، لاقتداره وسهولة ألفاظـه . ففي ذلك يقولُ شاعرٌ من المعتزلة ، يمدحه بإطالتـه الخطب واجتنابه الراء ، على كثرة تردُّدها في الكلام ، حتى كأنها ليستْ فيه :

عليمٌ بإبدال الحروف وقامـعٌ ... لكلّ خطيبٍ يغلبُ الحق باطله

وقال آخرُ :

ويجعلُ البر قمحاً في تصرُّفه ... وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطقْ مطراً والقولُ يعجلهُ ... فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

ومما يحكى عنه قوله ، وذكر بشاراً : أما لهذا الأعمى المكتني بأبي معاذ منْ يقتلهُ ؟! أما والله لولا أن الغيلة خلقٌ من أخلاق الغالية لبعثتُ إليه من يبعجُ بطنه على مضجعه ، ثم لايكونُ الا سدُوسيّاً او عقيليّاً .

فقال « هذا الأعمى » ولم يقل بشّاراً ، ولا ابن برْدٍ ، ولا الضريرَ وقال « من أخلاقِ الغالية » ولَم يقل المغيريّة ، ولا المنصورية . وقال « لبعثنا إليه » ولم يقل لأرسلتُ إليه . وقال « على مضجعه » ولم يقـل على فراشه

ولا مرقده . وقال « يعجُ » ولم يقل يقرُ . وذكر « بني عقيل » لأن بشاراً كان يتوالى إليهم . وذكر « بني سدُوس » لأنه كان نازلاً فيهم .

واجتنابُ الحرف شديدٌ .

قال : ولمّا سقطت ثنايا عبد الملك بن مروان في الطّست قال : والله لولا الخطبةُ والنساءُ ما حفلتُ بها .

قال : وخطب الجمحيُّ ، وكان منزوع إحدى الثّنيّتين ، وكان يصفرُ إذا تكلّم ، فأجاد الخطبة ، وكانت لنكاحٍ ، فرد عليه زيدُ بن علي بن الحسين كلاماً جيداً ، إلا أنه فضلهُ بتمكُّن الحروف وحسن مخارج الكلام ، فقال عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفرٍ يذكرُ ذلك .

صحّتْ مخارجها وتم حروفها   فلهُ بذاك مزيّةٌ لاتنكرُ

« المزيّة » الفضيلةُ .

واما قوله « وابن بابٍ » فإنه ، عمرُو بن عبيد بن بابٍ ، وكان موْلى بني العدويّة ، من بني مالك بن حنظلة ، فهذان معتزليّان ، وليسا من الخوارج ، ولكن قصد إسحقُ بن سويدٍ إلى أهل البدع والأهواء ، الا تراه ذكر الرافضة معها ، فقال :

ومن قومٍ إذا ذكرُوا عليّاً   أشارُوا بالسّلام على السّحاب

ويرْوى :   يرُدوُن السّلام على السّحاب

* * *

ثم نرجع إلى ذكر الخوارج .

قال ابو العباس : فلما قتل عليُّ بنُ أبي طالبٍ أهل النهروان ، وكان بالكوفة زُهاءُ ألفين من الخوارج ، ممن لم يخرُجْ مع عبد الله بن وهبٍ ، وقومٌ ممن استأمن إلى أبي أيوب الأنصاري : فتجمعوا وأمّرُوا عليهم رجلًا من طيىءٍ ،

فوجّه إليهم عليٌّ صلوات الله عليه رجلًا ، وهم بالنُّخيلة ، فدعاهم ورفق بهم ، فأبوْا ، فعاودهم فأبوْا ، فقتلوا جميعاً . فخرجتْ طائفةٌ منهم نحو مكة ، فوجّه معاويةُ منْ يقيمُ للناس حجّهم ، فناوشهُ هؤلاء الخوارجُ ، فبلغ ذلك معاوية فوجه بسر بن أرْطاة ، أحد بني عامر بن لؤيّ ، فتوافقوا وتراضوْا بعد الحرب بأن يصلّي بالناس رجلٌ من بني شيبة ، لئلا يفوت الناس الحجُّ ، فلمّا انقضى نظرت الخوارجُ في أمرها ، فقالوا : إن عليّاً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهما لعاد الأمرُ إلى حقّه ! وقال رجلٌ من أشجع : والله ما عمرٌو دونهما وإنه لأصلُ هذا الفساد . فقال عبدُ الرحمن بن ملجمٍ المراديُّ لعنةُ الله عليه : أنا أقتلُ عليّاً ، فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله ، قال الحجاج بن عبد الله الصّريميُّ ، وهو البُرك : وأنا أقتلُ معاوية . وقال زاذويه موْلى بني العنبر بن عمرو بن تميمٍ : وأنا أقتلُ عمراً . فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلةٍ واحدةٍ ، فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان ، فخرج كلُّ واحدٍ منهم إلى ناحيةٍ ، فأتى ابن ملجمٍ الكوفة ، فأخفى نفسه وتزوج امرأةً يقالُ لها قطام بنتُ علقمة من تيم الرّباب ، وكانتْ ترى رأي الخوارج ، والأحاديثُ تختلفُ ، وإنما يؤثرُ صحيحها ، ويرْوى في بعض الأحاديث أنها قالتْ : لا أقنعُ منك إلا بصداقٍ أسمّيه لك ، وهو ثلاثةُ آلاف درهمٍ ، وعبدٌ وأمةٌ ، وأن تقتل عليّاً ! فقال لها : لك ما سألت ، فكيف لي به ؟ قالت : تروم ذلك غيلةً ، فإنْ سلمت أرحت الناس منْ شرّ ، وأقمت مع أهلك ، وإنْ أصبت صرْت إلى الجنة ونعيمٍ لا يزول ! فأنعم لها بذلك . وفي ذلك يقول :

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ — وضرب عليٍّ بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من عليٍّ وإنْ غلا — ولافتك إلادون فتك ابن ملجم

قال أبو العباس : وقد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجمٍ والقاصد إلى عمرٍو وآخر من بني ملجمٍ ، وأن أباهم نهاهم ، فلما عصوْه قال : استعدُّوا للموت ، وأن أمهم حضّتهم على ذلك . والخبر الصحيح ماذكرت لك أول مرة .

فأقام ابن ملجم ، فيقال : أن امرأته قطام لامته ، وقالت : ألا تمضي لما قصدْتَ له ؟ لشد ما أحببت أهلك ! قال : إني قد وعدْت صاحبٌ وقتاً بعينه . وكان هنالك رجلٌ من أشجع ، يقال له شبيبٌ ، فواطأه عبد الرحمن .

ويرْوى : أن الأشعث نظر إلى عبد الرحمن متقلداً سيفاً في بني كندة ، فقال : ياعبد الرحمٰن ، أرني سيفك ، فأراه إياه ، فرأى سيفاً حديداً ، فقال : ما تقلدك هذا السيف وليس بأوان حربٍ ؟ فقال : إني أردت أن أنحر به جزور القرْية ! فركب الأشعث بغلته وأتى علياً صلوات الله عليه فخبّره ، وقال له : قد عرفت بسالة ابن ملجمٍ وفتكه فقال عليٌ : ماقتلني بعد !!

ويروى : أن علياً رضوان الله عليه كان يخطب مرةً ويذكر أصحابه ، وابن ملجم تلقاء المنبر ، فسُمع وهو يقول : والله لأريحنهمْ منك ! فلمّا انصرف عليٌ صلوات الله عليه إلى بيته أتي به ملبباً ، فأشرف عليهم ، فقال : ما تريدون ؟ فخبّروه بما سمعوا ، فقال : ما قتلني بعد . فخلّوْا عنه

ويروى : أن علياً كان يتمثّل إذا رآه ببيت عمرو بن معدي كرب في قيس بن مكشوحٍ المراديّ ، والمكشوح هبيرة ، وإنما سمي بذلك لأنه ضرب على كشحه :

أُريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فينتفي من ذلك ، حتى أُكثر عليه ، فقال له المراديُّ : إن قضي شيءٌ كان . فقيل لعليٍ : كأنك قد عرفته وعرفت مايريد بك ، أفلا تقتله ؟ فقال : كيف أقتل قاتلي ؟ !

فلمّا كان ليلةَ إحدى وعشرين من شهر رمضان ، خرج ابن ملجم وشبيبٌ الأشجعيُّ ، فاعتورا الباب الذي يدخل منه عليٌّ رضي الله عنه ، وكان عليٌّ يخرج مغلساً ، ويوقظ الناس للصلاة ، فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيبٌ

فأخطأه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعته ، فقال عليٌّ : فزتُ وربِّ الكعبة ، شأنكم بالرجل . فيروى عن بعض من كان بالمسجد من الأنصار قال : سمعت كلمة عليٍّ ، ورأيت بريق السيف . فأمّا ابن ملجم فحمل على الناس بسيفه فأفرجوا له ، وتلقّاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطّلب بقطيفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض ، وكان المغيرة أيداً ، فقعد على صدره . وأمّا شبيبٌ فانتزع السيف منه رجلٌ من حضرموت ، وصرعه وقعد على صدره . وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحب السيف ، فخاف الحضرميُّ أن يكبّوا عليه ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف ، وانسلّ شبيبٌ بين الناس . فدُخِل بابن ملجم على عليٍّ رضوان الله عليه ، فأومر فيه ، فاختلف الناس في جوابه ، فقال عليٌّ : إنْ أعش فالأمر إليّ ، وإن أصب فالأمر لكم ، فإن آثرتمْ أن تقتصّوا فضربةٌ بضربة ، وأنْ تعفوا أقرب للتّقوى . وقال قومٌ : بل قال : وإنْ أُصبت فاضربوه ضربة في مقتله . فأقام عليٌّ يومين ، فسمع ابن ملجم الرنّة من الدار ، فقال له من حضره . أيْ عدو الله : إنه لابأس على أمير المؤمنين ، فقال : أعلى منْ تبكي أمُّ كلثوم؟ أعليّ ؟ أما والله لقد اشتريت سيفي بألف درهم ، وما زلت أعرضه ، فما يعيبه أحدٌ إلا أصلحت ذلك العيب ، ولقد أسقيته السُّم حتى لفظه ، ولقد ضربته ضربةً لو قسمتْ على منْ بالمشرق لأتتْ عليهم . ومات عليٌّ صلوات الله ورضوانه عليه ورحمته في آخر اليوم الثالث ، فدعابه الحسن رضي الله عنه ، فقال : إنّ لك عندي سرّاً ! فقال الحسن رضوان الله عليه : أتدْرون ما يريد ؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعض أذني فيقطعها ، فقال : أما والله لو أمكنتني منها لاقتلعتها من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله ، لأضربنّك ضربةً تؤدّيك إلى النار ، فقال : لو علمت أن هذا في يديك ما اتخذت إلهاً غيرك ، فقال عبد الله ابن جعفر : يا أبا محمد ، ادفعه إليّ أشف نفسي منه . فاختلفوا في قتله ، فقال قومٌ : أحمى له ميلين وكحله بها ، فجعل يقول : إنك يا ابن أخي لتكحل عمّك بملولين مضّاضين ، وقال قومٌ : بل قطع يديه ورجليه ، وهو في ذلك

يذكر الله عز وجل ، ثم عمد إلى لسانه ، فشق ذلك عليه ، فقيل له : لم تجزعْ من قطع يديك ورجليك ونراك قد جزعت من قطع لسانك ؟ فقال : نعم ، أحببت أن لايزال فمي يذكر الله رطباً ، ثم قتله .

ويروى : أن علياً رضي الله عنه أُتي بابن ملجمٍ وقيل له إنّا قد سمعنا من هذا كلاماً فلا نأمن قتله لك ؟ فقال : ما أصنع به ؟ ثم قال عليٌّ رضوان الله عليه :

اشددْ حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزعْ من الموت ... إذا حلّ بواديكا

والشعر إنما يصحُّ بأن تحذف « اشددْ » فتقول :

حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ، ولا يعتدون به في الوزن ، ويحذفون من الوزن ، علماً بأن المخاطب يعلم مايزيدونه ، فهو إذا قال « حيازيمك للموت » فقد أضمر « اشددْ » فأظهره ، ولم يعتد به . وقال : وحدثني ابو عثمان المازنيُّ قال : فصحاء العرب ينشدون كثيراً :

لسعد بن الضّباب إذا غدا ... أحبُّ إلينا منك فافرسٍ حمرْ

وإنما الشعر : لعمري لسعد بن الضباب إذا غدا

• • •

وأما الحجّاج بن عبد الله الصّريميُّ – وهو البرك – ، فإنه ضرب معاوية مصلّياً فأصاب مأكمته ، وكان معاوية عظيم الأوْراك ، فقطع منه عرْقاً يقال أنه عرْق النّكاح ، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولدٌ ، فلما أُخذ قال : الأمان والبشارة ، قتل عليٌّ في هذه الصّبيحة ، فاستوْني به حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ورجله ، فأقام بالبصرة ، فبلغ زياداً أنه قد ولد له ، فقال : أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له ، فقتله . هذا أحد الخبرين .

ويرْوى : أن معاوية قطع يديه ورجليه ، وأمر باتخاذ المقصورة ، فقيل لابن عباسٍ بعد ذلك : ما تأويل المقصورة ؟ فقال : يخافون أن يبطلهم الناس .

وأما زاذويه : فإنه أرصد لعمرو ، واشتكى عمرو بطنه ، فلم يخرج للصلاة ، وخرج إلى الصلاة خارجة ، وهو رجل من بني سهم بن عمرو بن هصيص ، رهط عمرو بن العاص ، فضربه زاذويه فقتله ، فلما دخل به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة قال : أو ما قتلت عمراً ؟ قيل : لا ، إنما قتلت خارجة ، فقال : أردت عمراً والله أراد خارجة .

* * *

وقال أبو زبيد الطائي يرثي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه :

إن الكرام على ما كان من خلق ... رهط امرىء خاره للدين مختار
طب بصير بأضغان الرجال ولم ... يعدل بحبر رسول الله أحبار
وقطرة قطرت إذ حان موعدها ... وكل شيء له وقت ومقدار
حتى تنصلها في مسجد طهر ... على إمام هدى إن معشر جاروا
حمت ليدخل جنات أبو حسن ... وأوجبت بعده للقاتل النار

قوله « خاره » إنما هو : اختاره ، وهو « فعله » و « اختاره » « افتعله » كما تقول : قدر عليه واقتدر عليه .

وقوله « بصير بأضغان الرجال » ، فهي أسرارها ومخبآتها . قال الله تعالى : (فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) . و « الحبر » العالم . ويروى ان علياً رضوان الله عليه مر بيهودي يسأل مسلماً عن شيء من أمر الدين ، فقال له علي : اسألني ودع الرجل ، فقال له : ياأمير المؤمنين ! أنت حبر ، أي : عالم ، قال علي : أن تسأل عالماً أجدى لك .

وقوله « حتى تنصلها » يريد : استخرجها .

وقوله « حمت » معناه قدرت .

قال الكميت :

والوصي الذي أمال التجوبـ ... ـي به عرش أمة لانهدام

قتلوا يوم ذاك إذْ قتلوه حكما لا كغابر الحكّام
الإمام الزكيّ والفارس المعـ ـلم تحت العجاج غير الكهام
راعياً كان مسْجحاً ففقدْنا ه وفقد المسيم هلك السّوام

قوله « الوصيُّ » فهذا شيءٌ كانوا يقولونه ويكثرون فيه . قال ابن قيس الرقيات :

نحن منّا النبيُّ أحمد والصدّيـ ـق منّا التّقيُّ والحكماء
وعليٌّ وجعفرٌ ذو الجناحيـ ـن هناك الوصيُّ والشُّهداء

وقال كثيرٌ لمّا حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفيّة في خمسة عشر رجلاً من أهله في سجن عارم :

تُخبر منْ لاقيت أنك عائذٌ بل العائذ المحبوس في سجن عارم
وصيُّ النبيّ المصطفى وابن عمّه وفكّاك أعناق وقاضي مغارم

أراد : ابن وصيّ النبيّ ، والعرب تقيم المضاف إليه في هذا الباب مقام المضاف ، كما قال الآخر :

صبّحن من كاظمة الخص الخرب يحملن عبّاس بن عبد المطّلبْ

يريد : ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الفرزدق لسليمان بن عبد الملك :

ورثتم ثياب المجد فهي لبوسكمْ عن ابن منافٍ عبد شمس وهاشم

يريد : ابنيْ عبد منافٍ .

وقال أبو الأسود :

أُحبُّ محمّداً حبّاً شديداً وعبّاساً وحمزة والوصيّا
أحبهم لحبّ الله حتى أجيء إذا بعثت على هويّا
هوًى أعطيته منذ استدارتْ رحى الإسلام لم يعدلْ سويّا

« السّويُّ » و « السّواء » الذي قد سوى الله خلقه ، لا زمانة به ولا داء . وفي القرآن : (بشراً سويّاً) . وتقول : ساويت ذاك بهذا الأمر ،

أي : جعلته مثلاً له .

يقول الأرذلون بنو قشيرٍ طوال الدهر ما تنسى عليّاً
بنو عمّ النبيّ وأقربوه أحبُّ الناس كلّهم إليّا
فإن يك حبُّهم رشداً أصبه وليس بمخطىءٍ إن كان غيّاً

ويروى « ولست » وكان بنو قشير عثمانيّةً ، وكان أبو الأسودِ نازلاً فيهم ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبح شكا ذلك ، فشكاهم مرةً ، فقالوا له : مانحن نرميك ، ولكنّ اللهَ يرميكَ ! فقال : كذبتم واللهِ ، لو كان الله يرميني لما أخطأني .

قال : وكان نقش خاتمِه :

ياغالبي حسبك من غالبِ ارحمْ عليّ بن أبي طالب

وقوله « غيرَ الكهامِ » فالكهام : الكليل من الرجال والسيوفِ ، يقال سيفٌ كهامٌ . وقوله :

« وراعياً كان مسجحاً ففقدنا وفقد المسيم هُلكُ السّوامِ »

فالمسيم : الذي يسيم إبله أو غنمه ترعى ، وكذلك كلُّ شيءٍ من الماشيةِ ، فجعل الراعي للناس كصاحب الماشية الذي يسيمها ويسوسها ويصلحها ، ومتى لم يرجع أمر الناس إلى واحدٍ فلا نظام لهم ، ولا اجتماع لأمورهم . قال ابن قيس الرُّقيّاتِ :

أيها المشتهي فناء قريشٍ بيدِ اللهِ عمرُها والفناء
إن تودّعْ من البلاد قريشٌ لا يكنْ بعدهم لحيٍّ بقاء
لو تقفّي ويترك الناس كانوا غنم الذئبِ غابَ عنها الرّعاء

وقال الحميريُّ يعني عليّاً رضوان الله عليه :

كان المسيمَ ولم يكن إلا لمنْ لزم الطريقة واستقام مسيما

ولمّا سمع عليٌّ صلوات الله عليه نداءهم « لاحكمَ إلا للهِ » قال : كلمةٌ عادلة يراد بها جورٌ ، إنما يقولون لا إمارة ، ولا بدّ من إمارةٍ ، برةٍ أو فاجرةٍ .

* * *

ورووا أن علياً عليه السلام لمّا أوصى إلى الحسن في وقفِ أمواله وأن يجعلَ فيها ثلاثةً من مواليه وقف فيها عين أبي نيزر والبغيبغة . وهذا غلطٌ ، لأن وقفه لهذين الموضعين لستتين من خلافته .

قال أبو العبـــاس : حدثنـا أبو محلمٍ محمـد بن هشامٍ في إسنادٍ ذكره آخرُه أبو نيزر ، وكان أبو نيزر من أبناء بعض ملوك الأعاجم ، قال : وصح عندي بعدُ أنـه من ولد النّجاشيّ ، (يعـني أبا نيزر) ، فرغب في الإسلامِ صغيراً ، فأتى رسول الله ﷺ فأسلم ، وكان معه في بيوته ، فلما توفي رسول الله صار مع فاطمة وولدها عليهم السلام ، قال أبو نيزر : جاءني عليٌّ بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وأنا أقوم بالضّيعتين : عين أبي نيزر والبغيـبغةِ ، فقال لي : هل عندك من طعامٍ ؟ فقلت : طعامٌ لا أرضاه لأمير المؤمنين ، قرعٌ من قرْع الضيعة صنعته بإهالةٍ سنخةٍ ، فقال : عليّ به ، فقام إلى الرّبيـع ، وهو جدْولٌ ، فغسل يديه ، ثم أصاب من ذلك شيئاً ، ثم رجع إلى الربيـع ، فغسل يديه بالرّمل حتى أنقاهما ، ثم ضمّ يديـه كلّ واحدةٍ منها إلى أختها ، وشرب بها حُساً من ماء الرّبيـع ، ثم قال : ياأبا نيزر ! إن الأكفّ أنظف الآنية ، ثم مسح ندى ذلك الماء على بطنه ، وقال : من أدخله بطنه النار فأبعده الله ، ثم أخذ المعول وانحدر في العين ، فجعل يضرب ، وأبطأ عليه الماء ، فخرج وقد تفضّج جبينه عرقاً ، فانتكف العرق عن جبينه ، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين ، فأقبل يضرب فيها وجعل يُهَمْهِم فانثالت كأنها عنق جزورٍ ، فخرج مسرعاً ، فقال أشهد الله أنها صدقةٌ ، عليّ بدواةٍ وصحيفةٍ قال : فعجّلت بها إليـه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تصدق به عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين ، تصدق بالضّيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة ، على فقراء أهل المدينة وابن السّبيل ، ليقي الله بها وجهه حر النار يوم القيامـــة ، لاتباعا ولا توهبا ، حتى يرثها الله وهو خير الوارثين ، إلا أن يحتاج إليها الحسن او الحسينُ فها طِلقٌ لها ، وليس لأحدٍ غيرهما . قال محمد بن هشام : فركب الحسين رضي الله عنه دَيْنٌ ، فحمل إليه معاويةُ بعين أبي نيزر مائتي الف دينارٍ ، فأبى ان يبيـع ،

وقال : إنما تصدّق بها أبي ليقي الله بها وجهه حرّ النار ، ولست بائعها بشيء .

وتحدّث الزّبيريّون : أن معاوية كتب الى مروان بن الحكم ، وهو والي المدينة : أمّا بعد ، فإن أميرَ المؤمنين أحب أن يرد الألفة ، ويسلّ السّخيمة ، ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاخطب إلى عبدِ الله بن جعفر ابنته أم كلثومٍ على يزيد بن أمير المؤمنين ، وارغب له في الصّداق ، فوجه مروانُ إلى عبد الله بن جعفر ، فقرأ عليه كتاب معاوية ، وأعلمه بما في ردّ الألفة من صلاح ذات البين ، واجتماعِ الدّعوة ، فقال عبدُ الله : إن خالها الحسينَ بينبعَ ، وليس ممن يُفتاتُ عليه بأمرٍ ، فأنظرْني إلى أن يقدَمَ ، وكانت أمُّها زينب بنت عليّ بن أبي طالبٍ صلواتُ الله عليه ، فلما قدمَ الحسين ذكر ذلك له عبد الله ابن جعفرٍ ، فقام مِن عنده فدخل إلى الجارية ، فقال : يابنيّة ! إنّ ابن عمك القاسمَ ابن محمد بن جعفرٍ بن أبي طالبٍ أحقُ بكِ ، ولعلكِ ترْغبين في كثرةِ الصّداق وقد نحلْتكِ البغيغات ، فلمّا حضرَ القوم للإملاك تكلّم مروان بن الحكم ، فذكر معاوية وماقصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من القاسم بن محمدٍ فقال له مروان : أغدْراً ياحسين ؟ ! فقال : أنت بدأتَ ، خطبَ أبو محمدٍ الحسن بن عليٍّ عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفّان ، واجتمعنا لذلك ، فتكلمت أنتَ فزوجتها من عبد الله بن الزّبير ، فقال مروان : ما كان ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطبٍ فقال : أنشدكَ الله ، أكان ذاك ؟ قال : اللهم نعمْ . فلم تزل هذه الضّيعة في يديْ بني عبدِ الله بن جعفرٍ ، من ناحية أمّ كلثومٍ ، يتوارثونها ، حتى ملك أمير المؤمنين المأمون ، فذكر ذلك له ، فقال كلا ، هذا وقف علي بن أبي طالبٍ صلواتُ الله عليه ، فانتزعها من أيديهم ، وعوضهم عنها ، وردها إلى ما كانتْ عليه .

• • •

قال أبو العباس : رجع الحديث إلى ذكر الخوارج وأمرِ علي بن أبي طالب .

قال : ويروى أن علياً في أول خروج القومِ عليه دعا صعصعة بن صوحان

العبدي ، وقد كان وجّهه إليهم ، وزياد بن النّضر الحارثي مع عبد الله بن العباس ، فقال لصعصعة : بأي القوم رأيتهم أشد إطافةً ؟ فقال : بيزيد بن قيسٍ الأرحبي ، فركب عليٌّ إليهم إلى حرُوراء ، فجعل يتخلّلهُم ، حتى صار إلى مضربِ يزيد بن قيسٍ ، فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبلَ على الناسِ ، ثم قال : هذا مقامٌ من فَلج فيه فَلج يوم القيامة ، أنشدكم الله ، أعلمتم أحداً منكم كان أكرهَ للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلامَ خالفتموني ونابذتموني ؟ قالوا : إنّا أتينا ذنباً عظيماً ، فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نعد لك ؟ فقال عليٌّ : إني أستغفر الله من كل ذنبٍ ، فرجعوا معه ، وهم ستة آلافٍ . فلما استقرُّوا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً ، وقالوا : إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ويجبى المال فينهضَ إلى الشام ، فأتى الأشعث بن قيسٍ علياً عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد تحدثوا أنك رأيتَ الحكومةَ ضلالاً والإقامةَ عليها كفراً !! فخطب عليٌّ الناسَ فقال : من زعم أني رجعت عن الحكومةِ فقد كذبَ ، ومن رآها ضلالاً فهو أضلُّ ، فخرجت الخوارج من المسجد ، فحكّمت ، فقيل لعليٍ : إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجّه إليهم عبدَ الله بن العباسِ ، فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباهاً قرحةً لطولِ السُّجودِ ، وأيدياً كثفنات الإبل ، وعليهم قمصٌ مرحّضةٌ ، وهم مشمرون ، فقالوا : ما جاء بك يا أبا العباسِ ؟ فقال : جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، وأعلمنا بربّه وسنّة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، قالوا : إنّا أتينا عظيماً حين حكّمنا الرجالَ في دين الله ، فإن تابَ كما تبنا ونهضَ لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباسٍ : نشدتكم الله إلا ما صدقتم أنفسكم ! أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنبٍ تساوي ربعَ درهمٍ تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وامرأته ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : فأنشدُكم اللهَ ، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنةِ بينه وبين أهل الحديبية ؟ قالوا : نعم ،

ولكن علياً محا نفسه من إمارة المسلمين ، قال ابن عباس : ليس ذلك بزيلها عنه ، وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة ، وقد أخذ عليٌ على الحكمين أن لايجورا ، وإن يجورا فعليٌ أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعي مثل دعوى عليٍ ، قال : فأيُّهما رأيتموه أولى فولُّوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباسٍ : و متى جارَ الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما ، قال : فاتبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلافٍ ، فصلّى بهم صلواتهم ابن الكوّاء ، وقال متى كانت حرْبٌ فرئيسكم شبث بن ربعيٍ الرِّياحيُّ ، فلم يزالوا على ذلك يومين ، حتى أجمعوا على البيعةِ لعبد الله بن وهبٍ الراسبيّ ، قال : ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضي إلى المدائن . قال الأخفش : كذا كان يقول المبرد « النِّهروان » بكسر النون والراء ، وإنما هو « النَّهروان » بالفتح : وانشد للطرمَّاح :

قلَّ في شطِ نهروانَ اغتماضي

• • •

قال أبو العباس : فمن طريف أخبارهم : انهم أصابوا مسلماً ونصرانيّاً ، فقتلوا المسلمَ وأوصوا بالنصراني ، فقالوا : احفظوا ذمَّة نبيكم !!

ولقيهم عبد الله بن خبَّابٍ وفي عنقه مصحفٌ ، ومعه امرأته وهي حاملٌ ، فقالوا له : إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا ان نقتلك ! قال : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجلٌ منهم على رُطبةٍ فوضعها في فيه ، فصاحوا به فلفظها تورُّعاً ، وعرض لرجلٍ منهم خنزيرٌ فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرضِ !! فقال عبد الله بن خبَّابٍ : ما علي منكم بأس ، إني لمسلم ، قالوا له : حدّثنا عن أبيك ؟ قال سمعت ابي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل » . قالوا : فما تقول في أبي بكرٍ وعمر ؟ فأثنى خيراً ، فقالوا : فما تقول في عليٍ أمير

المؤمنين قبل التّحكيم ، وفي عثمان ست سنين ؟ فأثنى خيراً ، قالوا : فما تقول في الحكومة والتّحكيم ؟ قال : أقول : إن علياً أعلم بكتاب الله منكم ، وأشدُّ توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرةً ، قالوا : إنك لستَ تتّبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائها ! ثم قربوه إلى شاطىء النهر ، فذبحوه ، فامذقرَّ دمه ، أي : جرى مستطيلاً على دقّةٍ . وساموا رجلاً نصرانياً بنخلةٍ له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنّا لنأخذها إلا بثمنٍ ! قال ما أعجب هذا ، أتقتلون مثل عبد الله بن خبّابٍ ولا تقبلون منّا جنى نخلةٍ ؟

ومن طريف أخبارهم : أن غيلان بن خرشة الضّبّيّ سمر ليلةً عند زيادٍ ومعه جماعةٌ ، فذُكر أمر الخوارج ، فأنحى عليهم غيلان ، ثم انصرف بعد ليلٍ إلى منزله ، فلقيه ابو بلال مرداس بن أديّة فقال له : ياغيلان ! قد بلغني ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق ، من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، مايؤمنك ان يلقاك رجلٌ منهم ، أحرص والله على الموت منك على الحياة ، فينفذ حضنيك برمحه ؟ فقال غيلان : لن يبلغك أني ذكرتهم بعد هذه الليلة .

ومرداسٌ تنتحله جماعة من أهل الأهواء ، لقشفه وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهور ديانته ، وبيانه . تنتحله المعتزلة ، وتزعم انه خرج منكراً لجوْر السلطان ، داعياً إلى الحقّ . وتحتجُّ له بقوله لزيادٍ حيثُ قال على المنبر : والله لآخذنَّ المحسن منكم بالمسيءِ ، والحاضر منكم بالغائب ، والصّحيح بالسّقيم ، والمطيع بالعاصي ، فقام إليه مرداسٌ فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الإنسانُ وما هكذا ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذْ يقولُ : (وإبراهيمَ الذي وفّى ، ألاّ تزِرُ وازرةٌ وزْر أخرى ، وأن ليسَ للإنسانِ إلاّ ماسعى ، وأن سعيهُ سوْف يُرى ، ثم يُجزاهُ الجزاء الأوْفى) وأنت تزعمُ أنك تأخذ المطيع بالعاصي ، ثم خرج في عقب هذا اليوم . والشّيعُ تنتحلهُ ، وتزعمُ أنه كتب إلى الحسين ابن عليٍّ صلواتُ الله عليه : أما إني لستُ أرى رأْي الخوارج ، وما أنا إلاّ على دين أبيك .

وهذا رأيٌ قد استهوى جماعةً من الأشراف . يُروى : أنَّ المنذر بن الجارُود كان يرى رأي الخوارج . وكان يزيد بن أبي مسلمٍ مولى الحجّاج بن يوسف يراه . وكان صالح بنُ عبد الرحمن صاحبُ ديوان العراق يراه . وكان عدّةٌ من الفقهاء يُنسبون إليه ، منهم عكرمةُ مولى ابن عباسٍ . وكان يقالُ ذلك في مالك بن أنسٍ ، ولعل هذا يكون باطلا . ويروي الزُّبيريُّون : أنَّ مالك بن أنسٍ المديني كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزُّبير ، فيقول : والله ما اقتتلوا إلا على الثّريد الأعفر !

فأمّا أبو سعيد الحسن البصريُّ فإنه كان يُنكرُ الحكومة ، ولا يرى رأيهم ، وكان إذا جلس فتمكّن في مجلسه ذكر عثمان فترحّم عليه ثلاثاً ، ولعن قتلته ثلاثاً ، ويقولُ : لو لم نلعنهم للعنّا ، ثم يذكر علياً فيقولُ : لم يزلْ أميرُ المؤمنين عليٌّ رحمه الله يتعرّفه النصر ، ويساعدُه الظفرُ ، حتى حكّمَ ، فلمَ تُحكّمُ والحقُّ معك ؟ ألا تمضي قُدُماً لا أبالك وأنت على الحقّ ؟!

* * *

قال أبو العباس : وهذه كلمة فيها جفاءٌ ، والعرب تستعملها عند الحثّ على أخذ الحقّ والإغراء ، وربما استعملتها الجفاة من الأعراب عند المسألة والطّلب ، فيقول القائل للأمير والخليفة : انظر في امر رعيتك لا أبالك ! وسمع سليمان بن عبد الملك رجلاً من الاعراب في سنةٍ جديبةٍ يقول :

ربَّ العباد مالنا ومالكا ... قدْ كنت تسقينا فما بدا لكا

انزلْ علينا الغيث لا أبالكا

فأخرجه سليمان أحسن مخرجٍ ، فقال أشهد أنه لا أبا له ولا ولد ولا صاحبة ، وأشهد أن الخلق جميعاً عباده . وقال رجلٌ من بني عامر بن صعصعة أبعد من هذه الكلمة لبعض قومه :

أبني عقيلٍ لا أبا لأبيكم ... أبي وأيُّ بني كلابٍ أكرم

وقال رجلٌ من طيّيءٍ ، أنشده أبو زيد الانصاري :

يااقرْط قرْط حيٍّ لا أبالكم ... ياقرْط إني عليكم خائفٌ حذر
أألْن روى مرقّشٌ واصطاف أعنزه ... من التّلاع التي قد جادها المطر
قلتم له اهج تيماً لا أبالكم ... في كفّ عبدكم عن ذاكم قصر
فإنّ بيت تيمٍ ذو سمعتَ به ... فيه تنمّتْ وأرْستْ عزها مضر

قوله « ياقرْط قرْط حيٍّ » نصبها معاً أكثر على ألسنة العرب ، وتأويلها : أنهم أرادوا « ياقرْط حيٍّ » فأقحموا « قرطاً » الثاني توكيداً ، وكذلك لجريرٍ :

ياتيم تيم عديٍّ لا أبا لكم ... لا يُلقينّكم في سَوْءةٍ عمر

ومثله لعمر بن لجإٍ :

يازيْد زيد اليعملات الذبّل ... تطاول الليل عليك فانزل

فإن لم ترد التوكيد والتكرير لم يجزْ إلا رفع الأول « يازيدُ زيدَ اليعملات » و « ياتيمُ تيمَ عديٍّ » كما تقول « يازيد أخا عمرٍو » على النعت . ومثل الأول في التوكيد « يابؤْس للحرب » أراد : يابؤس الحرب ، فأقحم اللام توكيداً ؛ لأنها توجب الإضافة . وعلى هذا جاء « لا أبا لك » و « لا أبا لزيدٍ » ولولا الإضافةُ لم تثبت الألف في الأب ؛ لأنك تقول : رأيتُ أباك . فإذا أفردت قلت : هذا أبٌ صالحٌ . وإنما كانت « لا أباك » كما قال الشاعرُ :

أبالموْت الذي لابدّ أني ... مُلاقٍ لا أباكِ تُخوّفيني

وقال آخرُ :

وقد مات شمّاخٌ ومات مزرّدٌ ... وأيُّ كريمٍ لا أباكِ مُخلّدُ

وقوله : « أألْن روى مرقّشٌ » ، « مرقّشٌ » رجلٌ . و « روى » استقى لأهله ، يقال : فلانٌ راويةُ أهله : إذا كان يستقي لأهله ، والتي على البعير والحمار مزادةٌ ، فإذا كبرتْ وعظمتْ وكانت من ثلاثة آدمةٍ فهي المثلثةُ ، وأصغر منها السّطيحةُ ، وأصغرُهن الطّبّعُ .

وقوله « واصطاف أعنزُهُ » يريدُ : افتعلت ، من الصّيف ، أي : أصابت البقل فيه .

و « التّلعةُ » : ما ارتفع من الأرض في مُستقرّ المسيل إذا تجافى السّيلُ عن مَتنه ، وجمعهُ « تلاعٌ » .

وقوله : « ذُو سمعت به » يريد : الذي ، وكذلك تفعلُ طيِءٌ ، تجعلُ « ذو » في معنى « الذي » ، قال زيدُ الخيل لبني فزارة وذكر عامر بن الطُّفيل فقال :

إني أرى في عامرٍ ذُو تَرَوْن

وقال عارقٌ الطائيُّ :

فإن لم يُغيرْ بعضُ ما قد فعلتمُ ... لأنتحينْ للعظمِ ذُو انا عارقُهْ

يريد : الذي .

ومن ظُرفاء المحدثين اليمانية منْ يعملُ هذا اعتماداً لإيثار لغة قومه ، قال الحسنْ ابن هانىء الحكمي :

حُبّ المدامة ذُو سمعت به ... لم يُبق فيّ لغيرها فضلا

وقال حبيبُ بن أوسٍ الطائي :

أنا ذُو عرفتِ فإن عرتك جهالةٌ ... فأنا المقيمُ قيامة العذّال

وقال الحسنُ بنُ وهبٍ الحارثي :

علّلاني بذكرها علّلاني ... واسقياني أوْ لا . فمن تسقيان

أنا ذُو لم يزلْ يهونُ على النّد ... مان إنْ عزّ جانبُ النّدْمان

ويكونُ العزيزَ في ساعة الرّوْ ... ع بصدّق الطعان يوم الطعان

* * *

عاد الحديثُ إلى ذكر الخوارج :

قال أبو العباس : وكان في جملة الخوارج لددٌ واحتجاجٌ ، على كثرة

خطبائهم وشعرائهم ، ونفاذ بصيرتهم ، وتوطين أنفسهم على الموت ، فمنهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربّ لترضى) .

ويروى عن النبي ﷺ أنه لما وصفهم قال : « سيماهم التحليق ، يقرؤون القرآن لايجاوز تراقيهم ، علامتهم رجلٌ مخدج اليد » . وفي حديث عبد الله بن عمرو : « رجلٌ يقال له عمرو ذو الخويصرة ، أو الخنيصرة » . ورويَ عن النبي ﷺ : « أنه نظر إلى رجلٍ ساجدٍ ، إلى أن صلى النبي عليه السلام ، فقال : ألا رجلٌ يقتله ؟ فحسرَ أبو بكرٍ عن ذراعه وانتضى السيف وصمدَ نحوه ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : أأقتل رجلًا يقول : لا إله إلا الله ؟ فقال النبيُّ عليه السلام : ألا رجلٌ يفعل ؟ ففعل عمر مثل ذلك ، فلما كان في الثالثة قصد له عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فلم يرَه ، فقال رسول الله ﷺ : لو قُتل لكان أولَ فتنةٍ وآخرَها » .

ويروى عن أبي مريمَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه ذكرَ المخدج عند النبي عليه السلام ، فقال أبو مريمَ : واللهِ إن كان معنا لفي المسجدِ وكان فقيراً ، وكان يحضر طعامَ أمير المؤمنين عليٍّ إذا وضعه للمسلمين ، ولقد كسوته برنساً لي ، فلمّا خرج القوم إلى حروراء قات : والله لأنظرن إلى عسكرهم ، فجعلت أتخللهم حتى صرت إلى ابن الكواء وشبثِ بنِ ربعيٍّ ، ورسل عليٍّ تناشدهم ، حتى وثب رجلٌ من الخوارج على رسولِ لعليٍّ ، فضرب دابّته بالسيف ، فحمل الرجل مرجه وهو يقول : إنّا لله وإنا اليه راجعون ، ثم انصرف القوم إلى الكوفة ، فجعلت أنظر إلى كثرتهم كأنما ينصرفون من عيدٍ ، فرأيت المخدج ، وكان مني قريباً ، فقلت : أكنت مع القوم ؟ فقال : أخذت سلاحي أريدهم فإذا بجماعةٍ من الصبيان قد عرضوا لي فأخذوا سلاحي وجعلوا يتلاعبون بي ! فلما كان يوم النهر قال عليٌّ أمير المؤمنين : اطلبوا المخدج ، فطلبوه فلم يجدوه حتى ساء ذلك علياً ، وحتى قال رجلٌ : لا والله يا أمير المؤمنين ماهو فيهم ،

فقال عليٌّ : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، فجاء رجلٌ فقال : قد أصبناه يا أمير المؤمنين ، فخر عليٌّ ساجداً ، وكان إذا أتاه ما يُسرُّ به من الفتوح سجد ، وقال : لو أعلم شيئاً أفضل منه لفعلته ، ثم قال : سيماه أنّ يده كالثّدي ، عليها شعراتٌ كشارب السنّور ، ايتوني بيده المخدجة ، فأتوه بها ، فنصبها .

ويروى عن أبي الجلد : أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفي وإلى نظره وتوغّله وتعمقّه ، فقال : إني لأجد لجهنم سبعة أبوابٍ ، وإن أشدها حرّاً للخوارجِ ، فاحذر أن تكون منهم .

قال : وكان نافع بن الأزرق ينتجع عبد الله بن العباس فيسأله ، فله عنه مسائل من القرآن وغيره ، قد رجع إليه في تفسيرها ، فقبله وانتحله ، ثم غلبت عليه الشقوة . ونحن ذاكرون منها صدراً إن شاء الله .

• • •

حدث أبو عبيدةَ معمر بن المثنى التّيميُّ النّسابة عن أسامة بن زيدٍ عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ، ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه (والليل وما وسق) فقال ابن عباسٍ : وما جمع ، فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباسٍ : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصاً حقائقا   مستوسقات لو يجدن سائقا ؟

هذا قول ابن عباس ، وهو الحق الذي لا يقدح فيه قادحٌ . ويعرض القول فيحتاج المبتدىء إلى أن يزداد في التفسير .

قوله : « حقائقا » إنما بنى الحقّة من الإبل ، وهي التي قد استحقّت أن يحمل عليها ، على « فعيلة » مثل « حقيقة » ولذلك جمعها على « حقائق » . ويقال : « استوسق » القوم : إذا اجتمعوا .

وروى أبو عبيدة في هذا الإسناد ، وروى ذلك غيره ، وسمعناه من غير وجهٍ : أنه سأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربُّكِ تحتكِ سرياً) فقال ابن عباسٍ : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد : فأنشده :

سَلْماً ترى الدالج منها أزورا إذا يعج في السّريّ هرهرا

« السَّلْم » : الدلو الذي له عروةٌ واحدةٌ ، وهو دلو السّقـائين ، وهو الذي ذكره طرفة فقال :

لها مرفقان أفتلان كأنّما أمرا بسلمي دالجٍ متشدد

و « الدّالجُ » الذي يمشي بالدلو بين البئر والحوضِ وأصحابُ الحديث يُنشدونَ : « ترَى الداليَ منه أزْورا » وهذا خطأٌ لاوجه له .

وروَى أبو عبيـدةَ وغيرُه : أن نافعاً سـألَ ابن عباسٍ عن قوله (عُتُلٍّ بعدَ ذلك زنيمٍ) : ما الزنيمُ ؟ قال : هو الدعيُّ الملزَق ، أمـا سمعتَ قولَ حسّانَ بن ثابتٍ :

زنيمٌ تداعاهُ الرجـالُ زيادةً كما زيدَ في عرضِ الأديمِ الأكارعُ ؟

ويزْعُم أهلُ اللغة أنَّ اشتقاق ذلك من الزنمة التي بحلْـقِ الشاة ، كما يقولونَ لمن دَخل في قومٍ ليس منهم : زعنفةٌ وللجمع « زعانِفُ » ، و « الزّعنفَة » الجناحُ من أجنحـة السّمك قال أبو الحسن الأخفشُ : كذا قال « زَعنفة » والنـاسُ كلّهم يقولون « زِعنفة » بكسر الزاي وهو الوجه .

ويُروى عن غير أبي عبيدة : أنه سأله عن قوله جلَّ اسمُه (والتفّتِ السّاقُ بالسّاقِ) ؟ قال الشّدةُ بالشدةِ ، فسأله عن الشاهد ؟ فأنشده :

أخو الحرْبِ إن عضّت به الحربُ عضّها وإن شمرت عن ساقها الحربُ شمرا

قال أبو العباس : وقرأتُ على عمارة بن عقيل بن بلال بن جريرٍ قصيدة جريرٍ ، التي يهجو فيها آل المهلّب بن أبي صُفرة ، ويمدحُ هلال بن أحوزَ المازني ، ويذكر الوقعة التي كانت لهم عليهم بالسّندِ في سلطـــانِ يزيد بن عبد الملكِ ، بسبب خروجِ يزيدَ بن المهلّب عليه :

أقولُ لها مِن ليلةٍ ليس طُولها كطولِ الليالي ليت صُبحكِ نوّرا

أخافُ على نفسِ ابن أحوزَ إنّـه جَلا حُمماً فوقَ الوجوه فأسفرا

قال الشيخُ أبو يعقوبَ : الذي رَويتُ في شعر جريرٍ :

حِذاراً على نفسِ ابن أحوز إنه   جلا كلَّ وجهٍ من معدٍّ فأسفرا

وقوله « عديٍّ » يعني عديَّ بن أرطاةَ الفزاريَّ ، قتله معاويةُ بن يزيدَ بن المهلّب بواسطٍ ، وكان عامل عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله :

جعلتَ لقبرٍ للخيار ومالكٍ   وقبرِ عديٍّ في المقابر أقبرا

ويروى « للخيارِ وواسطٍ » الخيارُ : موضعٌ بعمانَ ، فيه قبرُ الخيار بن سبرةَ المجاشعي ، وواسطٌ : بها قبرُ عدي بن أرطاةَ الفزاري .

وأطفأتَ نيرانَ المزُونِ وأهلها   وقد حاولوها فتنةً أن تسعّرا

« المزونُ » عمانُ ، بالفارسية .

فلم تبقَ منهم رايـــةٌ يعرفونها   ولم تبقَ من آل المهلب عسكرا

ألا رُبَّ سامي الطّرف من آل مازنٍ   إذا شمرت عن ساقها الحربُ شمّرا

فهذا نظيرُ ذلك . و « المزونُ » عمانُ . قال الكميتُ :

فأمّا الأزدُ أزْدُ أبي سعيدٍ   فأكرهُ أن أُسميها المزونا

وقال آخرُ يعني الحربَ :

فإنْ شمّرت لك عن ساقها   فويهاً حُذيْفَ ولا تسأم

تقولُ : « ويهاً لزيدٍ » إذا زجرتهُ عن الشيء فأغْرَيته به . و « واهاً له » : إذا تعجبْتَ منه . و « حُذيْفَ » يريدُ حذيفة ، فرخّم .

ويروى عن أبي عُبيدةَ من غير وجهٍ : أن نافعَ بن الأزرقِ سألَ ابن عباسٍ فقال : أرأيتَ نبيَّ الله سليمانَ صلى الله عليه وسلم ، مع ما خوّله اللهُ وأعطاه ، كيف عُنِي بالهُدْهد على قلّته وضؤولتِه ؟ فقال له ابن عباسٍ : إنه احتاجَ إلى الماء ، والهدهد قنّاءٌ ، الأرض له كالزجاجةِ ، يرى باطنها من ظاهرهـــا ، فسأل عنه لذلك . قال ابنُ الأزرقِ : قِفْ ياوقّافُ ! كيف يبصرُ ما تحتَ الأرضِ والفخُ يُغطّى له بمقدارِ إصبعٍ من ترابٍ فلا يُبصرهُ حتى يقع فيه ؟ فقال ابنُ عباسٍ : ويحكَ يا ابن الأزرقِ ! أما علمتَ أنه إذا جاء القدرُ عَشيَ البصَرُ ؟ !

وبما سأله عنه (الم ، ذٰلكَ الكتابُ) فقال ابنُ عباسٍ : تأويلُه : هذا القرآنُ . هكذا جاء ، ولا أحفظُ عليه شاهداً عن ابن عباسٍ ، وأنا أحسبه أنه لم يقبلْه إلا بشاهدٍ ، وتقديره عند النحويين إذا قال « ذلك الكتاب » : أنهم قد كانوا وُعدوا كتاباً ، هكذا التفسير ، كما قال جل ثناؤه : (فلما جاءهم ما عرفوا كفَروا به) يعني بذاك اليهود ، وقال : (يعرِفونه كما يعرِفونَ أبناءهم) ، فمعناه : هذا الكتاب الذي كنتم تتوقعونه . وبيت خُفافِ بن ندبة على ذلك يصحُّ معناه . وكان مِن خبره : أنه غزَا مع معاوية بن عمرٍو أخي خنساء ، مُرة وفزارةَ ، فعمَدَ ابنا حرملةَ دريدٌ وهاشمٌ المريّانِ عمْدَ معاوية ، فاستطردَ له أحدهما ، فحمَلَ عليه معاوية ، فطعنَه ، وحمل الآخر على معاوية فطعنه متمكناً ، وكان صميمَ الخيلِ ، فلما تنادَوْا قُتلَ معاوية :

قال خُفاف بن نَدبَة ، وهي أمُّه ، وكانت حبشيةً ، وأبوه عميرٌ ، وهو أحد بني سُليم بن منصورٍ : قتلني الله إنْ رمت حتى أثأرَ به ، فحمل على مالك بن حمارٍ ، وهو سيد بني شمْخ بن فزارةَ ، فطعنه فقتله ، فقال خفاف بن ندبة :

إن تك خيلي قد أُصيبَ صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
وقفت له علوى وقد خام صُحْبتي لأبني مجداً أو لأثأرَ هالكا
أقول له والرُّمح يأطر متنه : تأمل خفافاً إنني أنا ذٰلكا

يريد : أنا ذلك الذي سمعت به . هذا تأويل هذا . وقوله « يأطر متنه » أي يثني . يقال أطرْت القوسَ آطِرها أطْراً ، وهي مأطورةٌ . و « علوى » فرسه .

وبما سأله عنه قوله عز وجل : (لهم أجرٌ غير ممنونٍ) فقال ابن عباسٍ : غير مقطوعٍ ، فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرَفه أخو بني يَشكر ، حيث يقول :

وترى خلفهن مِن سرعةِ الرجْـ ـعِ منيناً كأنه أهباء

قال أبو العباس : « مَنينٌ » يعني الغبار ، وذلك أنها تقطعه قطعاً وراءها ، و « المنين » الضعيف المؤذن بانقطاعٍ ، أنشدني التوّزي عن أبي زيدٍ :

يا رِيَّها إنْ سلمتْ يميني . وسلمَ الساقي الذي يليني . ولم تخنِّي عقد المتين تريد الحبلَ الضعيفَ ، فهذا هو المعروف ، ويقال « متينٌ » و « ممنونٌ » كقتيلٍ ومقتولٍ ، وجريحٍ ومجروحٍ ، وذكر التوّزي في كتاب الأضدادِ أن « المتين» يكون القوي ، يجعله « فعيلًا » من « المنة » والمعروف هو الأول .

وقال غير ابن عباسٍ : (لهم أجرٌ غير ممنونٍ) لا يُمَن عليهم فيكَدرَ عندَهم .

★ ★ ★

ويروى من غير وجهٍ : أن ابنَ الأزرق أتى ابن عباسٍ يوماً فجعلَ يسائله حتى أملَّهُ ، فجعلَ ابن عباس يظهرُ الضَّجرَ ، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي ربيعةَ على ابن عباسٍ ، وهو يومئذ غلامٌ ، فسلَّم وجلسَ ، فقال له ابنُ عباس : ألا تُنشِدُنا شيئاً من شِعركَ ؟ فأنشده :

أمِنْ آل نُعمٍ أنت غادٍ فمبكرُ ... غداةَ غدٍ أمْ رائحٌ فمُهجِّرُ ؟
بحاجةِ نفسٍ لم تقلْ في جوابها ... فتُبلِغ عُذراً والمقالةُ تعذرُ
تهيمُ إلى نُعمٍ فلا الشملُ جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلبُ مقصرُ
ولا قربُ نُعمٍ إنْ دَنتْ لك نافعٌ ... ولا نأيُها يُسلي ولا أنتَ تصبرُ
وأخرى أتتْ من دونِ نعمٍ ومثلُها ... نهى ذا النُّهى لو يرْعوي أو يُفكِّرُ
إذا زُرتُ نعماً لم يزلْ ذو قرابةٍ ... لها كلَّما لاقيته يتنمَّرُ
عزيزٌ عليه أن أمرَّ ببابها ... مسرٌ لي الشحناء والبغضَ مظهرُ
ألِكني إليها بالسَّلامِ فإنه ... يشهَّرُ إلمامي بها وينكَّرُ
بآيةِ ما قالتْ غداةَ لقيتُها ... بمدْفعِ أكنانٍ أهذا المشهرُ ؟
قفي فانظري يا أسمَ هلْ تعرفينه ؟ ... أهذا المغيريُّ الذي كان يُذكرُ ؟
أهذا الذي أطريتِ نعتاً فلم أكنْ ... وعيشك أنساهُ إلى يوم أُقبرُ ؟!
فقالتْ : نعمْ ، لا شك غيَّر لونه ... سُرى الليل يُحيي نصَّهُ والتهجُّرُ
لئنْ كان إيَّاه لقد حال بعدَنا ... عن العهد والإنسانُ قد يتغيرُ

رأتْ رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضتْ فيضحى وأمّا بالعشيِّ فيخصرُ

حتى أتمها ، وهي ثمانون بيتاً ، فقال له ابنُ الأزرق : لله أنت يا ابن عباسٍ ! أنضربُ إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدّين ، فتعرضُ ، ويأتيك غلامٌ من قريشٍ ، فينشدك سفهاً فتسمعهُ ؟! فقال : تالله ما سمعتُ سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدكَ :

رأتْ رجلاً أمّا إذا الشمس عارضتْ فيخزى وأمّا بالعشيّ فيخسر ؟

فقال : ما هكذا قال ، إنما قال « فيضحى وامّا بالعشيّ فيخصر » قال : أوَ تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلاّ ساعتي هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ! قال : فارددْها ؟ فأنشده إياها كلها .

وروى الزبيريُّون : أن نافعاً قال له : مارأيت أروى منك قطُّ ، فقال له ابن عباسٍ : ما رأيت أروى من عُمر ، ولا أعلم من عليٍّ .

وقوله « فَيضحى » يقولُ : يظهرُ للشمس . و « يخصرُ » يقولُ : في البرْدين ، فاذا ذكر العشيّ فقد دلّ على عقيب العشيّ . قال الله تبارك وتعالى : (وأنكَ لا تظمأُ فيها ولا تضحى) « والضّحُ » الشمسُ ، وليس مِنْ « ضحيتُ » يقالُ « جاء فلانٌ بالضّحّ والرِّيح » يُرادُ به الكثرةُ . قال علقمةُ :

أغرُّ أبرزهُ للضّحّ راقبهُ مُقلدٌ قُضُبَ الرَّيحان مفغومُ

له « فغمةٌ » أي : رائحةٌ طيبةٌ ، يعني إبريقاً فيه شرابٌ . وفي الحديث : « أنّ رسول الله ﷺ لمّا توجّه إلى تبوك جاء أبو خيثمة ، وكانت له امرأتان ، وقد أعدّتْ كل واحدةٍ منها من طيّبِ ثمرِ بستانه ، ومهدتْ له في ظلٍّ ، فقال : أظلٌّ ممدودٌ ، وثمرةٌ طيبةٌ ، وماءٌ باردٌ ، وامرأةٌ حسناءُ ، ورسول الله في الضّحّ والرِّيح !؟ ما هذا بخيرٍ ، فركب ناقته ومضى في أثره . وقد قيل لرسول الله ﷺ في نفرٍ تخلفوا ، أبو خيْثمةَ أحدُهم ، فجعل لا يُذْكرُ له أحدٌ منهم إلا قال : دَعوهُ فان يُردِ اللهُ به خيراً يُلحقهُ بكم ، فقيل ذات يوم : يارسول الله ! نرى رجلاً يرفعهُ الآلُ ، فقال رسول الله ﷺ كنْ أبا خيثمةَ ، فكان هو » .

وإذا انبسطت الشمسُ فهو « الضُّحى » مقصورٌ ، فإذا امتدَّ النهارُ وبينها مقدارُ ساعةٍ أو نحو ذلك فذلك « الضّحاءُ » ممدودٌ مفتوحُ الأولِ .

★ ★ ★

وذكرت الرواة : ان الحجّاج أُتِيَ بامرأةٍ من الخوارج ، وبحضرته يزيدُ ابن ابي مسلمٍ مولاه ، وكان يَستسِرُّ برأي الخوارج ، فكلمَ الحجاجُ المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد بن ابي مسلمٍ : الأمير وَيْلك يكلمُكِ ! فقالت : بل الويل واللهِ لك يا فاسقُ الرَّدِيُّ . « والرَّدِي » عندَ الخوارج : هوَ الذي يَعلم الحقَّ من قولهم ويكتُمه .

وذكروا انَّ عبدَ الملك بن مروان أُتِيَ برجلٍ منهم فبحثهُ ، فرأى منه ما شاءَ فهماً وعلماً ، ثم بحثه ، فرأى ما شاء إرْباً ودَهْياً ، فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مُستبْصراً محقّقاً ، فزاد في الاستدعاءِ ، فقال له : لتغْنِكَ الأولى عن الثانيةِ ، وقد قلت فسمعتُ ، فاسمعْ أقلْ ، قال له : قلْ ، فجعل يبسُطُ له من قولِ الخوارج ويُزيّن له من مذهبهم بلسانٍ طلقٍ وألفاظٍ بيّنةٍ ومعانٍ قريبةٍ ، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يُوقِع في خاطري ان الجنة خلقتْ لهم ، وأنِيَ أولى بالجهادِ منهم ، ثم رجعت إلى ماثبت اللهُ عليَّ من الحجة وقرّر في قلبي من الحقّ ، فقلت له : للهِ الآخرة والدنيا ، وقد سلطني الله في الدنيا ، ومكنَ لنا فيها ، وأراك لستَ تجيب بالقولِ ، واللهِ لأقتلنّك إن لم تطِعْ ، فأنا في ذلك إذْ دخل عليَّ بابني مروان — قال ابو العباس : كان مروان أخا يزيدَ لأمِّـهِ ، أُمُّهُما عاتِكةُ بنت يزيدَ بن معاوية ، وكان ابيّاً عزيزَ النّفس ، فدُخِلَ به في هذا الوقتِ على عبد الملك — باكياً لضربِ المؤدّبِ إياه ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، فأقبلَ عليه الخارجي ، فقال له : دَعْه يبْكِ ؛ فإنه أرْحب لِشِدْقه ، وأصح لدماغه ، وأذْهب لصوْتهِ ، وأحرى ان لا تأبى عليه عينُه إذا حضرتْه طاعة ربه فاستدعى عبرتها ، فأعجبَ

ذلك من قوله عبد الملك ، فقال له متعجباً : أما يشغلك ما أنت فيه وبعرَضه عن هذا ؟ فقال : ما ينبغي ان يشْغلَ المؤْمنَ عن قول الحقّ شيءٌ ، فأمر عبد الملك بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال بعد يعتذر إليه : لولا ان تفسد بألفاظك اكثرَ رعيتي ما حبستُك ، ثم قال عبد الملك : من شككني ووهّمني حتى مالتْ بي عصمة الله فغير بعيدٍ أن يستهوي من بعدي . وكان عبد الملك من الرأي والعلم بموضعٍ .

وتزْعم الرواة : انّ رجلاً من اهل الكتاب وفد على معاوية ، وكان موصوفاً بقراءة الكتبِ ، فقال له معاوية : اتجد نعتي في شيءٍ من كتبِ الله ؟! قال : إي واللهِ ، لو كنتَ في أمةٍ لوضعت يدي عليك من بينهم ! قال : فكيف تجدني ؟ قال أجدُك اول من يحوّل الخلافة مُلكاً ، والخشنةَ ليناً ، ثم إن ربّك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ ، قال معاوية : فسرّي عني ، ثم قال : لا تقبلْ هذا مني ، ولكن من نفسك ، فاختبرْ هذا الخبر ! قال : ثم يكون ماذا ؟ قال : ثم يكون منك رجلٌ شرّابٌ للخمرِ ، سفاكٌ للدماء ، يحتجن الأموال ، ويصطنعُ الرجال ويجنّبُ الخيولَ ، ويُبيحُ حرْمة الرسولِ ! قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تكونُ فتنةٌ تتشعّبُ بأقوامٍ حتى يُفضي الأمرُ بها إلى رجلٍ أعرف نعتهُ ، يبيعُ الآخرةَ الدائمة بحظٍّ من الدنيا مخسوسٍ ، فيُجتمعُ عليه ، من آلِك وليس منك ، لايزالُ لعدوّه قاهراً ، وعلى منْ ناوأه ظاهراً ، ويكون له قرينٌ مبينٌ لعينٌ ! قال : أفتعرفُه إن رأيته ؟ قال : شدّما ، فأراه من بالشام من بني أميّةَ ، فقال : ما أراه هٰهنا ، فوجّه به إلى المدينة مع ثقاتٍ من رسُله ، فإذا عبدُ الملك يسعى مُؤتزراً في يده طائرٌ ، فقال للرسل : ها هو ذا ، ثم صاح به : إليّ أبو منْ ؟ قال : أبو الوليد ، قال : ياأبا الوليد ! إنْ بشّرتك ببشارةٍ تسرُّك ماتجعلُ لي ؟ قال : وما مقدارُها من السرورِ حتى نعلم مقدارها من الجُعلِ ؟ قال : أن تملك الأرضَ ! قال : مالي من مالٍ ، ولكن أرأيتك إنْ تكلفتُ لك جُعلاً أأنالُ ذلك قبلَ وقته ؟ قال : لا ،

قال : فإن حرَمتُك أتؤخِّرُه عن وقته ؟ قال : لا ، قال : فحسْبُك ما سمعت !! فذكروا أنّ معاوية كان يكرمُ عبدَ الملك ليجعلها يــداً عندَه يجازيه بها في مُخلّفته في وقته .

وكان عبدُ الملك من أكثر الناس علماً . وأبرَعهم أدباً ، وأحسنهم في شبيبته ديانةً ، فقتلَ عَمْرو بن سعيدٍ ، وتسمّى بالخلافة ، فسُلِّمَ عليه بها أوَّلَ تسليمةٍ ، والمُصحفُ في حجره ، فأطبقه وقال : هذا فراقُ بيني وبينِك !!

قال أبو العباس : وحدثني ابنُ عائشة عن حماد بن سلمة في إسنادٍ ذكره : أن عبد الملك كان له صديقٌ ، وكان من أهل الكتاب ، يقال له يوسف ، فأسْلم ، فقال له عبدُ الملك يوماً - وهو في عنفوان نُسكه ، وقد مضتْ جيوشُ يزيد بن معاوية مع مسلمِ بن عقبة المرّي ، من مرّة غطفان - يريدُ المدينة - : ألا ترى خيل عدوّ الله قاصدةً لحرم رسول الله ﷺ ؟ ! فقال له يوسفُ : جيشك والله إلى حَرم رسول أعظمُ من جيشه ! فنفض عبدُ الملك ثوبه ، ثم قال : معاذ اللهِ ! قال له يوسفُ : ما قلتُ شاكّاً مُرتاباً ، وإني لأجدُك بجميع أوصافك ، قال له عبدُ الملك : ثم ماذا ؟ قال : ثمّ يتداولها رهطك ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن تخرج الراياتُ السُّودُ من خُراسان .

قال : وحُدِّثتُ عن ابن جعدُبة ، قال : كنتُ عند أمير المؤمنين المنصور ، في اليوم الذي أتاه فيه خروجُ محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، قال . فغمّهُ ذلك ، حتى امتنع من الغداء في وقته ، وطال عليه فكْرهُ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ! أحدّثك حديثاً ؟ كنتُ مع مروان بن محمدٍ ، وقد قصده عبدُ الله بن عليٍّ ، قال : فإنّا لكذلك إذ نظر إلى الأعلام السُّود من بعدٍ ، فقال : ما هذه البختُ المجلّلةُ ؟ قلتُ : هذه أعلامُ القوم ، قال : فمنْ تحتها ؟ قلتُ : عبدُ الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، قال : وأيُّهمْ عبدُ الله ؟ فقلتُ : الفتى المعْروقُ الطويلُ ، الخفيفُ العارضين ، الذي رأيته في وليمة كذا يأكلُ فيجيدُ ، فسألتني عنه فنسبتهُ لك ، فقلتَ : إنّ هذا الفتى لتلقّامةٌ ،

قال : قد عرفته ، والله لوددتُ أنّ عليّ بن أبي طالبٍ مكانه ، قال : فقال لي المنصورُ : آلله لسمعت هذا من مروان بن محمدٍ ؟ قلتُ : والله لقد سمعتهُ منه ، قال : يا غلامُ ! هات الغداء .

* * *

قال أبو العباس : وكان أهل النُّخيلة جماعةً بعد أهل النّهروان ، ممن فارق عبد الله بن وهْبٍ ، وممن لجأ إلى راية أبي أيوب ، وممن كان أقام بالكوفة ، فقال : لا أُقاتلُ علياً ولا أقاتلُ معه ، فتواصوْا فيما بينهم وتعاضدوا ، وتأسّفوا على خذْلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائمٌ يقالُ له المستوردُ ، من بني سعد بن زيد مناة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمدٍ ، ثم قال : إنّ رسول الله ﷺ أتانا بالعدل ، تخفق راياته ، معلناً مقالته ، مبلّغاً عن ربّه ، ناصحاً لأمّته ، حتى قبضه الله مخيّراً مختاراً ، ثم قام الصدّيق فصدق عن نبيّه وقاتل من ارْتدّ عن دين ربّه ، وذكر أن الله عزّ وجلّ قرن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طعنٌ على الأخرى ، لابل على جميع منازل الدين ، ثم قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام بعده الفاروق ، ففرق بين الحقّ والباطل ، مسوّياً بين الناس في إعطائه ، لامؤثْراً لأقاربه ، ولا محكّماً في دين ربه ، وها أنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : (وفضل الله المجاهدينَ على القاعدين أجْراً عظيماً) فكلٌ أجاب وبايع ، فوجه إليهم عليٌّ بن أبي طالبٍ عبد الله بن العباس داعياً ، فأبوْا ، فسار إليهم ، فقال له عفيف بن قيسٍ : يا أمير المؤمنين ! لاتخرج في هذه الساعة ؛ فإنها ساعة نحْس لعدوّك عليك ! فقال له عليٌّ : توكلت على الله وحده ، وعصيت رأي كلّ متكهّنٍ ، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟! « إني توكلت على الله ربي وربكمْ ، ما منْ دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربي على صراطٍ مستقيمٍ) ، ثم سار إليهم فطحنهم جميعاً ، لم يفلت منهم إلا خمسةٌ ، منهم المستورد ، وابن جوينٍ الطائيُّ ، وفروة بن شريك الأشجعيُّ ، وهم الذين ذكرهم الحسن البصريُّ ، فقال : دعاهم إلى دين الله

فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً ، فسار إليهم أبو حسنٍ فطحنهم طحناً .

وفيهم يقول عمران بن حطان :

إني أدين بما دان الشُّراة به ... يوم النُّخيلة عند الجوسق الخرب

وقال الحِمْيريُّ يعارض هذا المذهب :

إني أدين بما دان الوصي به ... يوم النُّخيلة من قتل المحلّينا
وبالذي دان يوم النهر دنت به ... وشاركت كفه كفي بصفّينا
تلك الدّماء معاً يارب في عنقي ... ومثلها فاسقني آمين آمينا

وكان أصحاب النُّخيلة قالوا لابن عباسٍ : إذ كان عليٌّ على حقٍّ لم يشكك فيه وحكَّمَ مُضطرّاً فما بالهُ حيثُ ظفر لم يسْبِ ؟ فقال لهم ابنُ عباس : قد سمعتم الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السباء أفكنتم سابينَ أمّكم عائشة ؟! فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، وقالوا : أمسكْ عنا غرب لسانك يا ابن عباسٍ ! فإنه طلقٌ ذلقٌ ، غواصٌ على موضع الحجة . ثم خرج المستوردُ بعد ذلك بمدةٍ على المغيرة بن شعبة ، وهو والي الكوفة ، فوجّه إليه معقل بن قيسٍ الرّياحيَّ ، فدعاهُ المستوردُ إلى المبارزة ، وقال له : علام يقتلُ الناسُ بيني وبينك ؟ فقال له معقلٌ : النّصف سألت ، فأقسم عليه أصحابهُ ، فقال : ما كنت لآبى عليه ، فخرج إليه ، فاختلفا ضربتين ، فخرَّ كلُّ واحدٍ منهما ميتاً .

وكان المستوردُ كثير الصلاةِ شديد الاجتهاد ، وله آدابٌ يُوصي بها وهي محفوظةٌ عنه .

كان يقولُ : إذا أفضيتُ بسرّي إلى صديقي فأفشاه لم ألمْ ، لأني كنتُ أولى بحفظه .

وكان يقولُ : لا تفشِ إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلاّ على جهة المشاورةِ .

وكان يقولُ : كُنْ أحرَصَ على حفظ سرّ صاحبك منك على حقنِ دمك .

وكان يقول : أول ما يدلُّ عليه عائبُ الناس معرفتـــهُ بالعيوب ، ولا يعيبُ إلا معيبٌ .

وكان يقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك .

وكان يقول : بذلُ المالِ في حقّه استدعاءٌ للمزيد من الجواد .

وكان يُكثرُ أن يقولَ : لو مُلـكت الأرض بحذافيرها ثم دعيتُ إلى أن أستفيدَ بها خطيئةً مافعلتُ .

* * *

قال : وخرجت الخوارجُ ، واتّصل خروجُها ، وإنما نذكر منهم من كان ذا خبرٍ طريفٍ ، واتّصلتْ به حكمٌ من كلامٍ وأشعارٍ .

فأوّل من خرج بعد قتل عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام حوثرةُ الاسديُّ ، فإنه كان مُتنحياً بالبندنيجين ، فكتب إلى حابسٍ الطائي يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعهِ ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابه ، فرجعا إلى موضعِ أصحاب النُّخيلة ، ومعاويةُ بالكوفة حيثُ دخلها مع الحسن بن علي ابن أبي طالب صلواتُ الله عليه ، بعد أن بايعهُ الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ثم خرج الحسن يريدُ المدينة ، فوجّه إليه معاويةُ وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم ، فقال الحسن : والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يسعني ، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم ؟! فلما رجع الجوابُ إليه وجه إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفة ، ثم قال لأبيه أبي حوثرة : اكفني أمر ابنك ، فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع ، فأبى فأداره ، فصمم ، فقال له : يابني ! أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟ فقال : يا أبت ! أنا والله إلى طعنـــةٍ نافذةٍ أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوقُ مني إلى ابني ! فرجع إلى معاوية فأخبره الخبر ، فقال : يا أبا حوثرة ! عتا هذا جداً ، فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه ، واليوم تقاتلون

مع معاوية لتشدوا سلطانه !! فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبتِ! الله في غيري مندوحةٌ ، ولي في غيرك عنك مذهبٌ ، ثم حمل على القوم وهو يقول :

أُدرُ على هذي الجموع حوثرهْ فعن قليلٍ ما تنال المغفرهْ

فحمل عليه رجلٌ من طيءٍ فقتله ، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته ، فندم على قتله ، ثم انهزم القوم جميعاً .

وأنا أحسب أن قول القائل :

وأجرأ منْ رأيت بظهر غيبٍ على عيب الرجال ذوو العيوب

إنما أخذه من كلام المستورد .

قال رجلٌ للمستورد : أريدُ أن أرى رجلا عياباً ، قال : التمسه بفضلِ معايبَ فيه .

وقال العباسُ بن الأحنف يعاتب من اتهمه بإفشاء سرّه :

تعتّبت تطلب ما أستحق به الهجر منك ولا تقدر
وماذا يضرك من شهرتي إذا كان سرك لا يشهر
أمني تخاف انتشار الحديث وحظي في ستره أوفر
ولو لم تكن في بقيا عليك نظرت لنفسي كما تنظر

* * *

ويروى من حديث محمد بن كعبٍ القرظي قال : قال عمارُ بن ياسرٍ : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات العشيرة . فلما قفلنا نزلنا منزلاً ، فخرجتُ أنا وعلي بن أبي طالبٍ صلواتُ الله عليه ننظرُ إلى قومٍ يعتملون ، فنعسنا ،فنمنا ، فسفت علينا الريح التُّراب ، فما نبهنا إلا كلام رسول الله ﷺ ، فقال لعليٍ : يا أبا ترابٍ ! لما عليه من التراب ، أتعلم من أشقى الناس؟ فقال : خبرني يارسول الله ؟ فقال : أشقى الناسِ اثنان : أحمرُ ثمود الذي عقر الناقة ،

وأشقاها الذي يخضب هذه ، ووضعَ يدَه على لحيته ، مِنْ هذا ، ووضع يده على قرنه » .

ويروى عن عياض بن خليفة الخزاعي قال : تلـقاني أمير المؤمنين عليٌّ صلوات الله عليه في الغلس ، فقال لي : من أنت ؟ قلت : عياض بن خليفة الخُزاعي ، فقال : ظننتك أشقاها الذي يخضب هذه مِن هذا ، وَوضعَ يده على لحيته وعلى قرنه .

ويروى : أنه كان يقول كثيراً — قال أبو العباس : أحسبه عند الضجر بأصحابه — : ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه مِن هذا ؟

ويروى عن رجلٍ من ثقيف أنه قال : خرجَ الناس يعلِّقون دوابهم بالمداين ، وأراد عليٌّ أمير المؤمنين المسير إلى الشأم ، فوجّه معقل بن قيس الرياحي ليرجعهم إليه ، وكان ابن عمٍّ لي في آخر من خرج ، فأتيت الحسن بن عليٍّ عليه السلام ذات عشيةٍ ، فسألته أن يأخذ لي كتاب أمير المؤمنين إلى معقل بن قيسٍ في الترفيه عن عمّي ، فإنه في آخرِ منْ خرج ، فقال : تغدو علينا والكتاب مختومٌ إن شاء الله تعالى ، فبت ليلتي ، ثم أصبحت والناس يقولون : قتل أمير المؤمنين الليلة ، فأتيت الحسن ، وإذا به في دار عليٍّ عليه السلام ، فقال : لولا ما حدث لقضينا حاجتك ، ثم قال : حدثني أبي عليه السلام البارحة في هذا المسجد فقال : يابني ! إني صلّيت مارَزقَ الله ، ثم نمت نومة ، فرأيت رسول الله ﷺ ، فشكوت إليه ما أنا فيه من مخالفة أصحابي وقلة رغبتهم في الجهاد ، فقال : ادع الله أن يريحك منهم ، فدعوت الله ، قال الحسن : ثم خرج إلى الصلاة فكان ما قد علمت .

وحُدِّثتُ من غيرِ وجهٍ : أن علياً لمّا ضُرب ثم دخل منزله اعترته غشيةٌ ثم أفاق ، فدعا الحسنَ والحسين ، فقال : أُوصيكُما بتقوى اللهِ والرغبة في الآخرة ، والزُّهد في الدنيا ، ولا تأسفا على شيءٍ فاتكُما منها ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصْماً ، وللمظلوم عوْناً ، ثم دعا محمداً فقال : أما سمعتَ ما أوصيتُ به أخويك ؟ قال : بلى ، قال : فإني أوصيك به ، وعليكَ بِبرِّ أخويك

وتوقيرِهما ومعرفة فضلِها ، ولا تقطعْ أمراً دُونها ، ثم أقبل عليهما فقال : أُوصيكما به خيراً ، فإنه شقيقُكما وابنُ أبيكما ، وأنتما تعلمانِ أن أباكما كان يُحِبُّهُ ، فأحباهُ . فلما قضى عليٌّ كرم الله وجهه قالتْ أمُّ العُريانِ :

وَكُنّا قبلَ مهلكِهِ زماناً نرى نجوى رسول الله فينا
قتلتمْ خيرَ من ركبَ المطايا وأكرمهمْ ومن ركبَ السَّفينا
ألا أبلغْ مُعاويةَ بنَ حربٍ فلا قرّتْ عُيونُ الشّامتينا

ويُرْوَى : أن عبدَ الرحمن بن مُلجمٍ بات تلك الليلة عند الأشعثِ بن قيسَ بن مَعدِي كربَ ، وأنَّ حُجرَ بن عدِيٍّ سمع الأشعث يقولُ له : فضحَكَ الصُّبحُ ، فلمّا قالوا : قُتل أميرُ المؤمنين قال حُجرُ بنُ عدِيٍّ للأشعث : أنت قتلته ياأعْورُ ! ويُرْوى : أن الذي سمع ذاك أخو الأشعَثِ ، عفيفُ بن قيسٍ ، وأنه قال لأخيه : عنْ أمرِكَ كانَ هذا ياأعورُ !

* * *

وأخبارُ الخوارج كثيرةٌ طويلةٌ ، وليس كتابُنا هــذا مفرداً لهم ، ولكنّا نذكر من أمورهم مــا فيه معنى وأدبٌ ، أو شعرٌ مستطرَفٌ ، أو كلامٌ من خُطبةٍ معروفةٍ مختارةٍ .

* * *

خَرَجَ قُريبُ بن مرّةَ الأزديُّ وزَحافٌ الطائي ، وكانا مجتهدَيْنِ بالبصرةِ في أيام زيادٍ ، واختلفَ الناس في أمورهما ، أيهما كان الرئيسَ ، فاعترضَا الناسَ ، فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضُبيعةَ بن ربيعة بن نزارٍ ، فقتلاه ، وكان يقالُ له رُؤْبةُ الضُّبعيُّ ، وتنادى الناسُ ، فخرج رجلٌ من بني قطيعةَ من الأزد وفي يده السيف ، فناداه الناسُ من ظُهور البُيُوتِ : الحروريّةَ الحرُوريّةَ ! انجُ بنفسك ، فَنَادَوْه : لسنا حَرُوريّةً ، نحنُ الشُّرَطُ ، فوقف فقتلوهُ ، وبلغَ أبا بلالٍ خبرُهما ، فقال : قريبٌ لا قرَّبه الله من الخير ، وزحافٌ لاعفا الله

عنه ، ركباها عشواء مظلمة ، يريد اعتراضها الناس ، ثم جعلا لايمرّان بقبيلة إلا قتلا من وجدا ، حتى مرّا ببني عليٍّ بن سُود من الأزد ، وكانوا رُماة ، وكان فيهم مائة يجيدون الرَّمي ، فرموهم رمياً شديداً ، فصاحوا : يابني عليٍّ ! البُقيا ، لا رماءَ بيننا ، فقال رجلٌ من بني عليٍّ :

لا شيءَ للقوم سوى السّهام مشحوذة في غلَس الظّلام

فعرّدَ عنهم الخوارج ، وخافوا الطلبَ ، فاشتقّوا مقبرة بني يشكُر ، حتى نفذوا إلى مزينةَ ، ينتظرون من يلحقُ بهم من مضر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجتْ إليهم بنو طاحية بن سُود وقبائل مزينة وغيرُها ، فاستقتل الخوارج فقتلوا عن آخرهمْ ، ثم غدا الناس إلى زياد فقال : ألا ينهى كل قوم سفهاءهمْ ؟ يامعشر الأزْد ! لولا أنكم أطفأتم هذه النارَ لقلت إنكم أرّثتموها ، فكانت القبائل إذا أحسّتْ بخارجيّة فيهم شدّتهمْ وثاقاً وأتتْ بهم زياداً ، فكان هذا أحدَ ما يذكر من صحة تدبيره .

وله أخرى في الخوارج : أخرجوا معهم امرأةً ، فظفرَ بها فقتلها ، ثم عرّاها . فلم تخرج النساءُ بعد على زياد ، وكن إذا دعين إلى الخروج قلنَ : لولا التعرية لسارعنا .

ولما قتل مصعبُ بن الزبير بنتَ النُّعمان بن بشير الأنصارية امرأةَ المختار — وليس هذا من أخبار الخوارج — أنكره الخوارج غاية الإنكار ، ورأوْه قد أتى بقتل النساء أمراً عظيماً ، لأنه أتى مانهى عنه رسول الله ﷺ في سائر نساء المشركين . وللخواصّ منهنّ أخبارٌ ، فقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

إنّ منْ أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عُطبول
قُتلتْ باطلًا على غير ذنب إن لله درّها منْ قتيل
كُتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

★ ★ ★

قال : وكانت الخوارج أيام ابن عامرٍ أخرجوا معهم امرأتين ، يقال لإحداهما كحيلة ، والأخرى قطام ، فجعل أصحاب ابن عامرٍ يعيّرونهم ويصيحون بهم : ياأصحابَ كحيلة وقطام ! يعرّضونَ لهم بالفجور ، فتناديهم الخوارج بالدّفع والرّدع ، ويقول قائلهم : لا تقفُ ماليس لك به علمٌ .

ويروى عن ابن عباسٍ في هذه الآية : (والّذين لا يشهدونَ الزورَ وإذا مرُّوا باللغو مروا كراماً) قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعودٍ : الزور : الغناء فقيل لا بن عباسٍ : أو ما هذا في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزورِ : (ولا تقف ما ليس لك به علمٌ ، إنّ السّمعْ والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) .

* * *

عاد الحديث إلى أمر الخوارج .

وكان من المجتهداتِ من الخوارج ، ولو قُلتَ : من المجتهدين ـ وأنت تعني امرأةً ـ كان أفصحَ ، لأنك تريدُ رجالاً ونساءً هي إحداهم ، كما قال الله عزَّ وجلّ : (وصدّقتْ بكلماتِ ربّها وكتبهِ وكانتْ منْ القانتينَ) وقال جلّ ثناؤُه : (إلا عجوزاً في الغابرين) . منهم البَلجاءُ ، وهي امرأةٌ من بني حرامِ بن يربوعٍ بن حنظلةَ بن مالك بن زيد مناة بن تميمٍ ، من رهط سجاح ، التي كانت تنبأتْ ، وسنذكرُ خبرها في موضعه إن شاء الله . وكان مرْداسُ ابن حُديرٍ أبو بلال ، وهو أحدُ بني ربيعة بن حنظلة تُعظّمهُ الخوارج ، وكان مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، فلقيه غيْلانُ بن خرشةَ الضبّيُّ ، فقال : يا أبا بلالٍ ! إني سمعتُ الأميرَ البارحة عُبيدَ الله بن زيادٍ يذكر البلجاءَ ، وأحْسبها ستؤخذُ ، فمضى إليها أبو بلالٍ ، فقال لها : إن الله قد وسّع على المؤمنين في التّقيّة . فاسْتتري ؛ فإن هذا المُسْرفَ على نفسه الجبار العنيدَ قد ذَكركِ ، قالت : إنْ يأخذْني فهو أشقى بي ، فأمّا أنا فما أُحبُّ أنْ يُعنَّت إنسانٌ

بسببي ، فوجّه إليها عبيدُ الله بن زيادٍ فأتي بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السُّوقِ ، فمرَّ أبو بلالٍ والناسُ مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاءُ ، فعرّج إليها فنظرَ ، ثمّ عضّ على لحيته ، وقال لنفسه : لهذه أطيبُ نفساً عن بقية الدنيا منكَ يامرداسُ .

ثم إنّ عبيد الله تتبّع الخوارج فحبسهم ، وحبس مرداساً ، فرأى صاحبُ السجن شدّة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال له : إني أرى لك مذهباً حسناً ، وإني لأحب أن أوليك معروفاً ، أفرأيت إنْ تركتُكَ تنصرف ليلاً إلى بيتك ، أتدّلج إليّ ؟ قال : نعم . فكان يفعل ذلك به ، ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم ، فكلم في بعض الخوارج فلجّ وأبى ، وقال : أقمع النفاق قبل أن ينجم ، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع ، فلما كان ذات يوم قتلَ رجلٌ من الخوارج رجلاً من الشرط ، فقال ابن زيادٍ : ما أدري ما أصنع بهؤلاء ، كلّما أمرتُ رجلاً بقتل رجلٍ منهم فتكوا بقاتله ؟! لأقتلن منْ في حبسي منهم ، فأخرج السجّان مرْداساً إلى منزله كما كان يفعل ، وأتى مرداساً الخبر ، فلما كان السحر تهيأ للرجوع ، فقال له أهله : اتّقِ الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت ، فقال : إني ما كنت لألقى الله غادراً ! فرجع إلى السجّان ، فقال : إني علمت ما عزم عليه صاحبك ، فقال : أعلمتَ ورجعتَ ؟ !

ويروى : أن مرداساً مرّ بأعرابيٍّ يهنأ بعيراً له ، فهرج البعير ، فسقط مرداسٌ مغشياً عليه ، فظن الأعرابي أنه قد صرعَ ، فقرأ في أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابي : قرأت في أذنك ، فقال له مرداسٌ : ليس بي ماخفته علي ، ولكني رأيت بعيرك هرجَ من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابني مارأيت ، فقال : لاجرمَ والله لا فارقتك أبداً .

وكان مرداسٌ قد شهد صفينَ مع علي بن أبي طالبٍ صلوات الله عليه ، وأنكر التّحكيم ، وشهد النّهْر ، ونجا فيمن نجا ، فلمّا خرج من حبس ابن زيادٍ ورأى جد ابن زيادٍ في طلب الشراة ، عزمَ على الخروج ، فقال لأصحابه :

إنه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا أحكامهم ، مجانبين للعدل مفارقين للفصل ، والله إن الصبر على هذا لعظيمٌ ، وإن تجْريد السيف وإخافة السبيل لعظيمٌ ، ولكنا ننتبذ عنهم ، ولا نجرِّد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا ، فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً ، منهم حريث بن حجلٍ ، وكهمَس بن طلقٍ الصَّريمي ، فأرادوا أن يولوا أمرهم حريثاً ، فأبى فولوا أمرهم مرداساً ، فلمّا مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباحٍ الأنصاري ، وكان له صديقاً ، فقال له : يأخي أين تريد ؟ قال أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكامِ هؤلاء الجورَة ، فقال له : أعلم بكم أحدٌ ؟ قال : لا ، قال : فارجع ، قال : أو تخاف علي مكروهاً ؟ قال : نعم ، وأن يؤتى بك ، قل : فلا تخف ، فإني لا أجرِّد سيفاً ، ولا أُخيف أحداً ، ولا أقاتل إلا من قاتلني ، ثم مضى حتى نزل آسك ، وهو ما بين رامهرْمزَ وأرَّجان ، فمر به مالٌ يحمل لابن زيادٍ ، وقد قارب أصحابه الأربعين ، فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، ورد الباقي على الرسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنما قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه : فعلام ندع الباقي ؟ فقال : إنهم يقسمون هذا الفيء كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم .

★ ★ ★

ولأبي بلالٍ أشعارٌ في الخروج اخترت منها قوله :

أبعْد ابن وهبٍ ذي النزاهة والتقى ... ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أُحب بقاءً أو أُرجّى سلامةً ... وقد قتلوا زيد بن حصنٍ ومالكا
فيا ربِّ سلمْ نيتي وبصيرتي ... وهبْ لي التقى حتى أُلاقي أولئكا

قوله : « وقد قتلوا » ولم يذكر أحداً ، فإنما فعل ذلك لعلم الناس أنه يعْني مخالفيه ، وإنما يحتاج الضميرُ إلى ذكرٍ قبله ليعرف ، فلو قال رجلٌ : ضربته ، لم يجز ، لأنه لم يذكر أحداً قبل ذكره الهاء ، ولو رأيت قوماً يلتمسون

الهلال فقال قومٌ : هـذا هو ، لم يحتج إلى تقدمـــة الذكر ؛ لأن المطلوب معلومٌ ، وعلى هذا قال علقمة بن عبدة في افتتاح قصيدته :

هل ما علمْت ما استودعت مكتوم   أم حبلهـا إذ نأتك اليوم مصروم

لأنه قد علم أنه يريد حبيبةً له :

وقوله : « حتى ألاقي » ولم يحرّك الياء فقد مضى شرحه مستقصىً .

★ ★ ★

ويروى : أن رجلاً من أصحاب ابن زيادٍ قال : خرجنـا في جيشٍ نريـد خراسان ، فمررنا بآسك ، فإذا نحن بهم ستةٌ وثلاثين رجلاً ، فصـاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ وكنت أنا وأخي قد دخلنا زرْباً ، فوقف أخي ببابه فقال : السلام عليكم ، فقـال مرداسٌ : وعليكم السلام ، فقال لأخي : أجئتم لقتالنا ؟ فقال له : لا ، إنما نريد خراسان ، قال : فأبلغوا من لقيكمْ أنا لم نخرجْ لنفسـد في الأرض ، ولا لنروّع أحداً ، ولكن هرباً من الظلم ، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنـا ، ولا نأخـذ على الفيء إلا أعطياتنا ، ثم قال : أندب إلينا أحدٌ ؟ قلنـا : نعم ، أسلم بن زرعـة الكلابي ، قـال : فمتى ترونه يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلالٍ : حسبنـا الله ونعم الوكيل .

وجهّزَ عبيدُ الله أسلم بن زرعة في أسرع وقتٍ ، ووجّهه إليهم في ألفين ، وقد تتامّ أصحاب مرداسٍ أربعين رجلاً ، فلما صار إليهم أسلمُ صاح به أبو بلالٍ : اتقِ الله يا أسلم ؛ فإنا لانريدُ قتالاً ، ولا نحتجن فيأً ، فما الذي تريدُ ؟ قال أريد أن أردكمْ إلى ابن زيادٍ ، قال مرداسٌ : إذاً يقتُلنـا ، قال : وإنْ قتلكمْ ! قال : تشركهُ في دمائنا ؟ قال : إني أدين الله بأنه محقٌ وأنكم مبطلون ، فصاح به حريث بن حجلٍ : أهو محقٌ وهو يطيع الفجرة ، وهو أحدهم ، ويقتل بالظنّة ، ويخصُّ بالفيء ، ويجور في الحكم ؟! أما علمت أنـه قتـل بابن سعاد أربعةً برآء ، وأنا أحد قتلته ، ولقد وضعت في بطنه دراهم كانت معـــه ؟! ثم

حملوا عليه حملة رجلٍ واحدٍ ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتالٍ ! وكان معبد — أحد الخوارج — قد كاد يأخذه. فلما ورد على ابن زيادٍ غضب عليه غضباً شديداً ، وقال : ويلكَ ! أتمضي في ألفين فتنهزم لحملة أربعين ؟! وكان أسلم يقول : لأنْ يذمّني ابن زيادٍ حيّاً أحبُّ إلي من أن يمدحني ميتاً !! وكان إذا خرج إلى السوق أو مر بصبيان صاحوا به : أبو بلالٍ وراءك !! وربما صاحوا به : يا معبد خذه !! حتى شكا ذلك إلى ابن زيادٍ ، فأمر ابن زيادٍ الشُّرط أن يكفُّوا الناس عنه ، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتكٍ ، من بني تيم اللاتِ بن ثعلبة ، في كلمة له :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجُرْدِ العتاقِ مسوّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقيّة يومهم حتى أتاهم ... سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لمّا أتاهمْ ... بأن القوم ولوا هاربينا
أألفا مؤمنٍ فيما زعمتمْ ... ويهزمهمْ بآسكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
همُ الفئة القليلة غير شكٍّ ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

ثم ندبَ لهم عبيد الله بن زيادٍ الناس ، فاختار عبّادَ بن أخضر ، وليس بابن أخضر ، هو عباد بنُ علقمة المازنيُّ ، وكان أخضر زوج أمّه ، فغلب عليه ، فوجّهه في أربعة آلافٍ ، فنهد لهم ، ويزعم أهل العلم أن القوم قد كانوا تنحّوا عن درا بجرد من أرض فارس ، فصار إليهم عبادٌ ، وكان التقاؤهم في يوم جمعةٍ ، فناداه أبو بلالٍ : اخرجْ إلي يا عباد ، فإني أريد أن أحاورك ! فخرج إليه ، فقال : ما الذي تبغي ؟ قال : أن آخذ بأقفائكم فأردكمْ إلى الأمير عبيد الله بن زيادٍ ! قال : أو غير ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : أن ترجع ، فإنا لا نخيف سبيلًا ، ولا نذعر مسلماً ، ولا نحارب إلا منْ حاربنا ، ولا نجبي إلا ما حمينا ، فقال له عبادٌ : الأمر ما قلت لك ، فقال له حريث بن حجل : أتحاول أن تردّ فئةً من المسلمين إلى جبارٍ عنيدٍ ؟ قال لهم : أنتم أوْلى بالضّلال منه ، وما من ذاك بدٌّ .

وقدم القعقاع بن عطية الباهليُّ من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمعين قال : ما هذا ؟ قالوا الشُّراة ، فحمل عليهم ، ونشبت الحرب ، فأخذ القعقاع أسيراً ، فأتى به أبو بلالٍ ، فقال : ما أنت ؟ قال . لست من أعدائك ، وإنما قدمت للحج فجهلت وغررت ! فأطلقه ، فرجع إلى عبّادٍ فأصلح من شأنه ، ثم حملَ عليهم ثانيةً ، وهو يقول :

أقاتلهمْ وليس علي بعثٌ نشاطاً ليس هذا بالنشاط
أكرُّ على الحروريين مهري لأحملهم على وضح الصّراط

فحمل عليه حريث بن حجلٍ السدوسيُّ وكهمس بن طلقٍ الصريمي ، فأسراه فقتلاهُ ولم يأتيا به أبا بلالٍ ، فلم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت الصلاة ، صلاة يوم الجمعةِ ، فناداهم أبو بلالٍ : ياقوم ! هذا وقت الصلاة ، فوادعونا حتى نصلي وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا إلى الصلاة ، فأسرع عبّادٌ ومن معه والحرورية مبطؤون ، فهم من بين راكعٍ وقائمٍ وساجد في الصلاةِ وقاعدٍ ، حتى مال عليهم عبادٌ ومن معه فقتلوهم جميعاً ، وأتى برأس أبي بلالٍ .

وترْوي الشُّراة : أن مرداساً أبا بلالٍ لما عقد على أصحابه وعزم على الخروج رفع يديه وقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية ، قال : فرجف البيت . وقال آخرون : فارتفع السقف .

فروى أهل العلم : أن رجلًا من الخوارجِ ذكر ذلك لأبي العالية الرّياحيْ يعجّبه من الآية ، ويرغبه في مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الخسف ينزل بهم ثم أدركتهم نظرة الله .

فلما فرغ من أولئك الجماعة اقبل بهم فصلبت رؤوسهم ، وفيهم داؤود بن شبث ، وكان ناسكاً ، وفيهم حبيبة النصريُّ من قيسٍ وكان مجتهداً .

فيروى عن عمران بن حطان : أنه قال : قال لي حبيبة : لما عزمتُ على

الخروج فكرت في بناتي ، فقلت ذات ليلةٍ لأمسكن عن تفقّدهن حتى انظر ، فلما كان في جوف الليل استسقت بنيةٌ لي ، فقالت : يا أبة اسقني فلم أجبها ، فأعادت ، فقامت أخيةٌ لها أسنُّ منها فسقتها ، فعلمتُ أن الله عز وجلّ غيرُ مضيّعهن ، فأتممت عزمي .

وكان في القوم كهمسٌ ، وكان من أبرّ الناس بأمّه ، فقال لها يا أمّة ! لولا مكانك لخرجت ، فقالت يابُنيّ ! قد وهبتك لله ، ففي ذلك يقولُ عيسى ابنُ فاتكٍ الحبطيُّ :

ألا في الله لا في النّاس سالت بداوُودٍ وإخوته الجذُوع
مضوْا قتــلًا وتمزيقاً وصلباً تحومُ عليهمُ طيرٌ وقوع
إذا ما الليلُ أظلم كابَدُوه فيسفر عنهمُ وهم ركوع
أطار الخوفُ نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال عمرانُ بن حطان :

ياعين بكّي لمرداسٍ ومصرعه يارِبّ مرداسٍ اجعلني كمرداسِ
تركتني هائماً أبكي لمرزئتي في منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرْداس بالناس
إما شربت بكأسٍ دار أوّلها على القرون فذاقوا جرعة الكاسِ
فكلُّ من لم يذقها شاربٌ عجلًا منها بأنفاس وردٍ بعد أنفاسِ

* * *

قال أبو العباس : ثم إن عبّاد بن أخضر المازني لبث دهراً في المصرِ ، محموداً موصوفاً بما كان منه ، فلم يزل على ذلك حتى ائتمرَ به جماعةٌ من الخوارج أن يفتكوا به ، فذمرَ بعضُهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له في يوم جمعةٍ ، وقد أقبل على بغلةٍ له ، وابنه رديفه ، فقام إليه رجلٌ منهم ، فقال : أسألك عن مسئلةٍ ؟ قال : قل ، قال : أرأيت رجلا قتل رجلًا بغيرِ حقٍّ ، وللقاتل

جاهٌ وقدرٌ وناحيةٌ من السلطان ، أولِيٌّ ذلك المقتول أن يفتكَ به إن قدَر عليه ؟ قال : بل يرفعه إلى السلطانِ ، قال : إن السلطان لا يعْدِي عليه لمكانه منه وعظيم جاههِ عنده ، قال : أخافُ عليه إنْ فتك به فتكْ به السلطانُ ، قال : دعْ ما تخافه من ناحية السلطان ، أتلحقهُ تبعة فيما بينه وبين الله ؟ قال : لا ، قال : فحكّم هو واصحابه ، وخبطوه بأسيافهم ، ورمى عبادٌ ابنه فنجا ، وتنادى الناسُ : قُتل عبادٌ ، فاجتمع الناسُ فأخذوا أفواه الطرقِ ، وكان مقتل عبّادٍ في سكةِ بني مازن عند مسجد بني كليْبٍ ، فجاء معبدُ بن أخضر أخو عبّادٍ ، وهو معبد بن علقمة ، وأخضرُ زوج أمّها ، في جماعة من بني مازنٍ ، فصاحوا بالناسِ : دعونا وثأرَنا ، فأحجم الناس وتقدّم المازنيُّون ، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً ، لم يفلتْ منهم أحدٌ إلا عبيدة بن هلالٍ ، فإنه خرق خصّاً ونفذ منه ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدْرك الأوتارَ غير ذميمةٍ ... إذا ذمَّ طلابُ الترات الأخاضر
هم جرّدوا الأسياف يوم ابن أخضرٍ ... فنالوا التي ما فوقها نال ثائر
أقادوا به أُسداً لها في اقتحامها ... إذا برزت نحو الحروب بصائر

ثم ذكر بني كليبٍ ؛ لأنه قتل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ، فقال في كلمته هذه :

كفعل كليبٍ إذ أخلتْ بجارها ... ونصر اللئيم معتمٌ وهو حاضرُ
وما لكليبٍ حين تُذكر أولٌ ... وما لكليب حين تُذكرُ آخر

وقال معبد بن أخضر :

سأحمي دماء الأخضريّينَ إنه ... أبى النّاس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

وكان مقتلُ عبّادٍ وعبيدُ الله بن زيادٍ بالكوفة ، وخليفته على البصرة عبيد الله بن أبي بكرة ، فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحداً يعرف بهذا الرأي إلا حبسه وجدّ في طلبه ، ممن تغيّب منهم ، فجعل عبيد الله بن أبي بكرة يتتبّعهمْ فيأخذهم ، فإذا شفع إليه في أحد منهم كفله إلى أن يقدم ابن زيادٍ ، حتى أتي

بعروة بن أدية فأطلقه ، وقال : أنا كفيلك ، فلما قدم عبيد الله بن زيادٍ أخذ منْ في السجن منهم فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بمن كفلوا به منهم ، فكلُّ منْ جاءه بصاحبه أطلقه وقتل الخارجي ، ومن لم يأت بمنْ كفل به منهم قتله ، ثم قال لعبيدِ الله بن أبي بكرة : هات عروة بن أديَّة ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذاً والله أقتُلك فإنك كفيله ! فلم يزلْ يطلبهُ حتى دُلَّ عليه في سربِ العلاء بن سويَّة المنقري ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زيادٍ ، فقرأ عليه الكاتبُ : إنا أصبناهُ في شرب ، فتهانف به عبيدُ الله بن زيادٍ ، وكان كثيرَ المحاورة ، عاشقاً للكلام الجيِّد ، مستحسناً للصواب منه ، لايزال يبحثُ عن عذره ، فإذا سمع الكلمة الجيِّدة عرَّج عليها .

ويروى : أنه قال في عقب مقتل الحسين بن عليٍّ عليه السلام لزينب بنت عليٍّ رحمهما الله ، وكانت أسنَّ منْ حمل إليه منهنَّ ، وقد كلَّمته فأفصحتْ وأبلغتْ ، وأخذتْ من الحجة حاجتها ، فقال لها : إنْ تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً ، فقالت : ما للنساء والشعر ؟! وكان مع هذا ألكن يرتضخُ لغةً فارسية ، وقال لرجلٍ مرَّةً ، واتَّهمه برأي الخوارج : أهروريٌّ منذُ اليوم ؟!

رجع الحديثُ :

فقال للكاتب : صحَّفت والله ولؤمت ، إنما هو « في سرب العلاء بن سويَّة » ولوددتُ أنه كان ممن يشرب النبيذ ، فلما أُقيم عروة بن أُديَّة بين يديه حاوره ، وقد اختلف الناسُ في خبره ، وأصحُّه عندنا : أنه قال له : لقد جهزتَ أخاك عليَّ ، فقال : والله لقد كنت به ضنيناً ، وكان لي عزّاً ، ولقد أردتُ له ما أُريده لنفسي ، فعزم عزماً فمضى عليه ، وما أُحبُّ لنفسي إلا المقام وترك الخروج ، قال له : أفأنت على رأيه ؟ قال : كلنا نعبد رباً واحداً ! قال : أما لأمثِّلن بك ! قال : اخترْ لنفسك من القصاص ما شئت ؟ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ، ثم قال له : كيف ترى ؟ قال : أفسدت علي دنياي وأفسدتُ عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره ، ثم دعا مولاه فسأله عنه ، فأجابه جواباً قد مضى ذكره .

قوله « فتهانف » حقيقته : تضاحك به ضحك هزءٍ ، وقال ابنُ أبي ربيعة المخزوميُّ :

ولقد قالتْ لجاراتٍ لها ... وتعرتْ ذات يومٍ تبترِدْ :
أكما ينعتُني تبصرْنني ... عمْركنّ الله أم لا يقتصدْ ؟
فتهانفن وقد قلن لها : ... حسنٌ في كلِّ عينٍ منْ تودُّ
حسدٌ حُمّلنهُ من أجلها ... وقديماً كان في الناس الحسدْ

• • •

وكان عبيدُ الله لا يلبّثُ الخوارج ، يحبسهم تارةً ويقتلهم تارةً ، وأكثرُ ذلك يقتلهم ، ولا يتغافلُ عن أحدٍ منهم . وسببُ ذلك أنه كان أطلقهم من حبس زيادٍ لمّا ولي بعده ، فخرجوا عليه .

فأما زيادٌ فكان يقتل المعلن ويستصلحُ المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمةُ ، ووجّه يوماً جُبينة بن كيشٍ الأعرجي إلى رجلٍ من بني سعدٍ يرأى رأي الخوارج ، فجاءه جُبينة فأخـذه ، فقال : إني أُريد أن أحدث وضوءً للصلاة ، فدعني أدخل إلى منزلي ، قال : ومنْ لي بخروجك ؟ قال : اللهُ عز وجل ، فتركه ، فدخل فأحدث وضوءً ، ثم خرج فأتى به جبينةُ زياداً ، فلما مثل بين يديه ذكر الله زيادٌ ، ثم صلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخيرٍ ، ثم قال : قعدتَ عني فأنكرتُ ذلك ، فذكر الرجلُ ربّه فحمدهُ ووحّدهُ وأثنى عليه ، ثم ذكر النبي عليه السلام ، ثم ذكر أبا بكرٍ وعمر بخيرٍ ، ولم يذكر عثمان ، ثم أقبل على زيادٍ فقال : إنك قد قلت قولاً فصدّقهُ بفعلك ، وكان من قولك : ومن قعد عنّا لم نهجه ، فقعدتُ ، فأمر له بصلةٍ وكسوةٍ وحملانٍ ، فخرج الرجلُ من عند زيادٍ وتلقّاه الناسُ يسألونه ، فقال : ما كلكم أستطيعُ أن أخبره ، ولكني دخلتُ على رجلٍ لايملك ضراً ولا نفعاً لنفسه ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، فرزق اللهُ منه ماترون .

وكان زيادٌ يبعثُ إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسبُ الذي يمنعكم من إتياني إلا الرُّجلة ، فيقولون : أجلْ ، فيحملهم ، ويقول اغشوْني الآن واسمروا عندي ،

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فقال : قاتل اللهُ زياداً ، جمع لهم كما تجمعُ الذرّةُ ، وحاطهم كما تحوط الأمُّ البرّة ، وأصلح العراق ، بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة ألف ألفٍ وثمانية عشر ألف ألفٍ .

قال أبو العباس : وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير ، من أهل البأس والنجدة ، أنه يرى رأي الخوارج ، فدعاه فولاه جندَيْ سابور وما يليها ، ورزقه أربعة آلاف درهمٍ في كل شهرٍ ، وجعل عمالتهُ في كل سنةٍ مائة ألفٍ ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيتُ شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلُّب بين أظهر الجماعة !! فلم يزل والياً حتى أنكر منه زيادٌ شيئاً ، فتنمَّر لزيادٍ فحبسه ، فلم يخرج من حبسه حتى مات .

* * *

وقال الرُّهين ، وكان رجلاً من مرادٍ ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكان في الدّهاء والمعرفة والشعر والفقه ، بقول الخوارج ، بمنزلة عمران بن حِطان ، وكان عمران بن حطان في وقته شاعر قعد الصفريّة ورئيسهم ومفتيهم .

وللرهين المرادي ولعمران بن حطان مسائل كثيرةٌ من أبواب العلم في القرآن وفي الآثار ، وفي السِّير والسنن ، وفي الغريب وفي الشعر ، نذكر طريفها إن شاء الله . قال المرادي :

يانفس قد طال في الدنيا مُراوغتي ... لا تأمنن لصرْف الدهر تنغيصا
إني لبائع ما يفنى لباقية ... إن لم يعقني رجاء العيش تربيصا
وأسأل الله بيع النفس محتسباً ... حتى ألاقي في الفردوس حرْقوصا

قال الأخفش : حرقوصٌ : ذو الثدية .

وابن المنيح ومرْداساً وإخوته ... إذ فارقوا زهرة الدنيا مخاميصا

قال أبو العباس : وهذه كلمة له ، وله أشعارٌ في مذاهبهم .

وكان زيادٌ ولىّ شيبان بن عبد الله الأشعري صاحب مقبرة بني شيبان باب عثمان وما يليه ، فجدّ في طلب الخوارج وأخافهم ، وكانوا قد كثروا ، فلم يزلْ كذلك حتى أتاه ليلةً وهو متكىءٌ بباب داره رجلان من الخوارج ، فضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وخرج بنون له للاغاثة فقتُلوا ، ثم قتلهما الناس فأتي زيادٌ بعد ذلك برجلٍ من الخوارج ، فقال : اقتلوه متكئاً كما قتل شيبان متكئاً ، فصاح الخارجيُّ : يا عدلاه !! يهزأ به !

فأمّا قول جريرٍ :

ومنّا فتى الفتيان والبأس معقلٌ ... ومنّا الذي لاقى بدجلة معقلا

ـ : فإنه أراد معقل بن قيسٍ الرياحي ، ورياحٌ ابن يربوعٍ ، وجريرٌ من بني كليب بن يربوعٍ .

وقوله « ومنّا الذي لاقى بدجلة معقلا » يريدُ المستورد التيمي ، وهو من بني تيم بن عبد مناة بن أدٍّ ، وتميمٌ ابن مرٍّ بن أدٍّ .

وأمّا قول ابن الرقيات :

والذي نغّص ابن دومة ما تو ... حي الشياطين والسيوف ظماء

فأباح العراق يضربهم بالسـ ... ـيف صلتاً وفي الضّراب غلاء

ـ : فإنما يريدُ بابن دومة المختار بن أبي عبيدٍ الثّقفي ، والذي نغّصه مصعب بن الزبير ، وكان المختارُ لا يوقفُ له على مذهبٍ ، كان خارجياً ، ثم صار زُبيرياً ، ثم صار رافضياً في ظاهره !!

وقوله « ما توحي الشّياطينُ » فإن المختار كان يدعي أنه يلهمُ ضرباً من السّجاعة لأمورٍ تكونُ ، ثم يحتالُ فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عزّ وجلّ .

فمن ذلك قوله ذات يومٍ : لتنزلنّ من السماء نارٌ دهماءُ ، فلتحرقنّ دارَ أسماءَ ، فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أقد سجعَ بي أبو إسحق ؟ هو الله محرقٌ داري ! فتركه والدار وهربَ من الكوفة .

وقال في بعض سجعه : أما والذي شرع الأديان ، وجنّب الأوثان ، وكرّه العصيان ، لأقتلن أزْدعمان ، وجُلَّ قيس عيلان ، وتميماً أولياء الشيطان ، وحاشا النّجيب ظبيان ! فكان ظبيانُ النجيبُ يقول : لم أزلْ في عُمْر المختار أتقلّبُ آمناً .

• • •

ويروى : أن المختار بن أبي عبيد حيث كان والياً لابن الزبير على الكوفة اتهمه ابن الزبير ، فولى رجلاً من قريش الكوفة ، فلما أطلَّ قال لجماعةٍ من أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردُّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : أين تُريد ؟ والله لئن دخلت الكوفة ليقتلنكَ المختارُ ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير : إن صاحبك جاءنا فلما قاربنا رجع ، فما أدري ما الذي ردّه ! فغضب ابن الزبير على القرشيِّ وعجّزه ورده إلى الكوفة ، فلما شارفها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور فرُدُّوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتلك ، فرجع ، وكتب المختارُ إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشيَّ ، فلما كان في الثالثة فطن ابن الزبير ، وعلم بذلك المختار ، وكان ابن الزبير قد حبس محمد بن الحنفية مع خمسة عشر رجلاً من بني هاشمٍ ، فقال : لتبايعنَّ أو لأحرقنّكم ، فأبوا بيعته وكان السجنُ الذي حبسهم فيه يدعى سجن عارم ، ففي ذلك يقول كثير :

تخبّرُ من لاقيتَ أنك عائذٌ بل العائذ المظلوم في سجن عارم
ومن يلق هذا الشيخ بالخيف من منىً من الناس يعلمْ أنه غير ظالم
سميُّ النبيِّ المصطفى وابن عمه وفكاك أغلالٍ وقاضي مغارم

وكان عبد الله بن الزبير يدعى العائذ ، لأنه عاذ بالبيت ، ففي ذلك يقول ابن الرُّقيات يذكر مصعباً :

بلدٌ تأمن الحمامة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم

وكان عبد الله يدعى المُحِلَّ ، لإحلاله القتال في الحرم ، وفي ذلك يقول رجل في رملة بنت الزبير :

ألا من لقلبٍ مُعنّى غزِلْ بذكر المحلة أخت المحلّ

وكان عبد الله بن الزبير يظهر البغض لابن الحنفية إلى بغض أهله ، وكان يحسده على أيده ، ويقال : أن علياً استطال درعاً فقال : لينقص منها كذا وكذا حلقةٍ ، فقبض محمد بن الحنيفة بإحدى يديه على ذيلها ، وبالأخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حده أبوه فكان ابن الزبير إذا حدّث بهذا الحديث غضب واعتراه له أفكلٌ ، فلما رأى المختارُ ان ابن الزبير قد فطن لما أراد كتب إليه : من المختار بن أبي عبيدٍ الثقفي خليفة الوصيّ محمد بن عليٍّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء ، ثم ملأ الكتاب بسبّه وسبّ أبيه ، وكان قبل ذلك في وقت إظهاره طاعة ابن الزبير يدسُّ إلى الشيعة ، ويعلمهم موالاته إياهم ، ويخبرهم أنه على رأيهم وحمد مذاهبهم ، وأنه سيُظهر ذلك عمّا قليل ، ثم وجه جماعة تسير الليل وتكمن النهار ، حتى كسروا سجن عارمٍ واستخرجوا منه بني هاشمٍ ، ثم ساروا بهم إلى مأمنهم .

وكان من عجائب المختار أنه كتب إلى إبرٰهيم بن مالكٍ الأشتر يسأله الخروج إلى الطلب بدم الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهما ، فأبى عليه إبراهيم إلا أن يستأذن محمد بن علي بن أبي طالب ، فكتب إليه يستأذنه في ذلك ، فعلم محمدٌ أن المختار لا عقد له ، فكتب محمد إلى إبرٰهيم بن الأشتر : إنه ما يسوءُني أن يأخذ اللهُ بحقّنا على يدي من يشاء من خلقه ، فخرج معه إبرٰهيم بن الاشتر . فتوجه نحو عُبيد الله بن زيادٍ ، وخرج يشيّعه ماشياً ، فقال له ابراهيم : اركبْ يا أبا إسحق ! : إني أحبُّ أن تغبرّ قدماي في نصرة آل محمد ﷺ ، فشيّعهُ فرسخين ، ودفع إلى قوم من خاصّته حماماً بيضاً ضخاماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، وقال للناس : إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتمْ حيصة فإني أجد في محكم الكتاب ، وفي اليقين والصواب ، أنّ الله مؤيدكم بملائكةٍ غضابٍ ، تأتي في صور الحمام دوين السحاب ! فلما صار ابن الأشتر بخازر وبها عبيد الله بن زيادٍ قال : من صاحبُ الجيش ؟ قيل له :

ابن الأشتر ، قال أليس الغلام الذي كان يُطير الحمام بالكوفة ؟ قالوا : بلى ، قال : ليس بشيء ، وعلى ميمنة ابن زياد حصينُ بن نمير السَّكونيُّ من كندة ، ويقال السَّكوني والسُّكوني ، والسَّدُوميُّ والسُّدُوميُّ ، كذا كان أبو عبيدة يقول ، (قال أبو الحسن : السَّكونيُّ أكثر) وعلى ميسرته عميرُ بن الحباب فارسُ الاسلام ، فقال حُصينُ بن نُمير لابن زياد : ان عميرَ بن الحباب غير ناس قتلى المرج ، وإني لا أثق لك به ، فقال ابن زياد : أنت لي عدوّ ، قال حُصينٌ : ستعلمُ ، قال ابن الحباب : فلما كان في الليلة التي نريد أن نواقع ابن الأشتر في صبيحتها خرجت اليه ، وكان لي صديقاً ، ومعي رجلٌ من قومي ، فصرتُ الى عسكره ، فرأيته وعليه قميص هرويّ وملاءةٌ ، وهو متّشحٌ السيف يجوسُ عسكره فيأمر فيه وينهى ، فالتزمته من ورائه ، فوالله ما التفت الي ، ولكن قال : من هذا ؟ فقلت : عمير بن الحباب ، فقال : مرحباً بأبي المغلّس ، كن بهذا الموضع حتى أعود اليك ، فقلت لصاحبي : أرأيت أشجع من هذا قط ؟! يحتضنه رجلٌ من عسكر عدوّه ، ولا يدري من هو ؟ فلا يلتفتُ إليه !! ثم عاد إليّ وهو في أربعة آلاف ، فقال : ما الخبر ؟ فقلت : القوم كثيرٌ ، والرأي أن تناجزهم ، فانه لا صبر بهذه العصابة القليلة على مطاولة هذا الجمع الكثير ، فقال : نصبح إن شاء الله ثم نحاكمهم إلى ظبات السيوف وأطراف القنا ، فقلت : أنا منخزلٌ عنك بثلث الناس غداً ، فلما التقوا كانت على أصحاب ابراهيم في أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة !! فتراجعوا ، ونكّس عمير بن الحباب رايته ، ونادى يا لثارات المرج ! وانخزل بالميسرة كلها ، وفيها قيسٌ فلم يعصوه ، واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل في أصحاب عبيد الله بن زياد ، ثم انكشفوا ، ووضع السيفُ فيهم حتى أفنوا ، فقال ابن الأشتر : لقد ضربتُ رجلاً على شاطىء هذا النهر فرجع إليَّ سيفي ومنه رائحة المسك ! ورأيت إقداماً وجرأةً ، فصرعته فذهبت يداه قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروه ، فأتوه بالنّيران ، فاذا هو عبيد الله بن زياد .

وقد كان عند المختار كرسيٌّ قديم العهد ، فغشاه بالدِّيباج ، وقال : هذا الكرسيُّ من ذخائر أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فضعوه في براكاء الحرب ، وقاتلوا عليه ، فان محله فيكم محلُّ السَّكينة في بني إسرائيل !! ويقال أنه اشترى ذلك الكرسي بدرهمين من نجّارٍ .

وقوله « في براكاء القتال » يقال براكاءُ وبروكاءُ ، وهو موضع اصطدام القوم ، قال الشاعر :

وليس بمنقذٍ لك منه إلا   براكاء القتال أو الفرار

× × ×

هذا باب اللام

التي للاستغاثة والتي للاضافة

إذا استغثتَ بواحدٍ أو بجماعةٍ فاللامُ مفتوحةٌ ، تقول : يالَلرِّجالِ ، ويالَلقومِ ، ويالَلزيدِ ، إذا كنتَ تدعوهم .

وإنما فتحتها لتَفصِل بين المدعُوّ والمدعُوّ له ، ووجب أن تفتحَها لأن أصلَ اللامِ الخافضَةِ إنما كان الفتحَ ، فكُسِرَتْ مع المظْهرِ ليُفصلَ بينها وبين لامِ التوكيدِ ، تقول : إنَّ هذا لزَيْدٌ ، إذا أردتَ إنّ هذا زيدٌ ، وتقول : إنّ هذا لزيدٍ ، إذا أردتَ أنه في ملْكهِ ، ولو فتَحْتَ لالتبَستا .

فإن وقعتِ اللامُ على مضمَرٍ فتحتها على أصلها ، فقلتَ : إنّ هذا لكَ ، وإن هذا لأنْتَ ، إذا أردتَ لام التوكيدِ ، لأنه ليس ههنا لبْسٌ ، وذاك أنّ الأسماءَ المضمرةَ على غيرِ لفظِ المُظهَرة ، فلهذا أجرَيْتها على الأصل ، والاستغاثةُ ترُدُّها إلى أصلها من أجلِ اللبْسِ .

والمدعوُّ له في بابه ، فاللامُ معه مكسورةٌ ، تقولُ : يالَلرِّجالِ لِلماءِ ، ولَلرِّجالِ للعجبِ ، ويالَلزيدِ للخطْبِ الجليل ، قال الشاعرُ :

يالَلرجالِ ليوْمِ الأربعاءِ أمَا ينفكُّ يبعثُ لي بعد النُّهى طرَبا

وقال آخرُ :

تكنَّفني الوُشاةُ فأزْعجوني فيا لَلناسِ للْواشي المُطاعِ

وفي الحديث لمّا طَعنَ العلجُ أو العبدُ عمرَ بن الخطاب رضوان الله عليه صاح : يالَلهِ يالَلمسلمين .

وتقولُ : ياللعجَبِ ، إذا كنتَ تدعو إليه ، و « يا » لغيرِ العجبِ ، كأنكَ قلتَ : ياللنَّاسِ للعجبِ ، ويُنشدُ هذا البيتُ :

يالعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهمِ والصالحين على سِمْعانَ من جارِ

فـ « يا » لغيرِ اللعنةِ ، كأنه قال : ياقومِ لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهم .

وزعمَ سيبويهِ أنَّ هذه اللامَ التي للاستغاثةِ دليلٌ ، بمنزلةِ الألفِ التي تُبيِّنُ بالهاءِ في الوقف إذا أردتَ أن تُسمع بعيداً ، فإنما هي للاستغاثةِ بمنزلة هذه اللامِ ، وذلك قولُك : يا قوْماهْ ، على غيرِ النُّدْبةِ ، ولكن للاستغاثةِ ومدِّ الصوتِ .

والقولُ كما قال ، محلُّها عند العرب محلٌ واحدٌ ، فإن وصلتَ حذفتَ الهاءَ ، لأنها زيدَتْ في الوقف لخفاءِ الألف ، كما تُزادُ لبيان الحركةِ ، فإذا وصلتَ أغنى ما بعدَها عنها ، تقول : ياقوْما تعالوْا ، ويا زيدًا لا تفعلُ . ولا يجوزُ أن تقولَ يالزيدِ وهو مُقبلٌ عليكَ ، وكذلك لايجوزُ أن تقول : يازَيْداهْ وهو معك ، إنما يقال ذلك للبعيد ، أو يُنبَّهُ به النائمُ .

فإن قلتَ : يالزَيدِ ولِعمرٍو ، كسرتَ اللامَ في « عمرٍو » وهو مدْعُوٌّ ، لأنك إنما فتحت اللامَ في « زيدٍ » لتفصل بين المدعُوِّ والمدعُوِّ إليه ، فلما عطفتَ على « زيدٍ » استغنيتَ عن الفصل ، لأنك إذا عطفتَ عليهِ شيئاً صار في مثْلِ حالِه .

ونظيرُ ذلك الحكايةُ ، يقول الرجلُ : رأيتُ زيداً ، فتقولُ ، منْ زيداً ؟ ويقولُ : مررتُ بزيدٍ ، فتقولُ : منْ زيدٍ ؟ وإنما حكيتَ قولَه ليعلمَ أنك إنما تستفهمُهُ الذي ذكرَ بعينه ، ولا تسأله عن زيدٍ غيره ، والموضعُ موضع رفعٍ ، لأنه ابتداءٌ وخبرٌ ، فإن قلتَ : ومَنْ زيدٌ ؟ أو فمنْ زيدٌ ؟ لم يكن إلا رفعاً ، لأنك عطفتَ على كلامِهِ ، فاستغنيتَ عن الحكاية ، لأن العطفَ لايكونُ مستأنفاً .

ونظيرُ هذا الذي ذكرتُ لك في اللامِ قول الشاعرِ :

يشكيكَ ناءٍ بعيدُ الدَّارِ مُغتربٌ يا َللكهول ولِلشُّبّانِ للعجبِ

فقد أحكمتُ لك كلّ ما في هذا البابِ .

ثم نعودُ إلى ذكر الخوارج

قال أبو العباسِ : وذُكِر لعُبيدِ الله بن زيادٍ رجلٌ من بني سدُوس ، يقال له خالدُ بن عبّادٍ ، أو ابن عُبادةَ ، وكان من نُسّاكهم ، فوجّهَ إليه فأخذه ، فأتاه رجلٌ من آل ثورٍ ، فكذّب عنه ، وقال : هو صِهري وهو في ضمْني ، فخلى عنه ، فلم يزل الرجلُ يتفقّدُهُ حتى تغيّبَ ، فأتى ابنَ زيادٍ فأخبره ، فبعثَ إلى خالد بن عبّادٍ فأُخِذ ، فقال عُبيد الله بن زيادٍ : أين كنتَ في غيبتِك هذه ؟ قال : كنتُ عند قومٍ يذْكرونَ اللهَ ويذكرون أئمةَ الجوْر فيتبرّؤُونَ منهم ! قال : دُلّني عليهم ، قال : إذنْ يسعدُوا وتشقى ، ولم أكنْ لأُروّعهمْ ! قال : فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمرَ ؟ قال : خيراً ، قال : فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمانَ ، أتتولاه وأميرِ المؤمنين مُعاويةَ ؟ قال : إن كانا وليّيْنِ لله فلستُ أعاديها ، فأراغهُ مراتٍ فلم يرجع ، فعزَم على قتله ، فأمر بإخراجه إلى رحبةٍ تُعرفُ برحبة الزّينبيّ ، فجعل الشُّرطُ يتفادَونَ من قتله ، ويرُوغُونَ عنه توقّياً ، لأنه كان شاسفاً عليه أثرُ العبادَةِ ، حتى أتى المثلمُ بنُ مسرُوحٍ الباهليُّ ، وكان من الشُّرطِ ، فتقدّم فقتلهُ ، فائتمرَ بـه الخوارجُ ليقتلوه ، وكان رجلاً مُغرَماً باللقاحِ ، يتتبّعُها فيشتريها من مظانّها ، وهم في تفقّدِهِ ، فدسُّوا إليه رجلاً في هيئةِ الفتيانِ ، عليه ردعُ زعفرانٍ ، فلقيه بالمربد وهو يسأل عن لقحةٍ صفيٍ ، فقال له الفتى : إنْ كنت تبلغُ فعندي ما يغنيك عن غيره ، فامضِ معي ، فمضى المثلمُ على فرسه والفتى أمامهُ ، حتى أتى به بني سعدٍ ، فدخل داراً ، وقال له : ادخل على فرسك ، فلمّا دخل وتوغل في الدار أغلقَ البابَ ، وثارت به الخوارجُ فاعتورهُ حُرَيثُ بن جحلٍ ،

وكهمسُ بن طلقٍ الصّريميُّ فقتلاه ، وجعلا دراهمَ كانت معه في بطنه ، ودفناه في ناحية الدارِ ، وحكّا آثارَ الدّم ، وخلّيا فرسه في الليل ، فأصيبَ من الغدِ في المِربدِ ، وتحسّس عنه الباهليُّون فلم يروا له أثراً ، فاتهموا به بني سدوسٍ ، فاستعْدَوا عليهم السلطان ، وجعل السُّدوسيُّونَ يحلفون ، فتحاملَ ابنُ زيادٍ مع الباهليين ، فأخذ من السدوسيين أربع دياتٍ ، وقال : ما أدري ما أصنعُ بهؤلاء الخوارج ؟ كلما أمرتُ بقتل رجلٍ منهم اغتالوا قاتله فلم يُعلم بمكانه ، حتى خرج مرداسٌ . فلما واقفهم ابنُ زرعة الكلابيُّ صاح بهم حريثُ ابن جحلٍ : أههُنا من باهلة أحدٌ ؟ قالوا نعم ، قال : يا أعداء اللهِ ! اخذتم بالمثلم أربع دياتٍ وأنا قاتله وجعلتُ دراهم كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفونٌ ، فلما انهزموا صاروا إلى الدار ، فأصابوا اشلاءه والدراهم ، ففي ذلك يقولُ ابو الأسود الدؤُليُّ :

آليتُ لا أغدُو إلى ربّ لقحةٍ   أساومه حتى يعود المثلمُ

ثم خرجت خوارجُ لا ذكر لهم ، كلُّهم قُتل ، حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة .

* * *

ومن هاهنا افترقت الخوارج فصارت على اربعةِ أضرُبٍ :

الإباضيّةُ ، وهم اصحابُ عبد الله بن إباضٍ .

والصُّفريةُ ، واختلفوا في تسميتهم ، فقال قومٌ : سُمُّوا بابن صفّارٍ ، وقال آخرُون ، واكثر المتكلمين عليه : هم قومٌ نهكتهمُ العبادة فاصفرت وجوههم .

ومنهم البيهسيّة ، وهم اصحاب ابي بيهَس .

ومنهم الأزارِقة ، وهم أصحابُ نافع بن الأزرَقِ الحنفيّ ، وكانوا قبلُ على رأيٍ

واحدٍ ، لا يختلفون إلاّ في الشيءِ الشاذّ من الفروعِ ، كما قال صخرُ بن عروة : إني كرهتُ قتالَ عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه لسابقته وقرابته ، فأما الآن فلا يسعني إلاّ الخروجُ . وكان اعتزلَ عبدَ الله بن وهبٍ يومَ النهرِ ، فضلّله الخوارج بامتناعه من قتال عليٍّ .

* * *

فكان أولُ أمرهم الذي نسّاقه : أنّ جماعةً من الخوارجِ ، منهم نجدةُ ابنُ عامرٍ الحنفيُّ ، عزموا على أن يقصدوا مكةَ ، لمّا توجّه مسلمُ بن عقبةَ يريدُ المدينة لوقعة الحرّة ، فقالوا : هذا ينصرفُ عن المدينة إلى مكة ، ويجب علينا أن نمنعَ حرَمَ اللهِ منه ، ونمتحنَ ابن الزُبير ، فإن كان على رأينا بايعناه ، فمضوا لذلك .

فكان أولُ أمرهم : أنّ أبا الوازعِ الراسبيَّ ، وكان من مجتهدي الخوارجِ كان يذمُّ نفسه ويلومُها على القعودِ ، وكان شاعراً ، وكان يفعلُ ذلك بأصحابه ، فأتى نافعَ بن الأزرقِ وهو في جماعةٍ من أصحابه ، يصفُ لهم جورَ السلطانِ ، وكان ذا لسانٍ عضبٍ ، واحتجاجٍ وصبر على المنازعة ، فأتاه أبو الوازعِ ، فقال : يا نافعُ ! لقد أُعطيت لساناً صارماً ، وقلباً كليلاً ، فلوددتُ أن صرامة لسانك كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان للسانك ، أتحضُّ على الحقّ وتقعدُ عنه ، وتقبحُ الباطلَ وتقيمُ عليه ؟! فقال : إلى أن تجمعَ من أصحابك من تنكي به عدوّك ، فقال أبو الوازع :

لسانكَ لا تنكي به القومَ إنما تنالُ بكفيكَ النّجاةَ من الكربِ
فجاهدْ أناساً حاربوا الله واصطبرْ عسى اللهُ أن يخزي غويَّ بني حربِ

ثم قال : واللهِ لا ألومك ونفسي ألومُ ، ولأغدُونَّ غدوةً لا أنثني بعدها أبداً ، ثم مضى فاشترى سيفاً ، وأتى صيقلاً كان يذمُّ الخوارج ويدلُّ على عوراتهم ، فشاوره في السيف فحمدَه ، فقال : اشحذْهُ ، فشحذَهُ ، حتى إذا رضيهُ حكّم وخبطَ به الصيقلَ ، وحملَ على الناس فتهاربوا منه ، حتى أتى مقبرةَ بني

يشكر ، فدفع عليه رجل حائط السترة فكرهت ذلك بنو يشكر ، خوفاً أن تجعل الخوارج قبره مهاجراً ، فلما رأى ذلك نافع بن الأزرق وأصحابه جدوا ، وخرج في ذلك جماعة ، فكان ممن خرج عيسى بن فاتك الشاعر الخطي ، من تيم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزارقة .

فمضى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مكة ، ليمنعوا الحرم من جيش مسلم بن عقبة ، فلما صاروا إلى ابن الزبير عرّفوه أنفسهم ، فأظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشام ، فدافعوهم إلى أن يأتي رأي يزيد بن معاوية ، ولم يبايعوا ابن الزبير ، ثم تناظروا فيما بينهم ، فقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ، وتبرأ من عثمان وعلي ، وكفر أباه وطلحة ، بايعناه ، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يجدي علينا ، فدخلوا على ابن الزبير ، وهو متبذل ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق ، ماتقول في الشيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقول في عثمان ، الذي أحمى الحمى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، واوطأ آل ابي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين ؟ وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال ، واقام على ذلك غير تائب ولا نادم ؟ وفي ابيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي ، لم يظهر منه كفر ، ثم نكثا ، بعرض من اعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد امرها الله وصواحبها ان يقرن في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فإن انت قلت كما نقول فلك الزلفة عند الله والنصر على ايدينا ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن ابيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب ابيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان ، والتولي في السنين الست التي احلت دمه ، ونقضت عهده ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا !! فقال ابن الزبير : إن الله أمر — وله العزة

والقدرةُ – في مخاطبة أكفر الكافرين واعتى العتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه – صلى الله عليهما – في فرعون (فقولا لهُ قولاً ليناً لعلهُ يتذكر او يخشى) وقال رسول الله ﷺ : « لا تؤذُوا الأحياء بسبِّ الموتى » فنهى عن سبِّ ابي جهلٍ من اجل عكرمة ابنه ، وابو جهلٍ عدوُّ الله وعدوُّ الرسول ، والمقيم على الشركِ ، والجادُّ في المحاربة ، والمتبغضُ إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، والمحاربُ له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميّتم فيه طلحة وابي ان تقولوا : اتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلاَ في غُمارِ الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظوني بسبِّ أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون انَّ الله جلَّ وعزَّ قال للمؤمن في أبويه : (وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معرُوفاً) وقال جل ثناؤُهُ : (وقولوا للناسِ حسناً) وهذا الذي دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقنعُكم إلا التوقيفُ والتصريحُ . ولعمري إن ذلك لأحرى بقطعِ الحجج ، وأوضحُ لمنهاج الحقِّ ، وأولى بأن يعرفَ كلٌّ صاحبه من عدوِّه ، فرُوحُوا إليَّ من عشيّتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله . فلما كان العشيُّ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدةُ قال : هذا خروجُ منابذٍ لكم ، فجلس على رفعٍ من الأرضِ ، فحمد الله واثنى عليه ، وصلى على نبيه محمدٍ ﷺ ، ثم ذكر ابا بكرٍ وعمر احسن ذكرٍ ، ثم ذكر عثمانَ في السّنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلهنَّ بالسّنين التي أنكروا سيرته فيها ، فجعلها كالماضيةِ ، وخبّر أنه آوى الحكم بنَ أبي العاص بإذن رسول ﷺ ، وذكر الحمىَ وما كان فيه من الصّلاحِ وأنّ القوم استعتبوهُ من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مصيباً ، ثم أعتبهم بعدُ مُحسناً ، وأن أهلَ مصر لما اتوه بكتابٍ ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العُتبى ، ثم كُتب لهم ذلك الكتابُ بقتلهم ، فدفعوا الكتابَ إليه ، فحلف انه لم يكتبهُ ولم يأمر به ، وقد أمر بقبول اليمين ممّن ليس له مثلُ سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ﷺ ومكانه

من الإمامة ، وأن بيعة الرّضوان تحت الشّجرة إنما كانت بسببه ، وعثمانُ الرجل الذي لزمته يمينٌ لو حلف عليها لحلف على حقٍ فافتداها بمائةِ ألفٍ ولم يحلفْ ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف باللهِ فليصْدُق ، ومن حُلف له بالله فليرضَ » فعثمانُ اميرُ المؤمنين كصاحبيه ، وانا وليُّ وليّهِ ، وعدُوُّ عدوّه ، وابي وصاحبه صاحبا رسولِ الله ﷺ ، ورسولُ الله يقول عن الله تعالى يوم أحدٍ لما قُطعتْ إصبعُ طلحة : « سبقته إلى الجنةِ » وقال : « أوجبَ طلحةُ » وكان الصّدّيقُ إذا ذكرَ يوم أحدٍ قال : ذاك يومٌ كلُّه او جُلهُ لطلحةَ ، والزبيرُ حواريُّ رسولِ الله وصفوتهُ ، وقد ذكرَ أنهما في الجنة ، وقال جلّ وعزّ : (لقدْ رضي اللهُ عنِ المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشّجرة) وما اخبرنا بعدُ انه سخط عليهم ، فإن يكن ما سعوا فيه حقاً فأهلُ ذلك همْ ، وإن يكن زلّةً ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم ﷺ ، ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتمْ بأمّكم عائشةَ رضي الله عنها ، فإن ابى آبٍ ان تكون له أمّاً نبذ اسم الإيمانِ عنه ، قال اللهُ جلّ ذكرهُ وقوله الحقُّ : (النبيُّ أولى بالمؤمنين منْ انفسهمْ وأزواجهُ أمّهاتهمْ) فنظر بعضهم إلى بعضٍ ثم انصرفوا عنه .

* * *

وكان سببُ وضعِ الحربِ اوزارها بين ابن الزبير وبين اهل الشأم — بعد ان كان حصينُ بن نُميرٍ قد حصر ابن الزبير — انه اتاهم موتُ يزيد بن معاوية فتوادعَ الناسُ ، وقد كان اهلُ الشأم ضجرُوا من المقام على ابن الزبير ، وحنِقت الخوارج في قتالهم ، ففي ذلك يقول رجلٌ من قُضاعة :

يا صاحبيّ ارتحلا ثم املسا لا تحبسا لدى الحصينِ محبسا

إنّ لدى الأركانِ بُؤساً

(قال الأخفشُ : حفظي « بأساً أبؤُسا » .)

وبارقات يختلسن الأنفسا إذا الفتى حكّم يوماً كلسا

قوله : « ثم املسا » يريد : تخلّصا تخلّصاً سهلاً . « وَكلّس » اي حملَ وجدّ .

ولما سمع ابنُ الزبير للخوارج في القولِ واظهر انه منهم قـال له رجل يقال له قيسُ بن همّامٍ من رهط الفرزدقِ :

يابن الزبير اتهوَى عُصبةً قتلوا ظلماً اباك ولمّا تنزع الشَّكَكُ
ضحّوا بعثمان يوم النحرِ ضاحيةً ماأعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا

فقال ابنُ الزبير : لو شايعتْني التُّرك والدَّيلمُ على قتال اهل الشأم لشايعتها

« الشَّكَك » جمعُ « شَكَّةٍ » وهي السلاحُ ، قال الشاعرُ :

ومُدجّجاً يسعى بشكّتهِ مُحمرّةً عيناهُ كالكلبِ

* * *

فتفرقت الخوارجُ عن ابن الزبير لما تولى عثمانَ ، فصارت طائفةٌ إلى البصرة ، وطائفةٌ إلى اليمامة ، وكان رجاءُ النُّميريُّ هو الذي كان جمعهم للمدافعة عن الحرم ، فكان فيمن صار إلى البصرة نافعُ بن الأزرق الحنفيُّ ؛ وبنو الماحوز السليطيُّون ، ورئيسهم حسانُ بن بجزجٍ ، فلما صاروا إلى البصرة نظروا في أمورهم فأمّروا عليهم نافعاً .

ويروى : ان ابا الجلدِ اليشكريّ قال لنافعٍ يوماً : يانافعُ ! إن لجهنم سبعة ابوابٍ ، وإن اشدها حرّاً للبابُ الذي أعـدّ للخوارج ، فإن قدرت ان لا تكون منهم فافعل ، فأجمع القوم على الخروج ، فمضى بهم نافعٌ إلى الأهواز في سنة اربع وستين ، فأقاموا بها ، لايهيجون احداً ، ويناظرهم الناسُ .

* * *

وكان سبب خروجهم إلى الأهواز انه لما مات يزيدُ بايع اهلُ البصرة عُبيد الله بن زيادٍ ، وكان في السجن يومئذٍ اربعُ مائة رجلٍ من الخوارج ، وضعف امرُ ابن زيادٍ ، فكلّمَ فيهم ، فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه ، وفشوا في الناس ، يدعون إلى محاربة السلطانِ ، ويظهرون ماهم عليه ، حتى اضطرب على عبيد الله امره ، فتحوّل عن دار الإمارة إلى الأزد ، ونشأت الحربُ بسببه بين الازد

وربيعة وبين بني تميم ، فاعتزلهم الخوارج إلا نفراً منهم من بني تميم ، معهم عبس ابن طلقٍ الصّريميُّ اخو كهمسٍ ، فانهم اعانوا قومهم ، فكان عبسُ الطّعان في سعدٍ ، والرّباب في القلب بجذاء الأزد ، وكان حارثة بن بدرٍ اليربوعيُّ في حنظلة بجذاءِ بكر بن وائلٍ ، وفي ذلك يقول حارثة بن بدرٍ للأحنف ، وهو صخر بن قيسٍ :

سيكفيكَ عبسٌ أخو كهْمسٍ مُواقفةَ الازدِ بالمِرْبَدِ
وتكفيك عمْرُو على رِسْلِها لكيزَ بن أفصى وما عدّدوا

« لكيزٌ » هو عبدُ القيسِ .

وتكفيكَ بكراً إذا أقبلتْ بضربٍ يشيبُ له الأمرَد

فلما قُتل مسعودُ بن عمْرٍو المعْنيُّ ، وتكافّ الناسُ أقام نافعُ بن الأزْرق بموضعه بالأهوازِ ، ولم يَعدْ إلى البصرة ، وطردوا عُمالَ السلطانِ عنها ، وجبوا الفيءَ .

ولم يزالوا على رأيٍ واحدٍ ، يتولّونَ أهلَ النهر ومِرْداساً ومن خرج معه ، حتى جاء مولًى لبني هاشمٍ إلى نافعٍ ، فقال له : إن أطفالَ المشركين في النارِ ، وإن من خالفنا مشركٌ ، فدماءُ هؤلاءِ الأطفالِ لنا حلالٌ ، قال له نافعٌ : كفرتَ وأدْلتَ بنفسك ، قال له : إن لم آتكَ بهذا من كتاب الله فاقتلْني : (قالَ نوحٌ ربٌ لاتذرْ على الأرضِ من الكافرين ديّاراً . إنّك إنْ تذَرْهمْ يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً) فهذا أمرُ الكافرين وأمرُ أطفالهم ، فشهدَ نافعٌ أنهم جميعاً في النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدارُ دارُ كفرٍ إلا من أظهر إيمانهُ ، ولا يحلُّ أكل ذبائحهم ، ولا تناكحهم ، ولا توارثهم ، ومتى جاءَ منهم جاءٍ فعلينا أن نمتحنهُ ، وهم ككفّار العرب ، لانقبلُ منهم إلا الإسلام أو السيف ، والقعدُ بمنزلتهم ، والتّقيةُ لاتحلُّ ، فان الله تعالى يقول : (إذا فريقٌ منهم يخشون الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً) وقال عزّ وجلّ فيمن

كان على خلافهم : (يجاهدُون في سبيل الله ولا يخافون لوْمةَ لائمٍ) . فنفرَ جماعةٌ من الخوارج عنه ، منهم نجدةُ بن عامرٍ ، واحتج عليه بقول الله عز وجل : (إلا أن تتّقوا منهم تقاةً) وبقوله عز وجل : (وقال رجل مؤْمنٌ من آلِ فرعونَ يكتُمُ إيمانه) فالقَعَدُ منا ؛والجهادُ إذا أمكنَ أفضل ، لقوله جل وعز : (وفضّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجْراً عظيما) . ثم مضى نجدةُ بأصحابه إلى اليمامة وتفرقوا في البلدانِ .

فلما تتابَعَ نافعٌ في رأيه وخالف أصحابهُ ، وكان أبو طالوت سالمُ بن مطرٍ بالخضارمِ في جماعةٍ قد بايعوه ، فلما انخزل نجدة خلعوا أبا طالوتَ ، وصاروا إلى نجدة فبايعوه ، ولقي نجدةُ وأصحابهُ قوماً من الخوارج بالعرمةِ ، «والعرمةُ» كالسّكرِ ، وجمعها « عرمٌ » وفي القرآن المجيدِ : (فأرْسلنا عليهم سيلَ العرمِ) وقال النابغةُ الجعديُّ :

منْ سبأ الحاضرينَ مأرب إذْ يبنون من دُون سيله العرما

فقال لهم أصحابُ نجدة : إن نافعاً قد كفّر القعد ورأى الاستعراض ، وقتْل الأطفال ، فانصرَفوا مع نجدة ، فلما صار باليمامة كتب إلى نافع :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ : فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالاخ البرّ ، لاتأخذُك في الله لومةُ لائمٍ ، ولا ترى معونة ظالمٍ ، كذلك كنت أنت وأصحابك ، أما تذْكرُ قولك : لولا أني أعلم أنَّ للإمام العادل مثل أجر جميع رعيّته ما توليتُ أمر رجلين من المسلمين ؟ فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبت من الحقّ فصّهُ ، وركبت مُرّهُ ، تجردَ لك الشيطانُ ، ولم يكن أحدٌ ثقل عليه وطأةً منك ومن أصحابك فاستمالكَ واستهواكَ واستغواكَ وأغواكَ ، فغويتَ ، فأكفرت الذين عذرهم اللهُ في كتابه من قعد المسلمين وضعفتهمْ ، فقال جل ثناؤهُ ، وقولهُ الحقُّ ووعدُهُ الصّدقُ : (ليسَ على الضُّعفاء ولا على المرْضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا للهِ ورسوله) ثم سماهم أحسن الاسماء فقال : (ما على المحسنين

من سبيلٍ) ثم استحللتَ قتل الاطفال ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم ، وقـال اللهُ عز ذكره : (ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى) وقـال في القعد خيراً ، وفضل اللهُ من جـاهد عليهم ، ولا يدفعُ منزلةُ أكثر الناس عملاً منزلة من هو دُونه ، أوما سمعت قوله عز وجل : (لا يستوي القاعدون من المؤمنينَ غيرُ أولي الضرر) فجعلهم اللهُ من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدي الأمانةَ إلى من خالفك ، واللهُ يأمرُ ان تؤدّى الامانات إلى اهلها ، فاتّق الله وانظرْ لنفسك ، واتّق يوماً (لايجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً) فإن الله عز ذكرُه بالمرصاد ، وحكمهُ العدلُ ، وقوله الفصلُ والسلامُ .

* * *

فكتب إليه نافعٌ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد اتاني كتابك تعظُني فيه وتذكرُني وتنصحُ لي وتزجرُني ؛ وتصفُ ما كنتُ عليه من الحقّ ، وما كنتُ أوثرُه من الصواب ، وانا أسألُ الله جلّ وعزّ ان يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنهُ ، وعبتَ عليّ ما دنتُ به من إكفار القعد وقتل الاطفـال واستحلال الامانة ؛ فسأفسرُ لك لم ذلك إن شاء الله : اما هؤلاء القعـد فليسوا كمنْ ذكرت ممن كان بعهد رسول الله ﷺ ، لانهم كانوا بمكّة مقهورين محصورين ، لا يجدُون إلى الهرب سبيلاً ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قـد فقهوا في الدّين ، وقرؤا القرآن ، والطريقُ لهم نهجٌ واضحٌ ، وقد عرفت ماقال اللهُ عز وجل فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : (كُنّا مُستضعفين في الارض) فقيل لهم : (ألم تكن ارضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها) وقال : (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) وقال : (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) فخَبّر بتعذيرهم ، وانهم كذّبوا الله ورسولهُ ، وقـال : (سيصيبُ

الذين كفروا منهم عذابٌ اليمٌ) فانظر إلى اسمائهم وسماتهم . واما امر الاطفال فإن نبيّ الله نوحاً عليه السلامُ كان اعلم بالله – يانجدةُ – مني ومنك ، فقال : (ربّ لاتذرْ على الارض من الكافرين دياراً ، إنك إنْ تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فسماهم بالكفر وهم اطفالٌ ، وقبل ان يولدُوا ، فكيف كان ذلك في قوم نوحٍ ولا نكونُ نقولهُ في قومنا ؟! واللهُ يقولُ : (اكُفارُكم خيرٌ من أولئكم، ام لكم براءةٌ في الزُبر) وهؤلاء كمُشركي العرب ، لانقبلُ منهم جزيةً ، وليس بيننا وبينهم إلا السيفُ او الاسلامُ . واما استحلالُ امانات من خالفنا فان الله عز وجل احل لنا اموالهم ، كما احل لنا دماءهم ، فدماؤهم حلالٌ طلقٌ ، واموالهم فيءٌ للمسلمين ، فاتق الله وراجعْ نفسك ، فإنه لاعُذر لك إلا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا ، والقعودُ عنا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من اقرّ بالحق وعمل به .

★ ★ ★

وكتب نافعٌ إلى عبد الله بن الزُّبير يدعوه إلى امره :

امّا بعد ، فإني أحذّرك من الله (يوم تجد كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محْضراً ، وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ، ويحذّركم الله نفسه) فاتق الله ربك ، ولا تتول الظالمين ، فإن الله يقول : (لايتّخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعلْ ذلك فليس من الله في شيءٍ) وقد حضرتَ عثمان يوم قتل ، فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ، ولئن كان قاتلوه مهتدين – وإنهم لمهتدون – لقد كفر من يتولاه وينصره ويعضده ، ولقد علمتَ ان اباك وطلحة وعلياً كانوا اشد الناس عليه ، وكانوا في امره منْ بين قاتلٍ وخاذلٍ ، وانت تتولى اباك وطلحة وعثمان ، وكيف ولاية قاتلٍ متعمّدٍ ومقتولٍ في دينٍ واحدٍ ؟ ! ولقد ملك عليٌّ بعده فنفى الشُّبهات ، واقام الحدود ، واجرى الاحكام مجاريها ، واعطى الأمور

حقائقها ، فيا عليه وله ، فبايعه ابوك وطلحة ، ثم خلعاه ظالمين له ، وإن القول فيك وفيها لكما قال ابن عباس : إنْ يكُنْ عليٌّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً اما لقد كفرتم بقتال المؤمنين وائمة العدل ، ولئن كان كافراً كما زعمتم وفي الحكم جائراً لقد بؤتم بغضبٍ من الله لفراركم من الزحف ، ولقد كنتَ له عدواً ، ولسيرته عائباً ، فكيف توليتهُ بعد موته ؟! فاتق الله فإنه يقول : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) .

• • •

وكتب نافعٌ إلى من بالبصرة من المحكّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم . امّا بعد ، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون ، والله إنكم لتعلمون ان الشريعة واحدةٌ ، والدين واحدٌ ، ففيم المقام بين اظهر الكفار ، ترون الظلم ليلاً ونهاراً ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد فقال : (وقاتلوا المشركين كافّةً) ولم يجعل لكم في التّخلُّف عذراً في حالٍ من الحال ، فقال : (انفروا خفافاً وثقالاً) . وإنما عذر الضُّعفاء والمرْضى والذين لا يجدون ما ينفقون ومن كانت إقامته لعلةٍ ، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : (لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أُولي الضّرر والمجاهدون في سبيل الله) . فلا تغترُّوا ولا تطمئنُّوا إلى الدنيا ، فإنها غرّارةٌ مكارةُ ، لذتها نافدةٌ ، ونعمتها بائدةٌ ، حفّتْ بالشهوات اغتراراً ، واظهرتْ حبَرةً ، واضمرت عبرةً ، فليس آكلٌ منها أُكلةً تسرُّه ، ولا شاربٌ شرْبةً تُؤْنقهُ ؛ إلا دنا بها درجةً إلى اجله ، وتباعد بها مسافةً من امله ، وإنما جعلها الله داراً لمن تزود منها إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازمٌ داراً ، ولا حليمٌ بها قراراً ، فاتقوا الله (وتزوّدوا فإن خير الزادِ التقوى) والسلام على من اتّبع الهدى .

فورد كتابه عليهم ، وفي القوم يومئذٍ ابو بيهس ٍ هيصم بن جابر ٍ الضُّبعيُّ ، وعبد الله بن إباض ٍ المرّيُّ ، من بني مرة بن عبيد ٍ ، فأقبل ابو بيهس ٍ على ابن إباض ٍ فقال : إن نافعاً غـلا فكفر ، وإنك قصّرت فكفرت ! تزعم ان من خالفنا ليس بشرك ٍ ، وإنما هم كفارُ النعم ِ ؛ لتمسُّكهم بالكتاب ، واقرارهم بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حلٌّ طلقٌ ؟ وأنا أقول : إن أعداءنا كاعداء ِ رسول الله ﷺ ، تحلُ لنا الإقامة فيهم ، كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجري فيها ، وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حكم المشركين !!

* * *

فصاروا في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع ٍ في البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال . وقول أبي بيهس ٍ الذي ذكرناه . وقول عبد الله بن إباض . وهو أقرب الاقاويل إلى السنة من أقاويل الضُّلال . والصُّفريةُ والنّجديةُ في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إباض ٍ . وقد قال ابن إباض ماذكرنا من مقالته .

وأنا اقول : ان عدونا كعدوّ رسول الله ﷺ ، ولكني لا أُحرّمُ مناكحتهم ومواريثهم ، لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول عليه السلام ، فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، وأراهم كفاراً للنعم . وقالت الصُّفرية ألين من هذا القول في أمر القعد ، حتى صار عامّتهم قعداً . واختلفوا فيهم ، وقد ذكرنا ذلك . فقال قوم : سمُّوا « صفريةً » لأنهم أصحاب ابن صفّار ٍ ، وقال قومٌ : إنما سمُّوا بصفرة ِ ألوانهم ، وتصديق ذلك قول ابن عاصم ٍ الليثيّ ، وكان يرى رأي الخوارج ِ ، فتركه وصار مرجئاً :

فارقتُ نجدَةَ والذين تَزَرَّقوا   وابنَ الزُّبَيْر ِ وشيعةَ الكَذّاب ِ

والصُّفْرَ الآذانِ الذين تَخَيَّرُوا دِيناً بلا ثِقَةٍ ولا بكِتابِ

خَفَّفَ الهمزةَ من « الآذانِ » ولولا ذلك لانكسر الشِّعرُ .

وقال أبو بَيْهَسٍ : الدارُ دارُ كُفْرٍ ، والاستعراضُ فيها جائزٌ ، وإنْ أُصيبَ من الأطفال فلا حَرَجٌ . إلى هٰهنا انتهتِ المقالةُ .

* * *

وتفرّقتِ الخوارجُ على الأضْرُبِ الأربعةِ التي ذكرنا ، وأقام نافعٌ بالأهوازِ يعترضُ الناسَ ويقتُلُ الأطفالَ ، فإذا أُجيبَ إلى المقالةِ جَبا الخراجَ ، وفَشا عُمّالُهُ في السَّوادِ ، فارتاعَ لذلك أهلُ البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحْنَفِ ابن قَيْسٍ ، فشَكَوْا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدوّ إلا ليلتانِ ، وسيرتُهم ما ترى ، فقال الأحنفُ : إنّ فعلهم في مصركم — إن ظفروا به — كفعلِهم في سَوادِكم ، فجِدُّوا في جهاد عدوِّكم ، فاجتمع إليه عشرةُ آلافِ رجل ، فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلِب ، وهو بَبّةُ ، فسأله أن يؤمّر عليهم ؛ فاختار لهم ابن عُبَيْس بن كُرَيْزٍ ، وكان ديّناً شجاعاً ، فأمّره عليهم وشيّعه ، فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : إني ما خرجتُ لامتيار ذهبٍ ولا فضة ، وإني لأحاربُ قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا سيوفُهم ورماحُهم ، فمن كان شأنُه الجهاد فلينهضْ ، ومن أحبّ الحياة فليرجعْ ، فرجع نفرٌ يسيرٌ ، ومضى الباقون معه . فلمّا صاروا بدُولاب خرج إليهم نافعٌ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى تكسّرت الرماحُ ، وعُقِرت الخيل ؛ وكثُرت الجِراح والقتل ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد ، فقُتل في المعركة ابنُ عُبَيْسٍ ونافعُ بن الأزرق ، وكان ابن عُبيسٍ قد تقدّم إلى أصحابه فقال : إنْ أُصبتُ فأميركم الرَّبيع بن عمرو الأجذم الغُداني ، فلما أُصيب ابن عُبيس أخذ الربيع الراية ، وكان نافعٌ قد استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ، فكان الرئيسان من بني يربوع:

رئيس المسلمين من بني غدانة بن يربوعٍ ، ورئيس الخوارج من بني سليط بن يربوعٍ فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وادَّعى قتل نافعٍ سلامةُ الباهليُّ ، وقال : لما قتلته وكنت على برذونٍ وردٍ إذا برجل على فرسٍ وأنا واقفٌ في خمسٍ قيسٍ يُنادي : ياصاحب الوردِ ! هلم إلى المبارزة ، فوقفتُ في خمسِ بني تميمٍ فاذا به يعرضها عليّ ، وجعلتُ أتنقلُ من خُمسٍ إلى خمس ، وليس يزايلي ، فصرتُ إلى رحلي ،ثمّ رجعت فرآني فدعاني إلى المبارزة ، فلما أكثر خرجت إليه فاختلفنا ضربتين ، فضربته فصرعته ، فنزلتُ لسلبه وأخذ رأسه ، فإذا امرأةٌ قد رأتني حين قتلت نافعاً ، فخرجتْ لتثأر به ، فلم يزل الربيع الأجذم يقاتلهم نيّفاً وعشرين يوماً ، حتى قال يوماً : أنا مقتولٌ لامحالة ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأني رأيت البارحة كأن يدي التي أُصيبتْ بكابلَ انحطتْ من السماءِ فاستشلتني ، فلما كان الغد قاتل إلى الليل ، ثم غاداهم فقتل ، فتدافع أهل البصرة الراية حتى خافوا العطب ، إذ لم يكن لهم رئيسٌ ، ثم أجمعوا على الحجّاج بن بابٍ الحميريّ ، فأباها ، فقيل له : ألا ترى أن رؤساء العرب بالحضرة ، وقد اختاروك من بينهم ؟! فقال : مشؤُومةٌ ، ما يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها ، فلم يزل يقاتلُ الخوارج بدُولاب ، والخوارجُ أعدُّ بالآلاتِ والدُّروع والجواشن ، فالتقى الحجاج بن بابٍ وعمران بن الحرثِ الرّاسبيُّ ، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاءَ شهرٍ ، فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين ، فقالت أمُّ عمران ترثيه :

اللهُ أيّـــد عمراناً وطهره ... وكان عمرانُ يدعو الله في السَّحر
يدعوه سراً وإعلاناً ليرزقه ... شهادةً بيديْ ملحادةٍ غُدَرِ
ولّى صحابته عن حرّ ملحمةٍ ... وشد عمران كالضّرغامة الهصرِ

قول الربيع « استشلتني » أي : أخذتني إليها واستنقذتني . يقال « استشلاه واشتلاه » وفي الحديث « أن السارق إذا قطع سبقته يده إلى النار ، فان تاب استشلاها » . وقال رؤْبةُ :

إنَّ سليمان اشتلاتا ابن علي . وقول الناس « أشليْتُ كلبي»أي أغريتهُ بالصيد ، خطأٌ ، إنما يقال « آسدتُه » .و« أشليتهُ » دعوتهُ .

وقولها « بيدي ملحادةٍ » « مفعالٌ » من الإلحادِ ، كما تقول : رجل معطاءٌ يافتى ، ومحسانٌ ، ومكرامٌ،وأُدخلت الهاءُ للمبالغة ، وكما تدخلُ في روايةٍ وعلامةٍ ونسّابةٍ .

« وغدر » « فُعلٌ » من الغدر ، ولفعلٍ بابٌ نذكره في عقب هذه القصة ، إذا فرغنا من خبر هذه الوقعة .

و « الضّرغامة » من أسماء الأسدِ .

و « الهصرُ » الذي يهصر كل شيءٍ ، أي يثنيه ، قال امرؤُ القيس :

فلمّا تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصنٍ ذي شماريخ ميال

* * *

ولذكرنا الصُّفرية والأزارقة والبيهسية والإباضيّة تفسيرٌ ، لِمَ نسب إلى ابن الأزرق بالأزارقة ، وإلى أبي بيهسٍ بالكنية المضاف إليها ، ونسبَ إلى صفرٍ ولم ينسب إلى واحدهم ، ونسب إلى ابن إباضٍ فجعل النسبُ إلى أبيه ؟ وهذا نذكره بعد باب « فعلٍ » إن شاء الله .

* * *

قال أبو العباس : ومما قيلَ من الشعر في يوم دولاب قول قطريٍّ :

لعمركَ إني في الحياة لزاهدٌ ... وفي العيش ما لم ألقَ أم حكيمِ
من الخفرات البيض لم يُرَ مثلها ... شفاءً لذي بثٍّ ولا لسقيمِ
لعمرك اني يوم ألطمُ وجهها ... على نائبات الدهر جدُّ لئيمِ
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتْ ... طعان فتىً في الحرب غير ذميمِ
غداة طفت علماء بكر بن وائلٍ ... وعُجنا صدور الخيل نحو تميمِ
وكان لعبدِ القيسِ أول جدّها ... وأحلافها من يحصبٍ وسليمِ

وظلت شيوخُ الأزد في حومة الوغى تعوم وظلنا في الجـلادِ نعوم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يمجُ دماً من فائظٍ وكليمِ
وضاربةٍ خـداً كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريمِ
أصيب بدولابٍ ولم تكُ موطناً له أرض دولابٍ ودير حميمِ
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفارِ كل حريمِ
رأت فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجناتِ عدنٍ عنده ونعيمِ

قوله « ولو شهدتنا يوم دولاب » فلم ينصرف « دولاب » فإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، و « دولاب » أعجميٌ معربٌ . وكلُ ما كان من الأسماء الأعجمية نكرة بغير الألف واللام فإذا دخلته الألف واللام فقد صار معرباً ، وصار على قياس الأسماء العربية ، لايمنعه من الصرف الا مايمنع العربيَّ ، فدولاب « فوعال » مثلُ طومارٍ وسُولافٍ . وكلُ شيءٍ لايخصُ واحداً من الجنس من غيره فهو نكرةٌ نحو رجلٍ ، لأن هـذا الاسم يلحق كلَّ ما كان على بِنيته ، وكذلك جملٌ وجبلٌ وما أشبه ذلك . فإن وقع الاسم في كلام العجم معرفةً فلا سبيل إلى إدخال الألف واللام عليه ، لأنه معرفةٌ ، فلا معنى لتعريفٍ آخر فيه ، فذلك غير منصرفٍ ، نحو « فرعون » و « هامان » و « قارون » وكذلك « إسحٰق » و « إبرٰهيم » و « يعقوب » .

وقوله « غداة طفت علماء بكر بن وائلٍ » وهو يريد : على الماء ، فإن العرب إذا التقت في مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف احداهما استثقالاً للتضعيف ، لأن مابقي دليلٌ على ما حذف ، يقولون « علماءِ بنو فلان » كما قال الفرزدق :

وما سُبق القيسيُ من ضعف حيلةٍ ولكن طفت علْماء قلفة خالد

وكذلك كلُ اسمٍ من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك « بنو » لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلانٌ من « بلحرث » و « بلعنبر » و « بلهجيمِ » .

وقال آخر من الخوارج :

يرى من جاء ينظر من دجيلٍ شيوخ الازد طافيةً لحاها

وقال رجلٌ منهم :

شمت ابن بدرٍ والحوادث جمةٌ والحائرون بنافع بن الازرق

والموت حتمٌ لامحالة واقعٌ من لايصبّحه نهاراً يطرق

فلئن أميرَ المؤمنين أصابه ريب المنون فمن يصبه يغلق

نصب بعد « إن » لان حرف الجزاء للفعل ، فإنما أراد : فلئن أصاب أمير المؤمنين ، فلما حذف هذا الفعل وأضمر ، ذكر « أصابه » ليدل عليه ، ومثله قول النمر بن تولبٍ :

لا تجزعي انْ منفساً أهلكته وإذا هلكتُ فعند ذلك فاجزعي

وقال ذو الرمة :

اذا ابن أبي موسى بلالاً بلغتِه فقامَ بفأسٍ بين وصليك جازرُ

لان « اذا » لا يليها الا الفعل ، وهي به أولى .

هذا باب « فُعلٍ »

اعلم أن كل اسم على مثال « فعلٍ » فهو مصروف في المعرفة والنكرة ، إذا كان اسماً أصلياً أو نعتاً ، فالأسماء نحو : صردٍ ونغرٍ وجُعلٍ ، وكذلك إن كان جمعاً ، نحو : ظلمٍ وغرفٍ . وإن سمّيت بشيءٍ من هذا رجلاً انصرف في المعرفة والنكرة ، وأما النعت فنحو رجلٍ حطمٍ ، كما قال :

• قد لفها الليلُ بسوّاقٍ حطم •

وكذلك مالٌ لبدٌ ، وهو الكثير ، من قوله جلّ جلاله : (أهلكتُ مالاً لبداً) .

فإن كان الاسم على « فُعَلَ » معدولاً عن « فاعلٍ » لم ينصرف إذا كان اسمَ رجلٍ في المعرفة ، وينصرف في النكرة ، وذلك نحو : عمرَ وقثمَ ، لأنه معدول عن عامرٍ ، وهو الاسم الجاري على الفعل ، فهذا مما معرفته قبل نكرته ،

فإذا أُريد به منهب المعرفة جاز أن تبنيه في النداء من كل فعلٍ (فُعَلَ) ، لأن المنادى مشار إليـه ، وذلك قولك : يافسق ، وياخبث ، تريدُ : يافاسقُ ويا خبيثُ .

وإنما قالت « بيدي ملحادة غدر » في غير النداء للضرورة ، فنقلته معرفة من النداء ، ثم جعلتـه نكرةً لخروجه عن الاشارة ، فنعتت به « ملحادةً » كما قال الحطيئة :

أجوّل ما أجوّل ثم آوي ... إلى بيتٍ قعيـــدته لَـكاع

وهـذا لايقـع إلا في النداء ، ولكن للشاعر نقله نكرةً ونقله معرفةً ، على حد ما كان له في النداء . فيلحق قولها « غدرٌ » بقوله رجلٌ حطمٌ ، ومالٌ لبدٌ ، وما أشبهه . و « فعال » في المؤنث بمنزلة « فُعَل » في المذكر ، ولو سميت رجلًا « حطماً » لصرفته ، من قولك : هذا سائقٌ حطمٌ ، لأنه قد وقع نكرةً غير معدولٍ ، فهو في النعوت بمنزلة « صردٍ » في الأسماء .

هذا باب النسب إلى المضاف

اعلم أنك إذا نسبت إلى علمٍ مضافٍ فالوجه أن تنسب إلى الاسم الأول ، وذلك قولك في عبد القيس « عبديٌ » وكذلك في عبد الله بن دارمٍ . فإن كان الاسم الثاني أشهرَ من الأول جاز النسب إليه ، لئلا يقع في النسب التباس من اسم باسمٍ ، وذلك قولك في النسب إلى عبد مناف « منافيٌ » وإلى أبي بكر بن كلابٍ « بكريٌ » . وقد يجوز ، وهو قليل ، أن تبنيَ له من الاسمين اسماً على مثال الأربعة لينتظم النسب ، وذلك قولك في النسب إلى عبد الدار بن قصيٍ « عبدريٌ » وفي النسب إلى عبد القيس « عبقسيٌ » .

فإن كان المضاف غير علمٍ فالنسب إلى الثاني على كل حالٍ ، وذلك قولك في النسب إلى ابن الزبير « زبيريٌ » لأن ابن الزبير إنما صار معرفةً بالزُبير ،

وكذلك النسب إلى ابن رألان « رألانيٌّ » . فلذلك قالوا في النسب إلى ابن الأزرق « أزرقيٌّ » وإلى أبي بيهس « بيهسيٌّ » .

فأما قولهم « صفريٌّ » فإنما أرادوا الصفر الألوان ، فنسبوا إلى الجماعة ، وحق الجماعة إذا نسب إليها أن يقع النسب إلى واحدها ، كقولك « مهلبيٌّ » و « مسمعيٌّ » ولكن جعلوا « صفراً » اسماً للجماعة ، ثم نسبوا إليه ، ولم يقولوا « أصفريٌّ » فينسب إلى واحدها ، وإنما كان ذلك لأنهم جعلوا الصفر اسماً للجماعة ، كما تسمى القبيلة بالاسم الواحد ، ألا ترى أن النسب الى الأنصار « أنصاريٌّ » لأنه كان علماً للقبيلة ، وكذلك « مدائنيٌّ » . وتقول في النسب الى الأبناء من بني سعد « أبناويٌّ » لأنه اسمٌ للجماعة .

فأما قولهم « الأزارقةُ » فهذا بابٌ من النسب آخرُ ، وهو أن يسمى كل واحدٍ منهم باسم الأب ، اذا كانوا اليه ينسبون ، ونظيره « المهالبةُ » و « المسامعةُ » و « المناذرةُ » . ويقولون : جاءني النميرون والاشعرون ، جعل كل واحدٍ منهم نميراً وأشعر ، فهذا يتصل في القبائل على ماذكرت لك .

وقد تنسب الجماعة الى الواحد على رأيٍ أو دين ، فيكون له مثل نسب الولادة ، كما قالوا « أزرقيٌّ » لمن كان على رأي ابن الازرق ، كما تقول تميميٌّ وقيسيٌّ لمن ولده تميمٌ وقيسٌ ، ومن قرأ (سلامٌ على إلياسين) فإنما يريد إلياس عليه السلام ومن كان على دينه ، كما قال :

قدني من نصر الخبيبين قدِ

يريدُ ابا خبيبٍ ومن معه .

وقد يجتمع الرجل مع الرجل في التثنية إذا كان مجازهما واحداً في أكثر الأمر على لفظ أحدهما ، فمن ذلك قولهُم « العمَران » لأبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما ، ومن ذلك قولهم « الخبيبانِ » لعبد الله ومصعب ، وقد مضى تفسيره .

عاد القول في الخوارج

قال : والازارقةُ لاتكفرُ أحداً من أهل مقالتها في دار الهجرة إلا القاتلَ رجلًا مسلماً ، فإنهم يقولون : المسلمُ حجةُ الله ، والقاتل قصَد لقطع الحجة .

ويروى أن نافعاً مرّ بمالك بن مسمعٍ في الحرب التي كانت بين الأزد و ربيعة وبني تميمٍ ، ونافعٌ متقلدٌ سيفاً ، فقام إليه مالكٌ فضرب بيده إلى حمالة سيفه وقال : ألا تنصرنا في حربنا هذه ؟ ! فقال : لايحل لي ، قال : فما بالُ مؤمني بني تميمٍ ينصرون كفارهم في هذه الحرب ؟ ! فأمسكَ عنه ، وخرج بعد ذلك بأيامٍ إلى الأهواز ، فلما قتلَ من قتلَ ممن بجازر من الخوارج في أيام ابن الماحوز كره ببّة القتال ، وأقام حارثه بن بدر الغداني بإزاء الخوارج ، يناوشهم على غير ولاية ، وكان يقولُ : ماعذرنا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم ؟ فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبرونه بقعود ببّة ، ويسألونه أن يولي والياً ، فكتب إلى أنسٍ بن مالك أن يصلي بالناس ، فصلى بهم أربعين يوماً ، و كتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر فولاه البصرة ، فلقيه الكتابُ وهو يريد الحج ، وهو في بعض الطريق ، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقه ، فخرج إليهم في اثنى عشر ألفاً ، ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعبيدُ الله الماحوز في الخوارج بسوق الأهواز ، فلما عبروا إليهم دُجيلًا نهضَ إليهم الخوارج ، وذلك قبيل الظُّهر ، فقال عثمانُ بن عبيد الله لحارثة بن بدرٍ : أمَا الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة (بنُ بدرٍ) : حسبك بهؤلاء ، فقال : لاجرم واللهِ لا أتغدّى حتى أناجزهم ! فقـــال له حارثة بنُ بدرٍ : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسُّفِ ، فأبق على نفسك وجندك ، فقـــال : أبيتم يا أهل العراق إلا جُبناً ! وأنت يا حارثة ! ماعلمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم ! يعرّض له بالشرابِ ! فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابتِ الشمسُ فأجلتِ الحرب عنه قتيلًا ، وانهزم الناسُ ، وأخذ حارثـــة

الراية ، وصاح بالناسِ : أنا حارثة بن بدرٍ ، فثاب إليه قومه ، فعبر بهم دجيلًا ، وبلغ فلُّ عثمان البصرة ، وخاف الناسُ الخوارج خوفاً شديداً ، وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد الله ، وولى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، المعروف بالقباعِ ، أحد بني مخزومٍ ، وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعةَ المخزوميِّ الشاعر ، فقدم البصرة ، فكتب إليه حارثة بن بدرٍ يسأله الولاية والمدد ، فأراد أن يوليهُ ، فقال له رجلٌ من بكر بن وائلٍ : إن حارثة ليس بذاك ، إنما هو صاحبُ شراب ، وفيه يقولُ رجلٌ من قومه :

ألم تر أنَّ حارثة بن بدرٍ ... يُصلي وهو أكفرُ من حمار
ألم تر أنَّ للفتيان حظاً ... وحظُّك في البغايا والقِمارِ

فكتب إليه القباعُ : تكفى حربهم إن شاء الله . فأقام حارثة يدافعهم ، فقال شاعرٌ من بني تميمٍ يذكر عثمان بن عبيد الله بن معمرٍ ومسلم بن عبيسٍ وحارثة بن بدرٍ :

مضى ابنُ عُبيسٍ صابراً غير عاجزٍ ... وأعقبنا هذا الحجازيُّ عثمانُ
فأرعد من قبلِ اللقاء ابن معمرٍ ... وأبرق والبرقُ اليمانيُّ خوانُ
فضحْتَ قريشاً غثها وسمينها ... وقيل بنو تيم بنُ مرة عُزلانُ
فلولا ابن بدرٍ للعراقين لم يقم ... بما قام فيـه للعراقين إنسان
إذا قيل من حامي الحقيقة أومأت ... إليـه معدٌّ بالأنوفِ وقحطان

* * *

قوله « فأرعد » زعم الأصمعيُّ أنه خطأ ، وأن الكميت أخطأ في قوله :

أرعدْ وأبرقْ يايزيـدُ فما وعيدُك لي بضائر

وزعم أن هذا البيت الذي يروى لمهلهلٍ مصنوعٌ محدثٌ ، وهو قوله :

أنبضُوا معجس القسيِّ وأبرقـ ... ـنا كما توعد الفحول الفحولا

وأنه لا يقالُ إلا « رعد وبرق » إذا أوعد وتهدد ! وهو « يرعدُ ويبرق » وكذا يقالُ « رعدت السماءُ وبرقت » و « أرعدنا نحن وأبرقنا » إذا دخلنا في الرعدِ والبرقِ ، قال الشاعرُ :

• فقلْ لأبي قابوس ماشئت فارعدِ •

وروى غيرُ الأصمعيّ « أرعد وأبرق » على ضعفٍ .

وقوله « والبرق اليمانيُّ خوانُ » يريدُ : والبرقُ اليمانيُّ يخونُ . وأجودُ النَّسب إلى اليمن « يمنيٌّ » ويجوزُ « يمانٍ » بتخفيف الياء ، وهو حسنٌ ، وهو في أكثر الكلامِ ، تكونُ الألفُ عوضاً من إحدى الياءين ، ويجوز « يمانيٌّ » فاعلم ، تكونُ الألفُ زائدةً وتشددُ الياءُ ، قال العبَّاسُ بن عبد المطلب :

ضربناهم ضرب الاحامس غدوةً بكلِّ يمانيٍّ إذا هزَّ صمَّماً

* * *

ثم إنَّ حارثة لما تفرق الناسُ عنه أقام بنهر تيرى ، فعبَرتْ إليه الخوارجُ ، فهرب وأصحابه يركضُ ، حتى أتى دُجيلًا ، فجلس في سفينةٍ ، واتَّبعه جماعةٌ من أصحابه ، فكانوا معه ، وأتاه رجلٌ من بني تميمٍ وعليه سلاحه ، والخوارجُ وراءه وقد توسَّط حارثةُ ، فصاح به : يا حارثَ ! ليس مثلي ضُيِّع ، فقال للملاح : قرِّبْ : فقرب إلى جرفٍ ، ولا فرضة هناك ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساختْ بالقوم جميعاً . وأقام ابن الماحوز يجبي كورَ الأهواز ثلاثة أشهر ، ثم وجه الزبير بن علي نحو البصرة فضُج الناس إلى الاحنف ، فأتى القبُاع فقال : أصلح اللهُ الأمير ، إن هذا العدوَّ قد غلبنا على سوادنا وفيْئنا ، فلم يَبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً ، قال : فسموا رجلًا ، فقال الأحنفُ : الرأيُ لايخيل ، ما أرى لها إلا المهلب بن أبي صفرة ، فقال : أوهذا رأيُ جميعِ أهل البصرة ؟ اجتمعوا إليَّ في غدٍ ، وجاء الزبيرُ حتى نزل الفراتَ ، وعقدَ الجسرَ ليعبر إلى ناحية البصرة ، فخرج أكثرُ أهل

البصرة إليه ، وقد اجتمع للخوارج أهلُ الأهواز وكوَرها ، رغبةً ورهبةً ، فأتاه البصريون في السُّفن وعلى الدوابِّ ورجّالةً ، فاسودَّت بهم الأرضُ ، فقال الزبيرُ لما رآهم : أبى قومنا إلا كفراً ، فقطعوا الجسرَ وأقام الخوارجُ بالفراتِ بإزائهم ، واجتمع الناسُ عند القباع ، وخافوا الخوارجَ خوفاً شديداً ، وكانوا ثلاث فرقٍ ، فسمى قومٌ المهلبَ ، وسمى قومٌ مالكَ بن مسمعٍ ، وسمى قومٌ زيادَ بن عمرو بن الأشرف العتكي ، فصرفهم ، ثم اختبر ما عندَ مالك بن مسمعٍ وزياد ، فوجدهما متثاقلين عن ذاك ، وعاد إليه من أشار بهما وقالوا : قد رجعنا عن رأينا ، ما نرى لها إلا المهلبَ ، فوجه الحرثُ إليه فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيدٍ ! قد ترى ما رهقَنا من هذا العدوّ ، وقد اجتمع أهل مصرك عليك ، وقال الأحنفُ : يا أبا سعيد ! إنّا والله ما آثرناك بها ولكنا لم نرَ من يقومُ لها مقامك ، فقال له الحرثُ — وأومأ إلى الأحنفِ — : إن هذا الشيخ لم يسمّك إلا إيثاراً للدّين ، وكلُّ منْ في مصرك مادٌّ عينهُ إليك ، راجٍ أن يكشفَ اللهُ عز وجل هذه الغمّة بك ، فقال المهلبُ : لاحول ولا قوة إلا بالله ، إني عند نفسي لدون ماوصفتم ، ولستُ آبياً مادعوتم إليه على شروطٍ أشترطها ، قال الأحنفُ : قل ، قال : على أنْ أنتخب من أحببتُ ، قال : ذاك لك ، قال : ولي إمرةُ كلِّ بلد أغلبُ عليه ، قال : وذاك لك ، قال : ولي فيءُ كلِّ بلد أظفرُ به ، قال الأحنفُ : ليس ذاك لكَ ولا لنا ، إنما هو فيءُ المسلمين ، فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوّهم ، ولكن لك أن تُعطي أصحابك من فيءِ كلِّ بلدٍ تغلبُ عليه ماشئت ، وتنفق منه ما شئت على محاربة عدوك ، فما فضل عنكم كان للمسلمين ، فقال المهلبُ : فمن لي بذلك ؟ قال الأحنفُ : نحن وأميرُك وجماعة أهل مصرك ، قال : قد قبلتُ ، فكتبوا بذلك كتاباً ووضع على يدي الصلْت بن حُريث بن جابرٍ الحنفي ، وانتخبَ المهلبُ من جميع الأخماس ، فبلغت نخبتهُ اثني عشر ألفاً ، ونظروا ما في بيت المال ، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلب إلى التّجار فقال : إنّ تجارتكم مذ حولٍ قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس

عنكم ، فهلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم إن شاء الله حقوقكم ، فتاجروه ، فأخذ من المال ما يُصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرانات المحشوة بالصُّوف ، ثم نهض وأكثرُ أصحابه رجالةٌ ، حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفنٍ فأحضرتْ وأُصلحت ، فما ارتفع النهارُ حتى فُرغ منها ، ثم أمر الناس بالعبور إلى الفرات ، وأمَّر عليهم ابنهُ المغيرةُ ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشاطىء خاضت إليهم الخوارج ، فحاربهم المغيرة ، ونضحهم بالسهام حتى تنحوا ، فصار هو وأصحابه على الشاطىء ، فحاربوهم فكشفوهم وشغلوهم ، حتى عقد المهلب الجسر ، وعبرَ والخوارجُ منهزمون ، فنهى الناسَ عن اتباعهم . ففي ذلك يقول شاعرٌ من الأزد :

إنَّ العراقَ وأهلهُ لم يَخبروا ... مثلَ المهلبِ في الحروب فسلّموا
أمضى وأيمنَ في اللقاءِ نقيبةً ... وأقلَّ تهليلًا إذا ما أحجموا

« التهليلُ » التكذيبُ والانهزام .

وأبلى مع المغيرة يومئذٍ عطيَّةُ بن عمرو العنبريُّ ، وكان من فرسان بني تميمٍ وشجعانهم ، فقال عطيةُ :

يُدعى رجالٌ للعطاءِ وإنما ... يُدعى عطيَّةُ للطعان الأجرد

وقال الشاعرُ :

وما فارسٌ إلا عطيةُ فوقه ... إذا الحربُ أبدت عن نواجذها الفما
بهِ هزَمَ اللهُ الازارقَ بعدَما ... أباحوا من المصرَين حِلاً ومحرَما

* * *

فأقام المهلبُ أربعين يوماً يجبي الخراجَ بكورَ دجلة ، والخوارجُ بنهر تيرى ، والزبيرُ بن عليٍّ منفردٌ بعسكره عن عسكر ابن الماحوزِ ، فقضى المهلب التجار وأعطى أصحابه ، فأسرع اليه الناسُ رغبةً في مجاهدة الخوارج ، وللما في الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمدُ بن واسعٍ الأزديُّ وعبدُ الله بن رباح ومعاوية ابن قُرّة المزني ، وكان يقول — يعني معاوية — : لو جاء الدَّيلم من هٰهنا والحرورية

من هٰهنا ، لحاربْت الحرورية َ، وأبو عِمران الجوني ، وكان يقولُ : كان كعبٌ يقولُ : قتيلُ الحرورية يفضلُ قتيلَ غيرِهم بعشرة أنوارٍ ، ثم نهضَ المهلبُ إليهم إلى نهر تيرى ، فتَنحوا عنه إلى الأهواز، وأقام المهلبُ يجبي ما حواليهِ من الكوَر ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج ، فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم ، فإذا حشوةٌ ما بين قصّارٍ وصبّاغٍ وداعرٍ وحدادٍ ، فخطبَ المهلبُ الناس ، فذَكر من هُناك ، وقال للناس : أمِثلُ هؤلاءِ يغلبونكم على فيئكم ؟! فلم يزَلْ مقيماً حتى فهمهم وأحكمَ أمرهُ وقوّى أصحابه ، وكثرتِ الفرسانُ في عسكره ، وتتامَّ إليه زهاءُ عشرينَ ألفاً ، ثم مضى يؤُمُّ سوق الأهواز ، فاستخلف أخاه المُعارك بن أبي صُفرة على نهر تيرى ، وفي مقدمتِه المغيرةُ بن المهلب ، حتى قاربهم المغيرةُ فناوشوه ، فانكشفَ عنه بعض أصحابه ، وثبت المغيرة بقيّة يومهِ وليلته ، يوقد النيران ، ثم غاداهم القتالَ ، فإذا القوم قد أوقدوا النيران في ثقلة متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الاهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل الخيلِ خيلِ المهلب ، فأقام بسوق الاهواز ، وكتب بذلك إلى الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة كتاباً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنا منذ خرجنا نؤمُّ هذا العدو في نعمٍ من الله متصلةٍ علينا ، ونقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نُقدم ويحجمون ، ونحلُّ ويرتحلون ، إلى أن حللنا سوق الاهواز ، والحمد لله ربّ العالمين ، الذي من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

فكتب إليه الحرثُ : هنيئاً لك أخا الأزْد الشّرفُ في الدنيا ، والذُخر في الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلبُ لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونهُ يعرفُ اسمي واسمَ أبي وكنيتي ؟!

وكان المهلبُ : يبثُّ الأحراسَ في الأمن ، كما يبثُّهم في الخوف ، ويذْكي العيون في الأمصار ، كما يذكيها في الصّحارى ، ويأمرُ أصحابه بالتحرّز ، ويخوفهم

البيات ، وإن بعد منهم العدوُّ ، ويقولُ : احذروا أن تُكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هَزمنا وغلبنا ، فإن القومَ خائفون وجلون ، والضرورةُ تفتحُ بابَ الحيلةِ ، ثم قام فيهم خطيباً فقال :

يا أيها الناس ! إنكم قد عرفتم مذهبَ هؤلاء الخوارج ، وأنهم إنْ قدروا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ما قاتلَ عليه أولهم عليُّ ابن أبي طالبٍ صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابرُ المحتسبُ مسلمُ بن عُبيسٍ ، والعجِل المفرِّطُ عثمانُ بن عبيدِ الله ، والمعصيُّ المخالفُ حارثةُ بن بدرٍ ، فقُتلوا جميعاً وقَتلوا ، فالقومُ بجدٍ وحدٍّ ، فإنما هم مَهنتكم وعبيدُكم ، وعارٌ عليكم ونقصٌ في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ، ويطؤوا حريمكم .

ثم سار يريدُهم ، وهم بمناذر الصُّغرى ، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج رجلًا يقال له واقدٌ ، مولى لآل أبي صفرة من سبي الجاهلية ، في خمسين رجلًا ، فيهم صالح بن مخراقٍ ، إلى نهر تيرى ، وبها المُعاركُ بن أبي صفُرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنمى الخبرُ إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى وقد خرج واقدٌ منها ، فاستنزله ودفنه ، وسكّن الناس ، واستخلف بها ، ورجع إلى أبيه وقد حل بسولاف ، والخوارجُ بها ، فواقعهم ، وجعل على بني تميمٍ الحريش بن هلالٍ ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس وهو على فرسٍ له صفراء ، فجعل يأتي الميمنة والميسرة والقلب ، فيحضُّ الناس ويهونُ أمر الخوارج ، ويختال بين الصفين ، فقال رجلٌ من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ! هل لكم في فتكةٍ فيها أرْيحيةٌ ؟ فحمل جماعةٌ منهم على الإسكافِ ، فقاتلهم وحده فارساً ، ثم كبا به فرسه ، فقاتلهم راجلًا ، قائماً وباركا ، ثم كثرت به الجراحات ، فذبَّب بسيفه ، وجعل يحثو التراب في وجوههم ، والمهلب غيرُ حاضرٍ ، ثم قتل رحمه الله ، وحضر المهلب فأُخبر ، فقال للحريش وعطية العنبريّ : أأسلمتما سيد أهل العسكر ، لم تُعيناه ولم تستنقذاهُ ، حسداً له ، لأنه رجل من الموالي ؟ ! ووبخهما ، وحمل

رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه وقتله، ومال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتلوا سبعين رجلًا ، وثبت المهلبُ ، وأبلى المغيرةُ يومئذ وعُرف مكانه . ويقال : حاص المهلبُ يومئذٍ حيصةً . وتقول الأزدُ : بل كان يرد المنهزمة ويحمي أدبارهم ، فقال رجلٌ من بني منقر بن عُبيد بن الحرث بن كعبٍ بن سعد بن زيد مناة بن تميمٍ :

بسولافٍ أضعتَ دماء قومي ... وطرتَ على مُواشكةٍ دَرور

قوله « مُواشكةٍ » يريد مسريعة . ويقال : نحنُ على وشك رحيلٍ . ويقال : ذميلٌ مواشكٌ ، إذا كان مسريعاً . قال ذو الرُمة :

إذا ما رمينا رميةً في مفازةٍ ... عراقيبها بالشَّيظميِّ المواشكِ

و « درُورٌ » فَعولٌ من درَّ الشَّيءُ : إذا تتابع .

وقال رجلٌ من بني تميمٍ آخرُ :

تبعنا الأعور الكذَّاب طوْعاً ... يُزجِّي كلُّ أربعة حمارا

فياندمي على تركي عطائي ... مُعاينةً وأطلبُهُ ضمارا

إذا الرَّحمٰنُ يسَّر لي قفولاً ... فحرَّق في قُرى سولاف نارا

قوله : « الأعور الكذَّاب » يعني المهلب ، ويقال عارت عينُه بسهمٍ كان أصابها . وقال « الكذَّاب » لأن المهلب كان فقيهاً ، وكان يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله : « كل كذبٍ يكتبُ كذباً الا ثلاثة : الكذب في الصُّلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته يعدها ، وكذبُ الرجل في الحرب يتوعدُ ويتهددُ » ، وجاء عنه ﷺ : « إنما أنت رجلٌ ، فخذِّل عنا ، فإنما الحربُ خدعةٌ » . وقال عليه السلام في حرب الخندق لسعد بن عبادة وسعد بن معاذٍ ، وهما سيِّدا الحيين الخزرجِ والأوسِ : « ائتيا بني قريظة ، فان كانوا على العهد فأعلنا بذلك ، وان كانوا قد نقضوا ما بيننا فالحنا لي لحناً أعرفه ، ولا تفتّا في أعضادِ المسلمين ، فرجعا بغدر القومِ فقالا : يارسول الله عضَلٌ والقارَة ، قال :

فقال رسولُ الله ﷺ للمسلمين : « ابشروا فإن الأمر ما تحبُّون » . قال الأخفشُ : سألت المبرد عن قولها « عضلٌ والقارة » فقال : هذان حيّان كانا في نهاية العداوة لرسول الله ﷺ ، فأرادا أنهم في الانحراف عنه والغدرِ به كهاتين القبيلتين .

قال أبو العباس : فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ويضعّف من أمر الخوارج ، فكان حيٌّ من الأزد يقال لهم النّدبُ اذا رأوا المهلب رائحاً اليهم قالوا : قد راح المهلب ليكذب : وفيه يقول رجلٌ منهم :

أنت الفتى كل الفتى   لو كنت تصْدقُ ما تقولُ

★ ★ ★

فبات المهلب في ألفين ، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار في أربعة آلاف ، فخطب أصحابَه فقال : والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم الا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع ، فإن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله فسيروا إلى عدوكم على بركة الله . فقام إليه الحريش بن هلالٍ فقال : أنشدك الله — أيها الأمير — أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جراحاً وقد أثخنتهم هذه الجولة ، فقبل منه ، ومضى المهلبُ في عشرةٍ فأشرف على عسكر الخوارج ، فلم يرِ منهم أحداً يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا الموضع ، فارتحل ، فعبر دُجيلًا ، وصار إلى عاقولٍ لا يؤتى إلا من وجهٍ واحد ، فأقام به ، واستراح الناس ثلاثاً ، وقال ابن قيسِ الرقيّات :

ألا طرقَت من آل بيبة طارقهْ   على أنها معشوقة الدّلّ عاشقه
تبيت وأرضُ السُّوس بيني وبينها   وسولاف رستاقٌ حمته الأزارقة
إذا نحن شئنا صادفتنا عصابةٌ   حروريةٌ أضحت من الدّين مارقه
أجازت إلينا العسكرين كليهما   فباتت لنا دون اللحاف معانقه

وقد ذكرنا « الضِّمار » ومعناه الغائب ، وأصله من قولك « أضمرت الشيء » أي أخفيته عنك ، ويقال : مالٌ عينٌ ، للحاضر ، ومالٌ ضمارٌ ، للغائب ، قال الأعشى :

ومن لا تضيعُ له ذمةٌ فيجعلها بعد عينٍ ضماراً

وقال أيضاً :

ترانا إذا أضمرتك البلا دُ نُجفى وتقطع منّا الرّحم

والفعل من هذا « أضمر يُضمر » والمفعول به « مضمَرٌ » والفاعل « مضمِرٌ » و « الضِّمار » اسمٌ للفعل في معنى الإضمار . وأسماء الأفعالِ تشركُ المصادر في معانيها ، تقول : أعطيته عطاءً ، فيشرك العطاء الإعطاء في معناه ، ويسمى به المفعول . وتقول : كلمته تكليماً وكلاماً ، في معناه ، والمصدر يُنعت به الفاعل في قولك : رجلٌ عدلٌ ، ورجلٌ كرمٌ ، ورجلٌ نوْمٌ ، ويومٌ غمٌّ وغيمٌ ، وينعت به المفعول في قولك : رجلٌ رضىً ، وهـذا درهمٌ ضرب الأمير ، وجاءني الخلق ، تعني المخلوقين .

وقال رجلٌ من الخوارج في ذلك اليومِ :

وكائنْ تركنا يوم سولافَ منهم أسارَى وقتلى في الجحيم مَصيرها

قوله « وكائنٌ » معناه : كم ، وأصله كاف التشبيه دخلت على « أيٍّ » فصارتا بمنزلة كم ، ونظير ذلك : له كذا وكذا درهماً ، إنما هي « ذا » دخلت عليها الكاف ، والمعنى : له كهذا العدد من الدراهم . فإذا قال : له كذا كذا درهماً ، فهو كناية عن أحد عشر درهماً إلى تسعة عشر ، لأنه ضمّ العددين ، فإذا قال : كذا وكذا ، فهو كنايةٌ عن أحدٍ وعشرين درهماً إلى ما جاز فيه العطف بعده . ولكن كثرت « كأيٍّ » فخفّفتْ ، والتثقيل الأصل ، قال الله تعالى : (وكأيٍّ من قريةٍ أمليت لها وهي ظالمةٌ)،(وكأيٍّ من نبيٍّ قاتل معه ربّيُّون كثيرٌ) وقد قرىء بالتخفيف ، كما قال الشاعر :

وكائن رددنا عنكم من مدجّج   يجيء أمام الألف يردي مقنّعاً

وقال آخر :

وكائن ترى يوم الغميصاء من فتىً   أصيب ولم يُجرح وقد كان جارحا

قال أبو العباس : وهذا أكثر على ألسنتهم ، لطلب التخفيف ، وذلك الأصل ، وبعض العرب يقلب فيقول « كيءٍ يافتى » فيؤخر الهمزة لكثرة الاستعمال ، قال الشاعر :

وكيءٍ في بني دودان منهمُ   غداةَ الرَّوع معروفاً كَميُّ

* * *

قال أبو العباس : فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيامٍ ، ثم ارتحل والخوارج بسلّى وسلّبرى.قال الاخفش « سلى »و« سليرى » بفتح السين فيها ، موضعان بالاهواز ، « وسلى » بكسر السين موضعٌ بالبادية ، وهكذا ينشدُ هذا البيتُ :

كأنَّ غديرهم بجنوب سِلّى   نعامٌ قاقَ في بلدٍ قفار

فنزل قريباً منهم ، فقال ابنُ الماحوز لاصحابه : ما تنتظرون بعدُوِّكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدّهم ؟ فقال له واقدٌ مولى أبي صُفرة : يا أمير المؤمنين ! إنما تفرق عنهم أهلُ الضّعف والجبن ، وبقي أهل النجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً هنيئاً ، لاني أراهم لايصابون حتى يصيبوا ، فإن غَلبوا ذهب الدين ، فقال أصحابه : نافق واقدٌ ! فقال ابن الماحوز : لاتعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم . ثم توجه الزبير بن عليّ إلى عسكر المهلب لينظر ما حالهم ، فأتاهم في مائتين ، فحزرهم ورجع ، وأمر المهلب أصحابه بالتحارس ، حتى إذا أصبح ركِب إليهم على تعبيةٍ صحيحة ، فالتقوا بسلّى وسلّبرى فتصافّوا ، فخرج من الخوارج مائةُ فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفين واتكئوا عليها ، وأخرج إليهم المهلب عِدادهم ، ففعلوا مثل مافعلوا ، لايريمون إلا لصلاةٍ حتى أمسوا ، فرجع كلٌّ قومٍ إلى معسكرهم ، ففعلوا هذا ثلاثة أيامٍ .

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث ، فحملَ عليهم هؤلاء الفرسانُ

يجولون ساعة ، ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ، كما صنعوا يوم سولاف ، فضعضعوا الناس ، وفُقد المهلب ، وثبت المغيرة في جمعٍ أكثرهم أهل عمان ، ثم نجم المهلب في مائة فارس ، وقد انغمست كفّاه في الدم ، وعلى رأسه قلنسوةٌ مربّعةٌ فوق المغفر محشوةٌ قزّاً ، وقد تمزقت ، وإنّ حشوها ليتطايرُ ، وهو يلهث ، وذلك في وقت الظُّهر ، فلم يزل يحاربهم الى الليل ، حتى كثر القتل في الفريقين . فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجّه بالامس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم بن الازد ، يردُّ المنهزمين ، فمر به عامر بن مسمعٍ فرده ، فقال : إن الامير أذن لي ، فبعث إلى المهلب فأعلمه ، فقال : دعه ، فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف . وقد تفرق أكثر الناس ، فغاداهم المهلب في ثلاثة آلاف ، وقال لاصحابه : ما بكم من قلةٍ ، أيعجز أحدكم أن يرمي برمحه ثم يتقدم فيأخذه ؟ ففعل ذلك رجلٌ من كندة يقال له عياشٌ وقال المهلب لاصحابه : أعدُّوا مخالي فيها حجارةٌ وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصدُّ الفارس وتصرع الراجلَ ، ففعلوا ، ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصبر ، ويطمعهم في العدوّ ، ففعلَ ، حتى مر ببني العدويّة ، من بني مالك بن حنظلة ، فضربوه ، فدعا المهلب بسيّدهم ، وهو معاوية بن عمرٍو ، فجعل يركله برجله ، وهذا معروفٌ في الازد ، فقال له أصلح الله الامير ، أعفني من أم كيسان ، والرُّكبة تسميها الأزد « أمَّ كيسان » . ثم حمل المهلب وحملوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فجُهد الخوارج ، فنادى مناديهم : ألا إن المهلب قد قتلَ ، فركب المهلب برذوناً قصيراً أشهب ، وأقبل يركض بين الصفين ، وإن إحدى يديه لفي القباء وما يشعر بها ، وهو يصيح : أنا المهلب ، فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنُّوا أن أميرهم قد قتل ، وكلَّ الناس مع العصر ، فصاح المهلب بابنه المغيرة : تقدم ، ففعل ، وصاح بذكوان مولاه : قدّم رايتك ، ففعل ، فقال له رجلٌ من ولده : إنك تغرر بنفسك ، فذمره ، ثم صاح : يابني تميم !

أآمُرُكم فتعصونني ؟! فتقدم وتقدم الناس ، واجتلدوا أشد جِلادٍ ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحوز ، وانصرف الخوارج ، ولم يشعر المهلبُ بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوني رجلًا جلداً يطوفُ في القتلى ، فأشاروا عليه برجلٍ من جرمٍ ، وقالوا : إنّا لم نرَ رجلًا قطُّ أشد منه ، فطوّف ومعه النيران ، فجعل إذا مر بجريح من الخوارج قال : كافرٌ وربِّ الكعبة ، فأجهز عليه ، وإذا مر بجريحٍ من المسلمين أمر بسقيه وحمله .

وأقام المهلب في عسكره يأمرهم بالاحتراس ، حتى إذا كان نصف الليلِ وجه رجلًا من اليحمد - قال الأخفش : اليحمد من الأزد ، والخليلُ من بطن منهم يقال لهم الفراهيد ، والفرهودُ في الأصل الحملُ ، فإن نسبت إلى الحي قلت « فراهيديٌّ » وإن نسبت إلى الحُملان قلت « فرهوديٌّ » لاغيرُ - في عشرةٍ فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا القومُ قد تحملوا إلى أرّجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال : أنا لهمُ الساعةَ أشدُّ خوفاً ، فاحذروا البيات .

• • •

قال أبو العباس : ويروى عن شعبة بن الحجّاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً : إن هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ، فإن كان ذلك فاجعلوا شعاركم حَم لاينصرون ، فإن رسولَ الله ﷺ كان يأمرُ بها .

ويروى : أنه كان شعار أصحابِ علي بن أبي طالبٍ صلواتُ الله عليه .

فلما أصبح المهلب غدا على القتلى ، فأصاب ابن الماحوز فيهم ، ففي ذلك يقول رجلٌ من الخوارج :

بسلّىٰ وسلّيرى مصارعُ فتيةٍ ... كرام وجَرحى لم توسَّد خدودها

وقال آخرُ :

بسلىٰ وسليرىٰ مصارعُ فتيةٍ ... كرامٍ وعقرىٰ من كميتٍ ومن ورد

وقال رجلٌ من موالي المهلب : لقد صرعتُ يومئذٍ بحجرٍ واحدٍ ثلاثةً ، رميت به رجلًا فأصبت أصل أذنِهِ فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثاً .

وقال رجلٌ من الخوارج :

أتانا بأحجارٍ ليقتلَنا بها ... وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر

وقال رجلٌ من أصحاب المهلب في يوم سِلىً وسِليرى وقتل ابن الماحوز :

ويومَ سِلىً وسِليرى أحاط بهم ... منّا صواعق ما تبقي ولا تذر

حتى تركنا عُبيدَ الله مُنجدلاً ... كما تجدّل جِذعٌ مالَ منقعرُ

قال أبو العباسِ : تقولُ العربُ « صاعقةٌ وصواعِقُ » وهو مذهبُ أهل الحجازِ ، وبه نزل القرآنُ ، وبنو تميمٍ يقولون « صاقعةٌ وصواقِعُ » .

و « المنقعرُ » المنقلعُ من أصله . قال الله أصدقُ القائلينَ : (كأنهمْ أعجاز نخلٍ منقعرٍ) .

ويُروى : أن رجلًا من الخوارج يوم سلى حمل على رجلٍ من أصحاب المهلب فطعنه ، فلما خالطه الرمحُ صاح : ياأُمتاهْ ! فصاح به المهلب : لا كثرَ اللهُ بمثلك المسلمين ، فضحكَ الخارجيُّ وقال :

أمك خيرٌ لك مني صاحبا ... تسقيك محضاً وتعـل رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر الى الرماحِ قد تشاجرت في وجهه نكسَ على قربوس سرجه وحمل من تحتها فبراها بسيفه وأثر في أصحابها ، حتى تخرمت الميمنة من أجله . وكان أشدّ ما تكون الحرب أشدّ ما يكون تبسماً ، فكان المهلبُ يقولُ : ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشرى في وجهه .

وقال رجلٌ من الخوارج في هذا اليوم :

فإن تك قتلى يوم سلى تتابعت ... فكم غادرت أسيافنا من قُماقِمِ

غـداة نكر المشرفيةَ فيهمُ ... بسولاف يوم المـأزق المتلاحم

« المأزقُ » هو يوم تضايق الحرب . و « المتلاحمُ » نعت له . و « المشرفية » السيوف ، نسبت إلى المشارف من أرض الشامِ . وهو الموضع الملقب موتة الذي قُتل به جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

قال الأخفشُ : كان المبرّد لايهمز « مونة » . ولم أسمعها من علمائنا إلا بالهمزِ) .

* * *

قال أبو العباس : فكتب المهلب إلى الحرثِ بن عبد الله بن أبي ربيعة القباعِ :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنا لقينا الأزارقة المارقة ، بجدٍ وجدٍ ، فكانت في الناس جولةٌ ، ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر، بنياتٍ صادقةٍ ، وأبدان شدادٍ ، وسيوف حدادٍ ، فأعقب الله خير عاقبةٍ ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريّة رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتلَ اللهُ أميرهم ابن الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها ، والسلام .

فكتب إليه القباعُ :

قد قرأت كتابك يا أخا الأزدِ ، فرأيتك قد وهب اللهُ لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء اللهُ وأجرَها ، ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهادّ أركان المشركين ، وأخا السياسة وذا الرّياسة ، فاستدم الله بشكره ، يتمم عليك نعمهُ ، والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرؤا عليه السلام ، وقولوا له : أنا لك على ما فارقتُك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس في أضعافها كتاب الأحنف ، فلما لم يرَه قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملني إليك رسالةً ، وأبلغه ، فقال : هذه أحبُّ إلي من هذه الكتب .

* * *

واجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزُّبير بن عليٍ ، وهو من بني سليطِ ابن يربوعٍ ، من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً وضعفاً بيناً ،

فقال لهم : اجتمعوا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ، وهو على الكافرين عقوبةٌ وخزيٌ، وإن يصب منكم أمير المؤمنين فما صار إليه خيرٌ مما خلّفَ ، وقد أصبتم منهم مُسلمَ بن عبيسٍ ، وربيعاً الأجذم ، والحجاج بنَ بابٍ ، وحارثة بنَ بدرٍ ، وأشجيتمُ المهلبَ ، وقتلتم أخاهْ المعارك ، والله يقولُ لإخوانكم من المؤمنين : (إن يمسسكمْ قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله ، وتلك الأيامُ نداولها بين الناس) فيوم سلىْ كان لكم بلاءً وتمحيصاً ، ويوم سولاف كان لهم عقوبةً ونكالاً ، فلا تغلبن على الشكر في حينهِ ، والصبر في وقتـهِ ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحملَ لمحاربة المهلبِ ، فنفحهم المهلب نفحةً ، فرجعوا ، فأكمنَ للمهلب في غمضٍ من غموض الارض ، يقرب من عسكره ، مائة فارس ليغتالوه ، فسار المهلب يوماً يطوف بعسكره ويتفقد سوادَه ، فوقف على جبلٍ فقال : إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكمنت في سفحِ هذا الجبلِ كميناً ، فبعث عشرة فوارس ، فاطلعوا على المئة ، فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا ، وكسفتِ الشمس ، فصاحوا بهم : يا أعداء الله ! لو قامت القيامة لجددنا في جهادكم . ثم يئس الزبير من ناحية المهلّب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كر راجعاً إلى أرّجان . وقد جمع جموعاً ، وكان المهلب يقولُ : كأني بالزبير وقد جمع جموعاً ، فلا ترهبوهم فتَخبُثْ قلوبكم ، ولا تُغفلوا الاحتراس فيطمعوا فيكم . فجاؤوه من أرّجان فالفَوْهُ مستعداً آخذاً بأفواه الطُرُق ، فحاربوه ، فظهر عليهم ظهوراً بيّناً . ففي ذلك يقول رجلٌ من بني تميم ، أحسبه من بني رياح ابن يَربُوع :

سقى اللهُ المهلبَ كلَّ غيثٍ من الوَسميّ ينتحرُ انتحارا
فما وَهن المهلبُ يوم جاءتْ عوابسُ خيلهم تبغي الغوارا

وقال المهلبُ يومئذٍ : ماوقعتُ في أمر ضيّقٍ من الحرب إلا رأيتُ أمامي رجالاً من بني الهُجيم بن عمرو بن تميم يجالدون ، وكأنّ لحامم أذنابُ العقاعق . وكانوا صبروا معه في غير موطنٍ .

وقال رجل من بني تميم ، من بني عَبشمس بن سعدٍ :

ألا يا منْ لصبٍّ مستحَـــنٍّ قريح القلب قد صَحِب المزُونا
لمانَ على المهلب ما لقينا إذا ما راح مسروراً بَطينـــا
يجرُّ السّابريَّ ونحن شُعْثٌ كأنّ جلودنا كُسِيت طحينا

« المَزُونُ » عُمان ، وهو اسم من أسمائها . قال الكميت :

فأما الأزْدُ أزدُ ابي سعيدٍ فأكرهُ أن أسميها المزونا

وقال جريرٌ :

وأطفأتَ نيران المزون وأهلها وقد حاولوها فتنةً أن تُسعّرا

وحمل يومئذٍ الحريش بن هلال على قيس الإكاف ، وكان قيسٌ من أنجَد فرسان الخوارج ، فطعنه فدقّ صلبه ، وقال :

قيسُ الإكافِ غداة الرّوْع يعلمُني ثبْتَ المقام إذا لاقيتُ أقراني

• • •

وقد كان فلُّ المهلب يوم سِلّى وسلّيرى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أن المهلب أصيب ، فهمَّ أهل البصرة بالنقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابه بظفره ، فأقام الناس ، وتراجع من كان ذهب منهم ، فعند ذلك يقول الأحنفُ ابن قيسٍ : البصرة بصرة المهلب . وقدم رجلٌ من كِندة يقال له فلان بن أرْقم ، فنعى ابنَ عم له ، وقال : رأيتُ رجلاً من الخوارج وقد مكّن رمحه من صُلبه ، فقدم المَنعيُّ ، فقيل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم لما أحسستُ برمحه بين كتفيّ صحتُ به البقية ! فرفعه عني ، وتلا « بقيّةُ اللهُ خيرٌ لكم إنْ كنتم مُؤمنين ».

ووجّه المهلب بعقب هذه الوقعة رجلاً من الأزْد برأس عبيد الله بن بشير بن الماحوز إلى الحارث بن عبد الله بن ابي ربيعة القُباع ، فلما صار بكربُج دينارٍ لقيه حبيبٌ وعبد الملك وعليٌّ بنو بشير بن الماحوز ، فقالوا له : ما الخبر ؟ ولا يعرفهم ، فقال : قتل اللهُ المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معي ! فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس ، فلما وَلِيَ الحجّاج دخل عليه عليُّ بن بشير ، وكان وسيماً جسيماً ، فقال : من هذا ؟ فخُبِّر فقتله ، ووهب ابنَــه الأزهر وابنتــهُ لأهل الأزْديّ المقتول ، وكانت زينب بنتُ بشير لهم مُواصلةً ، فوهبوهما لها .

فلم يزل المهلّب يقاتلُ الخوارج في ولاية الحارث القُبــاع ، حتى عُزل الحارثُ ووُلّي مصعب بن الزبير ، فكتب إليه أن اقدمْ عليَّ واستخلف ابنك المغيرة ، ففعل ، فجمع الناس فقال لهم : إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمــة ، وابن كبيركم طاعةً وبِرّاً وتبجيلاً ، وأخو مثله مواساةً ومناصحةً ، فلتَحسُنْ له طاعتكم ، وليلن له جانبكم ، فوالله ماأردتُ صواباً قطُّ إلا سبقني إليه . ثم مضى الى مصعب ، وكتب مصعبٌ إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليتك ، فشمّر واتّزرْ وجدّ واجتهدْ .

ثم شخَص المصعب إلى المذار ، فقتل أحمر بن شُميطٍ ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار بن ابي عُبيدٍ . وقال للمهلب : أشرْ عليَّ برجلٍ أجعله بيني وبين عبد الملك . فقال له : أذْكرُ لك واحداً من ثلاثةٍ : محمد بن عُمير بن عُطاردٍ الدارميّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكي ، أو داوُود بن قَحْذَم ، فقال : أوَ تكفيني ؟ قال : أكفيك إن شاء الله ، فولاه الموصل ، فشخص المهلب إليها .

وصار مصعبٌ إلى البصرة ، فسأل : مَن يَستكفي أمر الخوارج ويفــد

إلى أخيه ، فشاور الناسَ ، فقال قومٌ : ولِّ عبيد الله بن ابي بكرة ، وقال قومٌ : ولِّ عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر ، وقال قومٌ : ليس لهم إلا المهلب فارْدُدْه إليهم .

وبلغت المشورة الخوارجَ ، فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطَرِيُّ بن الفُجاءة المازنيُّ : إنْ جاءكم عبيد الله بن ابي بكرة أتاكم سيدٌ سمحٌ جوادٌ كريمٌ مضيعٌ لعسكره ، وإنْ جاءكم عمر بن عبيد الله بن معمر أتاكم شجاعٌ بطلٌ فارس جادٌّ ، يقاتل لدينه ومُلكه ، وبطبيعةٍ لم أر مثلها لأحدٍ ، فقد شهدته في وقائع فما نودي في القوم لحربٍ إلا كان أول فارسٍ يطلُع حتى يشد على قِرنه فيضربه ، وإن رُدَّ المهلب فهو مَن قد عرفتموه : إن أخذتم بطرف ثوبٍ أخذ بطرفه الآخر ؛ يمدُّه إذا أرسلتموه ، ويرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم الا أن تبدؤوه ، إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المُبِرُّ ، والثعلب الروَّاغ ، والبلاء المقيم

فولى عليهم عمر بن عبيد الله ، وولاه فارس ، والخوارجُ بأرَّجان ، وعليهم الزبير بن عليٍ السَّليطي ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألح عليهم حتى أخرجهم عنها ، فألحقهم بأصبهان ، فلما بلغ المهلبَ أن مصعباً ولى عمر بن عبيد الله قال : رماهم بفارس العرب وفتاها .

فجمعوا له وأعدُّوا واستعدوا ، ثم أتوا سابور ، فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسَّان الأزدي : ان المهلب كان يُذْكي العيون ، ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم ، فقال له عمر : اسكتْ خلع الله قلبك ! أتراك تموتُ قبل أجلك ؟! فأقام هناك ، فلما كان ذات ليلةٍ بيَّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح فلم يظفروا منه بشيء ، فأقبل على مالك بن حسّان فقال : كيف رأيتَ ؟ قال : قد سلَّم الله عز وجل ، ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها ، فقال : أمَا إنكم لو

ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوتُ أن أنفي هذا العدو ، ولكنكم تقولون : قرشي حجازي بعيد الدار ، خيره لغيرنا ، فتقاتلون معي تعذيراً .

• • •

ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتكاثف الناس عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها ، ثم عبروا ، وتقدم ابنه عبيد الله بن عمر ، وأمه من بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعبٍ ، فقاتلهم حتى قُتل . فقال قطري : لا تقاتلوا عمر اليوم فإنه موتور . ولم يعلم عمر بقتل ابنه ، حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع ابنه النعمان بن عبّاد ؛ فصاح به : يا نعمانُ ! أين ابني ؟ فقال : احتسبه أيها الأمير ، فقد استُشْهد رحمه الله صابراً مقبلاً غير مدبر . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم حمل على الناس حملةً لم يُرَ مثلها . وحمل أصحابه بحملته فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج ، وحمل على قطريٍّ فضربه على جبينه ففلقه . وانهزمت الخوارجُ ، وانتهبها . فلما استقرُّوا ، قال لهم قطريٌّ : أمَا أشرتُ عليكم بالانصراف ؟ فجعلوه وجوههم حتى خرجوا من فارس .

وتلقّاهم في ذلك الوقت الفِزْر بن مهزم العبديُّ . فسألوه عن خبره ؟ وأرادوا قتله ! فأقبل على قطريٍّ فقال : إني مؤمنٌ مهاجرٌ ، فسأله عن أقاويلهم ؟ فأجاب اليها ، فخلّوْا عنه ، ففي ذلك يقول في كلمةٍ له :

وشدُّوا وَثاقي ثم ألجوْا خصومتي　　الى قطريٍّ ذي الجبين المفلّقِ
وحاججتُهم في دينهم وَحَجَجْتهم　　وما دينهم غيرُ الهوى والتخلقِ

ثم إنهم تراجعوا وتكانفوا . (قال الأخفش : « تكانفوا » أعان بعضهم بعضاً واجتمعوا وصار بعضهم في كنف بعضٍ) وعادوا إلى ناحية أرَّجان ، فسار إليهم عمر ، وكتب إلى مصعبٍ : أما بعدُ . فإني قد لقيتُ الأزارقةَ ،

فرزقَ اللهُ عبيـــدَ الله بن عمر الشهادةَ ، ووهبَ له السعادة ، ورزقنا عليهم الظَّفر ، فتفرّقوا شِذَرَ مِذَر ، وبلغتني عنهم عودةٌ ، فيممتهم ، وبالله أستعينُ وعليه أتوكلُ .

فسار إليهم ومعه عطيةُ بن عمرٍو ومجّاعةُ بن سعيدٍ ، فالتقوا ، فألح عليهم حتى أخرجهم ، وانفردَ عمر من أصحابه ، فعَمدَ له أربعة عشرَ رجلاً منهم ، من مذكوريهم وشجعانهم ، وفي يده عمودٌ ، فجعل لايضربُ رجلاً منهم ضربةً إلا صرعهُ . فركضَ إليه قطريٌّ على فرس طِمرٍ ، وعمر على مهرٍ ، فاستعلاه قطريٌّ بقوة فرسه حتى كاد يصرعُهُ ، فبُصر به مجاعة فأسرع إليه ، فصاحت الخوارجُ بقطريٍّ : ياأبا نعامة ! إن عدو الله قد رهقك ، فانحطّ قطريٌّ عن قرَبوسهِ ، فطعنه مجاعةُ ، وعلى قطريٍّ درعان فهتكها وأسرع السِّنانُ في رأس قطريٍّ ، فكشط عنه جِلدةً ونجا .

وارتحلَ القومُ إلى أصْفهانَ فأقاموا بها برهةً ، ثم رجعوا إلى الأهـواز ، وقد ارتحل عمر بن عُبيد الله إلى أصطخر ، فأمر مجاعة فجَبى الخراج أسبوعـاً ، فقال له : كم جبيتَ ؟ قال : تسعمائة ألفٍ ، فقال : هي لك ، فقـال يزيدُ ابن الحكمِ الثقفيُّ لمجاعة :

ودَعاكَ دعوةَ مُرهَقٍ فأجبته — عمرٌ وقد نسي الحياةَ وضاعا
فرَددت عادية الكتيبةِ عن فتىً — قد كاد يَترُكُ لحمُهُ أوْزاعا

وعُزل مصعبُ بن الزبير وولي حمزةُ بن عبد الله بن الزبير ، فوجّه المهلب اليهم ، فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز ، ثم رُد مصعبٌ والمهلبُ بالبصرة ، والخوارجُ بأطرافِ أصبهـان ، والوالي عليها عتّابُ بن ورقـاء الرّياحيُّ ، فأقام الخوارجُ هناك شيئاً يجْبون القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فـــارس ، فكتب مصعبٌ إلى عمر بن عبيد الله : ما أنصفتنا ، أقمتَ بفارس تجبي الخراجَ ومثلُ هذا العدوِّ يحاربك ، والله لو قاتلت ثم هربت لـكان أعذر لك . وخرج مصعبٌ من البصرة يريدهم ، وأقبلَ عمر بن عبيد الله يريدهم ، فتنحى الخراجُ إلى السُّوس،

ثم أتوا المدائن ، فقتلوا أحمر طيىء ، وكان شجاعاً ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحرّ ، ففي ذلك يقولُ الشاعرُ :

تركتم فتى الفتيان أحمر طيىءٍ   بساباط لم يعطِف عليه خليلُ

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادها ، وواليها الحرثُ بن عبد الله القُباعُ ، فتثاقل عن الخروج ، وكان جباناً ، فذَمرهُ إبراهيم بن الأشتر ، ولامه الناس فخرج متحاملاً حتى أتى النُّخيلة ، ففي ذلك يقولُ الشاعرُ :

إن القباعَ سار سيراً نُكرا   يسيرُ يوماً ويقيمُ شهرا

وجعل يعدُ الناس بالخروج ولا يخرجُ ، والخوارجُ يعيثون ، حتى أخذوا امرأةً فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلها ، فقالت : أتقتلون مَنْ يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غيرُ مُبين ؟! فقال قائلٌ منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتك ، ثم قدَّموها فقتلوها ، ثم قرَّبوا أُخرى ، وهم بحذاء القباع ، والجسرُ معقودٌ بينها ، فقطعه القباعَ ، وهو في ستة آلافٍ ، والمرأة تستغيثُ به وهي تقولُ : علامَ تقتلونني ؟ فوالله مافسقت ولا كفرتُ ولا ارتددتُ ! والناسُ يتفلتون إلى الخوارج ، والقباع يمنعهم ، فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر ، فأقام بين دباها ودبيرى خمسة أيامٍ ، والخوارج بقربه ، وهو يقول للناس في كل يومٍ : إذا لقيتم العدو غداً فأثبتوا أقدامكم واصبروا ، فإن أول الحرب الترامي ، ثم إشراعُ الرّماح ، ثم السّلةُ ، فثكلت رجلاً أمُّهُ فرّ من الزحف . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصّفةُ فقد سمعناها ، فمتى يقعُ الفعلُ ؟! وقال الراجز :

إن القُباعَ سار سيراً ملْسا   بين دباها ودبيرى خمسا

فأخذ الخوارجُ حاجتهم ، وكان شأنُ القُباع التحصُّن منهم ، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصبهان ، فبعث عتّابُ بن ورقاء إلى الزُّبير بن عليّ : أنا ابن عمك ، ولست أراك تقصِدُ في انصرافك من كل حربٍ غيري . فبعث إليه الزُّبير : إنّ أدنى الفاسقين وأبعدَهم من الحقّ سواءٌ .

وإنما سمي الحرثُ بن عبد الله بن أبي ربيعة القباع لأنه ولي البصرة فغيّرَ على الناس مكاييلهم ، فنظر إلى مكيالٍ صغيرٍ في مرآة العين وقد أحاط بدقيق استكثره ، فقال : إن مكيالكم هذا لقباعٌ . و « القباعُ » الذي يخفي أو يخفى ما فيه ، يقال : انقبع الرجلُ : إذا استتر ، ويقال للقنفذ القبعُ وذلك أنه يخنِسُ رأسه .

قال أبو العباس : وأقام الخوارجُ يغادون عتّاب بن ورقاء القتال ويراوحونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا منه بكبير ، فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا ، لا يمرُّون بقريةٍ بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتّلوا من فيها .

* * *

وشاور المصعبُ الناس فيهم ، فأجمع رأيهم على المهلب ، فبلغ الخوارجَ مشورتهُ ، فقال لهم قطريٌّ : إنْ جاءكم عتّابُ بن ورقاءَ فهو فاتكٌ يطلع في أول المقنب ولا يظفرُ بكبيرٍ ، وإن جاءكم عمر بن عُبيد الله ففارسٌ يقدمُ ، فإمّا له وإمّا عليه ، وإن جاءكم المهلب فرجلٌ لا يناجزكم حتى تناجزوه ، ويأخذ منكم ولا يعطيكم ، فهو البلاءُ اللازم ؛ والمكروه الدائم .

وعزَم المصعب على توجيه المهلب ، وأن يَشخص هو لحرب عبد الملك فلما أحسَّ به الزُّبير بن عليٍّ خرج إلى الري ، وبها يزيدُ بن الحرث بن رُوَيمٍ ، فحاربه ثم حصره ، فلما طال عليه الحصارُ خرج إليه ، فكان الظفرُ للخوارج ، فقتل يزيدُ بن رويمٍ ، ونادى يومئذٍ ابنه حوشباً ففر عنه وعن أمّه لطيفة ، وكان عليُّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحرث بن رويمٍ يعود ابنه يزيد ، فقال له : عندي جاريةٌ لطيفةُ الخدمة أبعثُ بها إليك . فسماها يزيدُ لطيفة ، فقتلتْ معه يومئذ ، ففي ذلك يقول الشاعرُ :

مواقفنا في كلِّ يومِ كريهةٍ ... أسرُّ وأشفى من مواقف حوشبِ
دعاه يزيدٌ والرماحُ شوارعٌ ... فلم يستجب بل راغ ترواغ ثعلب

ولو كان شهم النفس أو ذا حفيظةٍ رأى ما رأى في الموت عيسى بن مصعب

وقد مر خبرُ عيسى بن مصعبٍ مستقصى وقال آخرُ :

نجّى حليلتهُ وأسلمَ شيْخَــهُ نصبَ الأسنّة حوشبُ بن يزيدْ

وقال ابن حوشبٍ لبلال بن أبي بُردة يعيرُه بأمّه ، وبلالٌ مشدودٌ عند يوسف بن عمر : يا ابن حَوراء ! فقال بلالٌ ، وكان جلداً : إن الأمة تسمى حوراءَ وجيداءَ ولطيفة !! وزَعم الكلبي أن بلالاً كان جلداً حيث ابتلي . قال الكلبي : ويعجبني أن أرى الأسير جلداً . قال : وقال خالد بن صفْوانَ له بحضرة يوسف بن عمر : الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدَّ ركنك ، وغيرِ حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخِفاً بالشريف ، مظهراً للعصبية ! فقال له بلالٌ : إنما طالَ لسانُك ياخالدُ لثلاثٍ معك هُنّ علي : الأمر عليك مُقبِلٌ وهو عني مدبرٌ ، وأنت مطلقٌ وأنا مأسور ، وأنت في طينتكَ وأنا في هذا البلد غريبٌ . وإنما جرى الى هذا لأنه يُقال أنّ أصلَ آلِ الأهتَم من الحيرةِ ، وأنهم أشابةٌ دخلتْ في بني منقرٍ من الرومِ .

* * *

ثم انحط الزُّبير بن عليٍ على أصفهان فحَصر بها عتاب بن ورقاء الرّياحيَّ سبعة أشهرٍ ، وعتابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصارُ قال لأصحابه : ماتنتظرون؟ واللهِ ماتؤتون من قِلةٍ ، وإنكم لفرسانُ عشائرِكم ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم ، وما بقيَ مع هذا الحصارِ إلا ان تفنى ذخائرُكم ، فيموتَ أحدُكم ، فيدفنه أخوه ، ثم يموتَ أخوه فلا يجدُ من يدفنه ، فقاتلوا القوم وبكم قوة ، من قبلِ ان يضعف أحدُكم عن أن يمشي إلى قِرْنهِ !! فلما أصبحَ الغدَ ، صلى بهم الصبحَ ، ثم خرج بهم إلى الخوارج وهم غارُّون ، وقد نصبَ لواءً لجاريةٍ له يقال لها ياسمينُ ، فقال : من أرادَ البقاء فليلحق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهادَ فليخرُجْ معي . فخرج في ألفين وسبعمائةِ فارسٍ ، فلم يشعرْ بهم الخوارج حتى غشوُهم ، فقاتلوهم بجدٍ لم يرَ الخوارجُ منهم مثله ، فعقروا منهم خلقاً

كثيراً وقتلوا الزُّبير بن عليٍ ، وانهزمت الخوارجُ ، فلم يتّبعهم عتّابٌ ، ففي ذلك يقولُ الشاعر :

وَيومٍ بجيٍ تلافيتَه ولولاكَ لاصطُلِمَ العسكَرُ

قال أبو العباس : نفسرُ قوله « ولولاكَ » في آخر هذا الخبر إن شاء الله.

وقال رجلٌ من بني ضبّةَ في تلك الوقعةِ :

خرجتُ من المدينةِ مستميتاً ولم أكُ في كتيبةِ يامِيمينا
أليسَ من الفضائلِ أن قومي غدَوا مُستلئمينَ مُجاهدينا

وتزعمُ الرُّواةُ أنهم في أيام حصارِهم كانوا يتوافقونَ ، ويحملُ بعضهم على بعضٍ ، وربما كانت مُوافقة بغير حربٍ ، وربما اشتدت الحربُ بينهم ، وكان رجل من أصحاب عتابٍ يقال له شُرَيح ، ويُكنى أبا هرَيرة ، إذا تحاجزَ القومُ مع المساء نادَى بالخوارج وبالزُّبير بن عليٍ :

يا ابنَ أبي الماحُوزِ والأشرارِ كيف ترونَ يا كلابَ النارِ
شــدَّ أبي هُريرةَ الهرّارِ يهرُّكُمْ بالليــلِ والنهارِ
ألم ترَوا جيّاً على المضمارِ تُمسي من الرحمن في جِوَارِ

فغاظهم ذلك منه ، فكمنَ له عُبيدةُ بن هلالٍ فضربه ، واحتملهُ أصحابُه ، فظنتِ الخوارج أنه قد قُتلَ ، فكانوا إذا توافقوا نادَوهمْ : ما فعلَ الهرّارُ ؟ فيقولون : ما به مِن بَأسٍ ، حتى أبل من عِلتهِ ، فخرج إليهم فصاح : يا أعداء الله ! أترون بي بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنّا نرى أنك لحقت بأمك الهاوية ، في النار الحامية .

* * *

قال أبو العباسِ : نفسّر أشياء من العربيـــة تحتاج إلى الشرح . من ذلك قوله « ولولاكَ » ، ومنه قوله « ألم تروا جيّاً » ، ومنه قوله « يهرُّكم بالليل والنهار » .

أما قوله « لولاكَ » فإن سيبويه يزعم أن « لولا » تخفض المضمر ويرتفع بعدها الظاهر بالابتداء ، فيقال : إذا قلت « لولاكَ » فما الدليل ، على ان الكاف مخفوضةٌ دون ان تكون منصوبةً ، وضمير النصب كضمير الخفض ؟ فتقول :

إنك تقول لنفسك « لولاي » ولو كانت منصوبةً لكانت النون قبل الياء ، كقولك « رماني واعطاني » قال يزيد بن الحكم الثقفيُّ :

وكم موطنٍ لولاي طحتَ كما هوى بأجرامه من قلة النِّيق منهوي

« النيق » اعلى الجبل ، و « جرم » الإنسان : خلقهُ .

فيقال له : الضمير في موضع ظاهره ، فكيف يكون مختلفاً ؟ وإن كان هذا جائزاً فلمَ لا يكون في الفعل وما اشبهه نحو « إنَّ » وما كان معها في الباب ؟

وزعم الاخفش سعيدٌ ان الضمير مرفوعٌ ، ولكن وافق ضمير الخفض ، كما يستوي الخفض والنصب . فيقال : فهل هذا في غير هذا الموضع ؟!

قال ابو العباس : والذي اقوله ان هذا خطأ لا يصلح ، إلا ان تقول « لولا انت » كما قال الله عز وجلّ : (لولا انتم لكنا مؤمنين) ومن خالفنا فهو لا بد يزعم ان الذي قلناه اجود . ويدعي الوجه الآخر فيجيزه على بعده .

وأما « جيٌّ » فالاجود فيها ان تقولَ :

• الم تروا جيٌّ على المضمار •

فلا تنوّن ، لانها مدينةٌ ، والاسم اعجميٌّ ، والمؤنث إذا سمي باسمٍ اعجميٍّ على ثلاثة احرفٍ لم ينصرف إذا كان مؤنثاً وان كان اوسطه ساكناً نحو جورَ وحمص وماه وما كان مثل ذلك ، ولو كان اسماً لمذكرٍ لانصرف ، فإن صرفته جعلته اسماً لبلدٍ ، وان لم تصرفه جعلته اسماً لبلدةٍ او لمدينةٍ ، الا ترى انك تصرف نوحاً ولوطاً ، وهما اعجميان ؟ وكذلك لو كان على ثلاثة احرف كلها متحركٌ ، لانك تصرف « قدماً » لو سميت به رجلاً ، فالاعجميُّ بمنزلة المؤنث ، لان امتناعها واحدٌ .

وأما قوله « يهرُّكم » فإن كل ما كان من المضاعف على ثلاثة أحرف وكان متعدّياً فإن المضارع منه على « يفعلُ » نحو شدهُ يشدُّه ، و زرّه يزُره ، و ردّه يرُده ، و حله يحُله . وجاء منه حرفان على « يفعِل » و « يفعُل » فيها جيدٌ ،

هره يهرُه : إذا كرهه ، ويهرُه أجود ، وعلّه بالحنّاء يعله ، ويعله أجود .
ومن قال حبتّه قال يحِبُّه لا غيرُ ، وقرأ أبو رجاء العطارديُّ (فاتبعوني يحبِّكم الله) وذلك أن بني تميمٍ تدّغم في موضع الجزم وتحرِّكُ أواخره لالتقاء الساكنين .

★ ★ ★

رجع الحديث

قال أبو العباس : ثم إن الخوارج أداروا أمرهم بينهم ، فأرادوا تولية عبيدة ابن هلالٍ ، فقال : أدلُّكم على من هو خيرٌ لكم مني ، من يطاعنُ في قبلٍ ، ويحمي في دبرٍ ، عليكم قطريَّ بن الفجاءة المازني . فبايعوه ، فوقف بهم ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ! امضِ بنا إلى فارس ، فقال : إن بفارس عمر بن عبيد الله بن معمرٍ ، ولكن نصيرُ إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها. فأتوا الأهواز ، ثم ترفعوا عنها إلى ايذج ، وكان مصعبٌ قد عزم على الخروج إلى باجُميرا ، فقال لأصحابه : إن قطرياً قد أطل علينا ، وإن خرجنا عن البصرة دخلها ، فبعث إلى المهلب فقال : اكفنا هذا العدو ، فخرج إليهم المهلب ، فلما أحس به قطريُّ تيمّم نحو كرْمانَ ، فأقام المهلبُ بالأهوازِ ، ثم كر قطريُّ عليه وقد استعدّ ، فكان الخوارج في جميع حالاتهم أحسن عدّة ممن يقاتلهم ، بكثرة السّلاحِ ، وكثرة الدوابّ ، وحصانة الجُنَنِ ، فحاربهم المهلب فنفاهم إلى رام هُرْمزَ .

وكان الحٰرثُ بن عَميرة الهمدانيُّ قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورْقاءَ يقالَ أنه لم يُرضهِ عن قتله الزبيرَ بن عليّ ، وكان الحٰرثُ بن عميرة هو الذي تولى قتله وحاص إليه أصحابه ، ففي ذلكَ يقول أعشى همْدانَ :

إن المكارم أكملت أسبابها | لابن اللّيوث الغرّ من قحطانِ
للفارس الحامي الحقيقة مُعلّماً | زاد الرّفاق إلى قرى نجرانِ
الحرث بن عميرة الليثِ الذي | يحمي العراق إلى قرى كرمانِ
ودّ الأزارقُ لو يصابُ بطعنةٍ | ويموتَ من فرسانهم مائتانِ

ويروى : زاد الرّفاق وفارس الفرسان ، وتأويله : أن الرُّفقة إذا صحبها أغناها عن التزوُّد كما قال جريرٌ ، وأراد ابنٌ له سفراً ، وفي ذلك السفر يحيى بن أبي حفصة ، فقال لأبيه زوّدني ، فقال جريرٌ :

أزاداً سوى يحيى تريدُ وصاحباً | ألا إن يحيى نعم زادُ المسافر
فما تنكرُ الكوماء ضربة سيفِه | إذا أرملوا أو خف ما في الغرائر

وقوله « ويموتُ من فرسانهم » يكون على وجهين : مرفوعاً ومنصوباً ، فالرفع على العطف ، ويدخل في التمني ، والنصبُ على الشرطِ والخروجِ من العطف ، وفي مصحف ابن مسعودٍ (ودُّوا لو تُدهن فيُدهنوا) والقراءةُ (فيدهنون) على العطف ، وفي الكلامِ : ودّ لو تأتيه فتحدّثهُ ، وإنْ شئت نصبت الثاني .

* * *

قال أبو العباس : وخرج مصعب بن الزبير إلى باجميراءَ ، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمسكِن ، ولم يأت المهلبَ وأصحابه ، فتواقفوا يوماً على الخندق ، فناداهم الخوارج : ما تقولون في المصعب ؟ قالوا : إمام هُدىً ، قالوا : فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : ضالٌّ مضلٌّ . فلما كان بعد يومين أتى المهلبَ قتلُ مصعبٍ ، وأن أهل الشأم اجتمعوا على عبد الملك ، وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته ، فلما تواقفوا ناداهم الخوارج: ما تقولون في مصعبٍ؟ قالوا :لانخبركم!قالوا: فما تقولون في عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى ! قالوا : ياأعداء الله ! بالأمس ضالٌّ مضلٌّ واليومَ إمام هدىً ؟! ياعبيد الدنيا ! عليكم لعنة الله !!

* * *

وولى خالد بن عبد الله بن أسيدٍ ، فقدم فدخل البصرة ، فأراد عزل المهلب فأشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : إنما أَمِنَ اهلُ هـــذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ، فقد تنحى عمر ، وإن نحّيت المهلب لم تأمن على البصرة الأزارقة ، فأبى إلا عزله ، فقدم المهلب البصرة ، وخرج خالدٌ إلى الاهواز ، فأشخصه ، فلما صار بكربجِ دينارٍ لقيـــه قطريٌ فمنعه حط اثقاله ، وحاربه ثلاثين يوماً ، ثم أقام قطريٌ بإزائه ، وخندق على نفسه ، فقال المهلب: إن قطرياً ليس بأحقَّ بالخندق منك ، فعبر دجيلًا إلى شقّ نهر تيرى ، واتبعه قطريٌ ، فصار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخندقَ عليها ، فقال المهلب لخالد : خندقْ على نفسك ، فإني لا آمن عليك البيات ، فقال : يا أبا سعيدٍ ! الأمرُ أعجل من ذلك ، فقال المهلبُ لبعض ولده : إني أرى أمراً ضائعاً ، ثم قال لزياد بن عمرٍو : خندقْ علينا ، فخندق المهلب وأمر بسفنه ففرّغت ، وأبى خالدٌ أن يفرّغ سفنه ، فقال المهلب لفيروز حُصينٍ : صرْ معنا ، فقال : يا أبا سعيدٍ! الحزمُ ما تقول ، غير أني أكره أن أفارق أصحابي ، قال : فكنْ بقربنا ، قال : أمّا هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتب إلى بِشْرِ بن مروان يأمره أن يمد خالداً بجيشٍ كثيفٍ ، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ففعل ، فقدِم عليه عبد الرحمن فأقام قطريٌ يغاديهم القتال ويراوحهم أربعين يوماً ، فقال المهلب لمولىً لأبي عُيينة : انتبذْ إلى ذلك الناووس فبتْ عليه في كل ليلةٍ ، فمتى أحسستَ خبراً من الخوارج أو حركةً أو صهيل خيلٍ فاعجلْ إلينا ، فجاء ليلةً فقال : قد تحرّك القوم ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعد قطري سفناً فيها حطب فأشعلها ناراً وأرسلها على سفن خالدٍ ، وخرج في أدبارها حتى خالطهم ، فجعل لا يمرُّ برجلٍ إلا قتله ، ولا بدابةٍ إلا عقرها ، ولا بفسطاطٍ إلا هتكهُ فأمر المهلبُ يزيدَ ابنه فخرج في مائة فارسٍ فقاتل وأبلى يومئذٍ ، وخرج عبدُ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاءً حسناً ، وخرج فيروزُ حُصينٍ في مواليه ، فلم يزلْ يرميهم بالنُّشاب هو ومنْ معه ، فأثر أثراً جميلًا ، فصُرع

يزيد بن المهلب يومئذٍ ، وصرع عبدُ الرحمن ، فحامى عنها أصحابها حتى ركبا ، وسقط فيروزُ حصينٍ في الخندقِ ، فأخذ بيده رجلٌ من الازدِ فاستنقذه ، فوهبَ له فيروزُ حصينٍ عشرة آلاف درهمٍ ، وأصبح عسكرُ خالدٍ كأنه حرةٌ سوداءُ ، فجعل لايرى إلا قتيلاً أو صريعاً ، فقال للمهلب : يا أبا سعيدٍ ! كدنا نفتضحُ ، فقال خندقْ على نفسك ، فإن لاتفعل عادوا إليك ، فقال : اكفني أمرَ الخندق ، فجمعَ له الأخماس ، فلم يبق شريفٌ إلا عملَ فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحرُ المزونيُّ لكان اللهُ قد دمَّر عليكم . وكانت الخوارجُ تسمّي المهلّب الساحرَ ، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبقَ إلى نقض تدبيرهم . فقال أعشى همدانَ لابن الأشعث في كلمةٍ طويلةٍ :

ويوم أهوازكَ لاتنسهُ ... ليس الثّنا والذكرُ بالداثرِ

وقد ذكرنا في قصر الممدود ، من أن مد المقصور لا يجوزُ ، مايغني عن إعادته .

• • •

ونذكرُ فيروزَ حصينٍ لما مر من ذكره :

وكان فيروزُ حصينٍ رجلاً جيّد البيت في العجم ، كريم المحتِد ، مشهورَ الآباءِ ، فلما أسلم والي حصيناً ، وهو حصين بن عبد الله العنبريُّ ، من بني العنبر بن تميم بن مرٍّ ، ثم من ولد طريف بن تميم ، وكان فيروزُ حصينٍ شجاعاً جواداً ، نبيل الصُّورة ، جهيرَ الصوتِ . وتروي الرُّواةُ أن رجلاً من العرب كانت أمُّه فتاةً ، فتقاول بني عمٍ له ، فسبُّوه بالعجمية ، ومر فيروزُ حصينٍ ، فقال : هذا خالي ، فمن منكم له خالٌ مثله ؟ وظنّ الفتى أن فيروز لم يسمعها ، وسمعها فيروز ، فلما صار إلى منزله بعثَ إلى الفتى ، فاشترى له منزلاً وجاريةً ، ووهب له عشرة آلاف درهم .

ومن مآثره المعروفة أن الحجاج بن يوسف لما واقف ابن الأشعث برُستقاباذ

نادى منادي الحجاج : من أتى برأس فيروز فله عشرةُ آلاف درهمٍ ، ففصل فيروز من الصف ، فصاح بالناس : من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فأنا فيروزُ حصينٍ ، وقد عرفتم مالي و وفائي ،من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف ، فقال الحجاج: والله لقد تركني أكثرُ التلفُّتَ وإني لبين خاصّتي . فأتيَ به الحجاجُ فقال له : أأنت الجاعلُ في رأس أميرك مائة ألف درهمٍ ؟ قال: قد فعلتُ ، فقال: والله لأمهدنك ثم لأحملنك ، أين المالُ ؟ قال عندي ، فهل إلى الحياة من سبيلٍ ؟ قال : لا ، قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمعَ لك المال فلعل قلبك يرق علي ! ففعلَ الحجاج ، فخرج فيروزُ فأحل الناسَ من ودائعه ، وأعتقَ رقيقه ، وتصدق بماله ، ثم رُد إلى الحجاج فقال : شأنكَ الآن فاصنع ماشئت ، فشُد في القصب الفارسي ، ثم سل حتى شرّحَ ، ثم نضحَ بالخلّ والملح ، فما تأوه حتى مات .

* * *

قال أبو العباس : ومضى قطريٌّ إلى كرمان ، فانصرف خالدٌ إلى البصرة ، فأقام قطريَ بكرمان أشهراً ، ثم عمدَ لفارس ، وخرج خالدٌ إلى الأهواز ، وندَب للناس رجلًا ، فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالدُ : ذهب المهلبُ بحظ هذا المصر ، إني قد ولّيتُ أخي قتال الأزارقة ، فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلثمائة ، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفاً ، والخوارجُ بدَراب جردَ ، فجعل عبدُ العزيز يقولُ في طريقه يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لايتم إلا بالمهلب ، فسيعلمون .

قال صعب بن زيدٍ : فلما خرج عبدُ العزيز عن الأهواز جاءني كردوسٌ حاجب المهلب فقال : أجبِ الأمير ، فجئتُ إلى المهلب وهو في سطحٍ وعليه ثيابٌ هرويةٌ ، فقال : ياصعبُ ! أنا ضائع ، كأني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز ، وأخشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي ، فابعث رجلًا من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً به إلي ، فوجّهت رجلًا يقال له عمران بن فلان ، فقلت : اصحب عسكر عبد العزيز واكتب الي بخبر يومٍ يوم ، فجعلتُ أورده على المهلب .

فلما قاربهم عبدُ العزيز وقف وقفةً ، فقال له الناسُ : هذا يومٌ صالحٌ ، فينبغي أن تتركَ – أيها الأميرُ – حتى نطمئنَّ ثم نأخذ أهبتنا ، فقال : كلاّ ، إلا الأمرُ قريبٌ ، فنزلَ الناسُ على غير أمره ، فلم يستتمّ النزولُ حتى وردَ عليهم سعدُ الطلائعِ في خمسمائة فارسٍ ، كأنهم خيطٌ ممدودٌ ، فناهضهم عبدُ العزيز ، فواقفوه ساعةً ، ثم انهزموا عنه مكيدةً ، فاتبعهم ، فقال له الناسُ : لاتتبعهم فإنا على غير تعبيةٍ ، فأبى ، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقَبةً ، فاقتحمها وراءهم ، والناسُ ينهونه ويأبى ، وكان قد جعل على بني تميم عبسَ بن طلقٍ الصَّريميَّ الملقب عبس الطعّانِ ، وعلى بكر بن وائلٍ مقاتل بن مسمع القيسي ، وعلى شرطته رجلًا من بني ضُبيعة بن ربيعة بن نزار ، فنزلوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم في بطن العقبة كمينٌ ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين . وعطف عليهم سعدُ الطلائع ؛ فترجّلَ عبسُ بن طلقٍ فقتُل ، وقتل مقاتلُ بن مسمعٍ ، وقتُل الضُّبيعيُّ صاحبُ الشرطة ، وانحاز عبدُ العزيز ، واتبعهم الخوارج على فرسخين يقتلونهم كيف شاؤا ، وكان عبدُ العزيز قد خرج معه بأم حفص ابنت المنذر بن الجارودِ امرأته ، فسبوا النساء يومئذٍ ، وأخذوا أسرى لاتحصى ، فقذفوهم في غارٍ بعد أن شدُّوهم وثاقاً ، ثم سدُّوا عليهم بابه حتى ماتوا فيه .

وقال رجلٌ حضر ذلك اليوم : رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلًا ليضربونه بأسيافهم وما تُحيك في جسده .

يقال ما أحاك فيه السيف ، وما يحيكُ فيه ، وما حكَّ ذا الأمرُ في صدري ، وما حكى في صدري ، وما احتكى في صدري ، ويقال حاك الرجل في مشيته يحيكُ : إذا تبختَرَ .

ونودي على السّبي يومئذٍ ، فغولي بأم حفصٍ ، فبلغ بها رجلٌ سبعين ألفاً ، وذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالخوارج ، ففرض لكلِّ واحد منهم خمسمائةٍ ، فكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطري وقال : ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً ، إن هذه فتنةٌ ، فوثب إليها أبو الحديد العبديُّ

فقتلها ، فأُتي به قطريٌّ فقال له : يا أبا الحديد ! مهْيم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! رأيت المؤمنين قد تزايدوا في هذه المشركة ، فخشيت عليهم الفتنة !! فقال قطريٌّ : قد أصبت وأحسنت ! فقال رجلٌ من الخوارج :

كفانا فتنة عظمت وجلّت بحمد الله سيف أبي الحديد
أهاب المسلمون بها وقالوا على فرْط الهوى : هل من مزيد
فزاد أبو الحديد بنصل سيفٍ رقيق الحدّ فعل فتىً رشيد

قوله « أهاب » يريدُ : أعلن ، يقال أهبتُ به : إذا دعوتهُ ، مثل صوّت، قال الشاعر :

أهاب بأحزان الفؤاد مُهيبُ وماتت نفوسٌ للهوى وقلوبُ

وقوله « مهْيمْ » حرفُ استفهامٍ ، معناه : ما الخبرُ وما الأمرُ ، فهو دالٌّ على ذلك محذوفُ الخبرِ ، وفي الحديث « أن رسول الله ﷺ رأى بعبد الرحمن ابن عوفٍ ردع خلوقٍ فقال : مهيمْ ؟ فقال : تزوجتُ يارسول الله ، فقال : أوْلم ولو بشاةٍ ، وكان تزوج على نواةٍ » وأصحابُ الحديث يرْوونه « على نواةٍ من ذهبٍ قيمتها خمسة دراهم » . وهذا خطأ وغلطٌ ، العرب تقول « نواة » فتعني بها خمسة دراهم ، كما تقول « النشُّ » لعشرين درهماً ، و « الأوقيةُ » لأربعين درهماً ، فإنما هو اسمٌ لهذا المعنى .

وكان العلاءُ بن مطرّفٍ السّعديُّ ابن عمّ عمرو القنا ، وكان يحبُّ أن يلقاه في تلك الحروب مبارزةً ، فلحقه عمرو القنا وهو منهزم ، فضحك عمروٌ وقال متمثلًا :

تمنّاني ليلقــاني لقيطٌ أعامِ لك ابن صعصعةَ بن سعدِ

ثم صاح به : انج أبا المصدّى ! وكان عمرو القنا يُكنى أيضاً أبا المصدى : وهذا البيتُ الذي تمثل به عمرٌو ليزيد بن عمرو بن الصعق الكلابيّ بقوله ، يعني لقيط بن زرارة ، وكان يطلبه .

وقوله « أعام لك » يريدُ : ياعامر ، فرخمَ ، وإنما يريدُ الحيَّ تعجباً ، أي لكم أعجبُ من تمنّيه للقائي ، فدعا بني عامر بن صعصعة ، وهم بنو صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، ويقال أنَّ عامر بن صعصعة هو ابن سعد بن زيدِ مناةَ بن تميمٍ ، لا ابن معاوية ، وأنهم نافلةٌ في قيسٍ ، ولذلك تمنّعتْ بنو سعدٍ من محاربتهم مع بني تميمٍ يوم جَبَلةَ ، ولذلك أنذرهم كربُ بن صفوانَ .

وهذا البيتُ وضعه سيبويه في باب النداءِ الذي معناه معنى التعجُّبِ وشبهٌ به قولُ الصلتانِ العبديِّ :

فيا شاعراً لا شاعرَ اليومَ مثله   جريرٌ ولكن في كُليبٍ تواضعُ

على معنى قوله : فلله درُّه شاعراً .

وكان العلاءُ بن مطرّفٍ قد حمل معه امرأتين له ، إحداهما من بني ضبّةَ يقال لها أمُّ جميلٍ ، والأخرى بنت عمه ، وهي فلانة بنتُ عقيلٍ ، فطلق الضّبيةَ وتخلّصَ بهما جميعاً يومئذٍ وحمل الضبية أوّلاً ، ففي ذلك يقولُ :

ألستُ كريماً إذ أقول لفتيتي   قفوا فاحملوها قبل بنتِ عقيلِ

ولولم يكن عُودي نضاراً لأصبحتْ   تجرُّ على المتنينِ أمُّ جميلِ

* * *

قال الصّعْب بن يزيد : بعثني المهلب لآتيهُ بالخبر ، فصرْت إلى قنطرةِ أربك على فرسٍ اشتريته بثلاثة آلاف درهمٍ ، فلم أُحْسسْ خبراً ، فسرْتُ مهجّراً إلى أن أمسيتُ ، فلما أظلمنا سمعت كلام رجلٍ عرفته من الجهاضمِ ، فقلت : ما وراءك ؟ فقال : الشرُّ ، قلت : فأين عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان من آخر الليلِ إذا أنا بزُهاءِ خمسين فارساً معهم لواءٌ : فقلت ، لواءُ من هذا ؟ فقالوا : هذا لواءُ عبدِ العزيز ، فتقدمت إليه ، فسلمت وقلت : أصلح

الله الأمير ، لا يكبرنَّ عليك ما كان ، فإنك كنت في شرِّ جندٍ وأخبثه ، قال لي : أو كنتَ معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كأني شاهدٌ أمركَ ، قال : كأنك كنتَ معنا ، قلتُ : أرسلني المهلب لآتيه بخبرك ، ثم تركته وأقبلت إلى المهلب ، فقال لي : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرُّك ، قد هزم عبد العزيز وفُلَّ جيشه ! فقال : ويحك ! وما يسرُّني من هزيمة رجلٍ من قريشٍ وفلّ جيشٍ من المسلمين ؟! قلت : قد كان ذاك ، ساءك أو سرّك ، فوجّه رجلاً إلى خالدٍ يخبره ، قال الرجل : فلما أخبرتُ خالداً قال : كذبتَ ولؤمت ، ودخل رجلٌ من قريشٍ فكذبني ، وقال لي خالدٌ : والله لهممتُ أن أضربَ عنقك ، قلت : أصلح الله الأمير ، إنْ كنتُ كاذباً فاقتلني ، وإن كنت صادقاً فأعطني مُطرّفَ هذا المتكلّفِ ! فقال خالدٌ : لبئسَ ما أخطرتَ به دمك !! فما برحتُ حتى دخل بعض الفلّ .

وقدمَ عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلب وكساه ، وقدِم معه على خالدٍ ، واستخلف ابنه حبيباً ، وقال له تحسّس عن الأخبار ، فإن أحسست بخبر الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة ، فلم يزل حبيبٌ مقيماً والأزارقة تدنو منه ، حتى بلغوا قنطرة أربكَ ، فانصرف إلى البصرة على نهر نيرى ، فلما دخلها أُعلِمَ خالد ، فغضب عليه ، واستتر حبيبٌ في بني هلال بن عامر بن صعصعة ، فتزوّج هناك في استتارهِ الهلاليةَ أمّ عبّادِ بن حبيب .

وقال الشاعر لخالدٍ يفيّل رأيه ، أي يخطّئه :

بعثتَ غلاماً من قريشٍ فرُوقةً ... وتترك ذا الرأي الأصيل المهلبا
أبى النمّ واختار الوفاء وأحكمت ... قواه وقد ساس الأمور وجربا

وقال الحرثُ بن خالدٍ المخزوميُّ :

فرّ عبد العزيز لما رأى الأبْـ ... ـطالَ بالسفح نازلوا قطريّاً

ويروى :

فر عبد العزيز إذ راء عيسى ... وابن داءُود نازلا قطريّاً

عاهد الله إن نجا ملمنايا ليعودنْ بعدها حُرْمياً
يسكن الحلّ والصّفاح فمرّا ن وسلعاً وتلوة نجدياً
حيث لايشهد القتال ولا يسـْ مع يوماً لكرّ خيلٍ دوياً

قوله « إذ راء عيسى » الأصل « رأى » ولكنه قلب فقدّم الألف وأخر الهمزة كما قال كثيّرٌ :

وكلُّ خليلٍ راءني فهو قائلٌ من اجلكِ هذا هامة اليوم أو غد

والقلبُ كثير في كلام العربِ ، وسنذكر منه شيئاً في موضعه إن شاء اللهُ .

وقوله « ملمنايا » يريد من المنايا ، ولكنه حذف النون لقرب مخرجها من اللام ، فكانتا كالحرفين يلتقيان على لفظٍ فيحذف أحدهما ، ومن كلام العرب أن يحذفوا النون إذا لقيت لام المعرفة ظاهرةً ، فيقولون في بني الحٰرثِ وبني العنبر وما أشبه ذلك « بلحرثِ » و « بَلعنبرِ » و « بلهجيمِ » كما يقولون « عَلماءِ بنو فلانٍ » فيحذفون إحدى اللامينِ .

وقوله « ليعودن بعدها حرمياً » العرب تنسب إلى الحرم فيقولون « حِرميٌّ » و « حُرميٌّ » على قولهم حُرمة البيت وحِرمة البيت ، وقال النابغة الذبيانيُّ :

من قولِ حرميّةٍ قالت وقد رحلوا هل في مخفّيكم من يشتري أدما

و « الحلُّ » ههنا موضعٌ ، وأصله الطريق في الرّملِ .

* * *

وكتب خالدٌ إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى عبد الملك صانعاً بي ؟ قال : يعزلك ، قال : أتراه قاطعاً رحمي ؟ قال نعم ، أتتهُ هزيمة أميّة أخيكَ من البَحرَينْ . وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس .

قال ابو العباس : فكتب عبد الملك إلى خالدٍ :

أما بعدُ ، فإني كنت حدّدْتُ لك حـــداً في أمر المهلب ، فلما ملكتَ

أمرك نبذت طاعتي ، واستبددتَ برأيك ، فوليت المهلب الجباية ، ووليت أخاكَ حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأياً ، أتبعثُ غلاماً غِراً لم يجرّب الحروب للحرب ، وتتركُ سيداً شجاعاً مدبّراً حازماً قد مارس الحروب تشغله بالجباية ؟! أمَا والله لو كافأتُك على قدر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بقيّة لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَك فَلَفَتَتني عنك ؛ وقد جعلتُ عقوبتك عزلك .

وولى بشر بن مروان وهو بالكوفة وكتب إليه :

أما بعد ، فإنك أخو امير المؤمنين ، يجمعك وإياه مروان بن الحكم ، وإن خالداً لا مجتمَع له مع امير المؤمنين دون أميّة ، فانظر المهلب بن ابي صُفْرة ، فولّه حرب الأزارقة ، فإنه سيدٌ بطلٌ مجرّب ، فأمدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجلٍ .

فشقّ عليه ما أمره به في المهلب . وقال : والله لأقتلنّه ، فقال له موسى ابن نصير : ايها الأمير ! إن للمهلب حِفاظاً وبلاءً ووفاءً .

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة ، فكتب موسى وعكرمة إلى المهلب أن يتلقّاه لقاءً لا يعرفه به ، فتلقاه المهلب على بغلٍ ، فسلم عليه في غُمار الناس ، فلما جلس بشرٌ مجلسه قال : ما فعل أميركم المهلب ؟ قالوا : قد تلقّاك ايها الأمير وهو شاكٍ .

فهمّ بشرٌ أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجة : إنما ولاّك امير المؤمنين لترى رأيك ، فقال له عكرمة بن ربعيّ : اكتبْ إلى امير المؤمنين وأعلمه علة المهلب ، فكتب إليه يعلمه علة المهلب وأنّ بالبصرة من يُغني غناءَه ، ووجّه بالكتاب مع وفدٍ أوفدهم إليه رئيسهم عبد الله ابن حكيم المجاشعيُّ ، فلما قرأ الكتاب خلا بعبد الله بن حكيم فقال : إن لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلب ، قال : إنه

عليلٌ ، قال : ليست علته بمانعته ، قال عبد الملك : اراد بشرٌ أن يفعل ما فعل خالدٌ .

فكتب إليه يعزم عليه ان يولي المهلب ، فوجّه إليه ، قال المهلب : أنا عليلٌ ولا يمكنني الاختلاف ؛ فأمر بشرٌ بحمل الدواوين إليه فجعل ينتخب ، فاعترض بشرٌ عليه ، فاقتطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ان لايقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم وصاروا بالفرات ، فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شهارْطاق ، فأتاه شيخٌ من بني تميم فقال : أصلح الله الأمير ، إن سني ما ترى فهبني لعيالي ، قال : على ان تقول للأمير إذا خطب فحثّكم على الجهاد : كيف تحثنا على الجهاد وأنت تحبسُ أشرافنا واهل النجدة منا ؟ ففعل الشيخ ذلك ، فقال له بشر : وما أنتَ وذاك ؟ قال : لا شيء ، وأعطى المهلب رجلًا ألف درهمٍ على أن يأتي بشراً فيقول له : ايها الأمير أعِن المهلب بالشرطة والمقاتِلة ، ففعل الرجل ذلك ، فقال له بشر : ما انتَ وذاك ؟ قال : نصيحةٌ حضَرَتني للأمير والمسلمين ولا اعودُ إلى مثلها ، فأمدّه بالشرطة والمقاتِلة .

وكتب بشرٌ إلى خليفته بالكوفة ان يعقد لعبد الرحمن بن مِخْنَفٍ على ثمانية آلافٍ ، من كل رُبُعٍ ألفين ، ويوجّه به مدداً إلى المهلب ، فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنفٍ الأزْديّ فعقد له ، واختار له من كل رُبعٍ ألفين ، فكان على رُبع اهل المدينة بشر بن جريرٍ البَجَليُّ ، وعلى رُبع تميمٍ وهمدان عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانيّ ، وعلى رُبعِ كندة وربيعة محمد بن إسحق بن الأشعث الكندي ، وعلى مَذْحِجٍ وأسدٍ زَحْر بن قيسٍ المذْحجيُّ ، فقدموا على بشر ، فخلا بعبد الرحمن بن مخنفٍ ، فقال له : قد عرفتَ رأيي فيك وثقتي بك ، فكن عند ظني ، انظر هذا المزونيْ فخالفه في أمره ، وأفسد عليه رأيه ، فخرج عبد الرحمن بن مخنفٍ وهو يقول : ما اعْجبَ

ماطمع مني فيه هذا الغلام ! يأمرُني ان أصغّر شيخاً من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم ؟! فلحق بالمهلب .

• • •

فلما أحسّ الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات ، فاتّبعهم المهلب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها ، ثم تبعهم إلى رام هُرمُز فهزمهم منها ، فدخلوا فارس ، وابلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاءً حسناً ، تقدّم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، فلما صار القوم بفارس وجّه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صُبَيح : ايها الأمير ! إنه ليس برأيٍ لك قتل هذه الأكلُب ، ولئن — والله — قتلتهم لتقعُدَنّ في بيتك ، ولكن طاولهم وكُلْ بهم ، فقال : ليس هذا من الوفاء .

فلم يَلبَثْ برامَ هرمزَ إلا شهراً حتى أتاه موتُ بشرٍ ، فاضطرب الجندُ على ابن مِخنفٍ ، فوجّه إلى محمد بن إسحٰق بن الأشعثِ وابن زَحرٍ واستحلفهما أن لايبرَحا ، فحلفا له ، ولم يفيا ، فجعل الجندُ من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهلُ البصرة الانسلالَ من المهلب ، فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذُبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قومٌ وتسلّل منهم ناسٌ كثيرٌ .

وكان خالدُ بن عبد الله خليفة بشرِ بن مروانَ ، فوجّه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز ، يحلفُ فيه بالله مجتهـداً ، لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم وانصرفوا عُصاةً لايظفرُ بأحدٍ منهم إلا قتله ، فجاء مولاه فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى في وجوههم قبوله ، فقال : إني لأرى وجوهاً ما القبولُ من شأنها ! فقال له ابن زحْرٍ : أيُّها العبدُ ! اقرأ ما في الكتاب وانصرف إلى صاحبك ، فإنك لاتدري مافي أنفسنا ، وجعلوا يستعجلونه في قراءته ، ثم قصدوا قصداً الكوفة ، فنزلوا النُّخيلة ، وكتبوا إلى خليفة بشرٍ يسألونه أن يأذن لهم في الدخول ، فأبى ، فدخلوها بغير إذنٍ .

فلم يزلِ المهلبُ ومن معه من قوادهِ وابنُ مخنفٍ في عددٍ قليلٍ ، فلم ينشبوا أن ولّي الحجاجُ العراق ، فدخل الكوفة قبلَ البصرةِ ، وذلك في سنة خمسٍ وسبعين ، فخطبهم وتهدَّدهم ، وقد ذكرنا الخطبة متقدّماً ، ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تفعل بالعصاة ؟ فقالوا : كانت تضربُ وتحبسُ ، فقال الحجاجُ : ولكن ليس لهم عندي إلا السيف ، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغتِ المعصية لأهلها ما قوتل عـــدوٌ ولا جُبي فيءٌ ولا عزَّ دينٌ .

ثم جلسَ لتوجيه الناس ، فقال : قد أجّلتكم ثلاثاً ، وأُقسم بالله لايتخلف أحدٌ من اصحاب ابن مخنفٍ بعدها ولا مِن أهل الثُّغور إلا قتلتـهُ ، ثم قـال لصاحب حرسه وصاحبِ شرطه : إذا مضت ثلاثة أيامٍ فاتخذا سيوفكما عصياً ، فجاءهُ عمير بن ضابىءٍ البرجميُّ بابنه . فقال : أصلح الله الأمير ، إنّ هذا أنفع لكم مني ، هو أشدُّ بني تميمٍ أيْداً ، وأجمعهم سلاحاً ، وأربطهم جأشـاً ، وأنا شيخٌ كبيرٌ عليـــلٌ ، واستشهدَ جلساءه ، فقال له الحجاج : إنّ عذركَ لواضحٌ ، وإن ضعفك لبينٌ ، ولكني أكره أن يجترىء بك الناس علي ، وبعد فأنت ابن ضابىءٍ صاحب عثمان ، ثم أمر به فقتل ، فاحتمل الناس ، وإن أحدهم ليتّبع بزاده وسلاحه ، ففي ذلك يقول ابن الزبير الأسديُّ :

أقول لعبد الله يوم لقيتــــه ... أرى الأمر أمسى منصباً متشبّبا
تخيرْ فإمّا أنْ تزورَ ابن ضابىءٍ ... عُميراً وإمّـا أنْ تزورَ المهلّبا
هما خطّتا خسفٍ نجاؤكَ منهما ... ركوبك حولياً من الثلج أشهبا
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه ... يدَ الدهر حتى يترك الطفلَ أشيبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكانَ السُّوق أو هي أقربا

وهرب سوّار بن المضرب السّعدي من الحجاج وقال :

أقاتلي الحجاج إن لم أزرْ له ... دراب وأتركْ عند هندٍ فؤاديا

وقد مرت هذه الأبيات .

* * *

وخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان عليهم أشدّ إلحاحاً ، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمّل الناس قبل قدومه ، فأتاه رجلٌ من بني يَشكر ، وكان شيخاً كبيراً أعورَ ، وكان يجعل على عينه العوراء صوفةً ، فكان يلقب ذا الكرسفة ، فقال : أصلح الله الأمير إنّ بي فتقاً ، وقد عذرني بشرٌ ، وقد رددت العطاء . فقال : إنك عندي لصادقٌ ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ففي ذلك يقول كعبُ الأشقري أو الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربةً　　　تقرقرَ منها بطن كلّ عريف

ويروى عن ابي ميرةَ قال : إنا لنتغدى معه يوماً إذ جاء رجلٌ من بني سليمٍ برجلٍ يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ، إنّ هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشدك الله أيُّها الأمير في دمي ، فوالله ما قبضت ديوناً قط ، ولا شهدت عسكراً ، وإني لحائكٌ أُخذت من تحت الحفّ ، فقال : اضربوا عنقه ، فلما أحس بالسيف سجَد ، فلحقه السيف وهو ساجدٌ ، فأمسكنا عن الطعام ، فأقبل علينا الحجاج فقال : مالي أراكم صفرت أيديكم واصفرت وجوهكم وحد نظركم من قتل رجلٍ واحدٍ ؟! إنّ العاصي يجمع خلالاً : يخل بمركزه ، ويعصي أميره ، ويغرُّ المسلمين من نفسه وهو أجيرٌ لهم ، وإنما يأخذ الأجرة لما يعمل ، والوالي مخير فيه إن شاء قتل وان شاء عفا .

ثم كتب الحجاج الى المهلب : أمّا بعد ، فإن بشراً رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غناءه عنك ، وأنا أُريك حاجتي اليك ، فأرني الجد في قتال عدوك ، ومن خفته على المعصية ممّن قبلك فاقتله ، فإني قاتلٌ من قبلي ومن كان عندي من وليّ من هرب عنك فأعلمني مكانه ، فإني أرى أن آخذ الوليّ بالوليّ ، والسميّ بالسميّ .

فكتب اليه المهلب : ليس قبلي الا مطيعٌ ، وان الناس إذا خافوا العقوبة كبّروا الذّنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنبَ ، وإذا يئسوا من العفو

أكفرهم ذلك ، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاةً ، فإنما هم فرسانٌ أبطالٌ ، أرجو أن يقتلَ الله بهم العدو ونادمٌ على ذنْبه .

* * *

فلما رأى المهلب كثرةَ الناس عليه قال : اليوم قوتل هذا العدو . ولما رأى ذلك قطريٌ قال : انهضوا بنا نريد السّردان فنتحصّنُ فيها ، فقال عبيدة بن هلالٍ : أو نأتي سابورَ ، وخرج المهلب في آثارهم ، فأتى أرجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصّنوا بالسّردان ، وليست بمدينةٍ ، ولكنْ جبالٌ محدقةٌ منيعةٌ ، فلم يصبْ بها أحداً ، فخرج نحوهم فعسكر بكازرون ، واستعدوا لقتاله ، وخندق على نفسه ، ثم وجّه إلى عبد الرحمن بن مخنفٍ : خندقْ على نفسك ، فوجّه إليه : خنادقنا سيوفنا ، فوجه إليه المهلّب : إني لا آمن عليك البيات ، فقال ابنه جعفرٌ : ذاك أهون علينا من ضرطة جملٍ ! فاقبل المهلّب على ابنه المغيرة فقال : لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة ، فلما أصبح القوم غادوه الحرب ، فبعث إلى مخنفٍ يستمده ، فأمده بجماعةٍ ، وجعل عليهم ابنه جعفراً ، فجاؤا وعليهم أقبيةٌ بيضٌ جددٌ ، فقاتلوا يومئذٍ حتى عرف مكانهم ، وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذٍ كبلاء الكوفيين أو أشد ، ثم نظر إلى رئيسٍ منهم يقال له صالح بن مخراقٍ ، وهو ينتخبُ قوماً من جلّةِ العسكر ، حتى بلغوا أربعمائةٍ ، فقال لابنه المغيرة : ما يعدُّ هؤلاء إلا للبيات ، وانكشف الخوارج والأمر للمهلّب عليهم ، وقد كثر فيهم القتل والجراح .

* * *

وقد كان الحجاج في كل يومٍ يتفقد العصاة ويوجه الرجال ، فكان يحبسهم نهاراً ، ويفتح الحبس ليلًا ، فينسل الناس إلى ناحية المهلب ، وكأن الحجاج لا يَعلم ، فإذا رأى اسراعهم تمثّل :

إن لها لسائقاً عَشَنْزَرا ... إذا وَنَيْنَ ونْيةً تغشمرا

العشنزر « الصُّلب » و « التغشْمر » ركوب الرأس ، و « المتغشمر » الجاد على ما خيَّلت .

وكتب إلى المهلب ِمن قبْل الوقعة : أما بعد ، فإنه بلغني أنك أقبلتَ على جباية الخراج ، وتركت قتال العدوّ ، وإني ولَّيتكَ وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيمٍ المجاشعي وعباد بن حصينٍ الحبطي ، واخترتك وأنت من أهل عمان ، ثم رجلٌ من الأزدِ ، فالقهم يوم كذا في مكان كــذا ، والا أشرعت اليك صدْرَ الرمح !!

فشاور بنيه فقالوا : انه أميرٌ ، فلا تغلظ عليه في الجواب .

فكتب اليه المهلب : ورد علي كتابك تزعم أني أقبلت على جبـاية الخراج وتركت قتال العدوّ ، ومن عجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدوّ أعجز ، وزعمت أنك وليتني وأنت َترى مكان عبد الله بن حكيمِ المجاشعي وعبَّاد بن حصين الحبطي ، ولو ولَّيتهما لكانا مستحقين لذلك في فضلهما وغنائهما وبطشهما ، واخترتني وأنا رجلٌ من الأزد ، ولعمري انّ شراً من الأزد لقبيلةٌ تنازعها ثلاث قبائل ، لم تستقر في واحدةٍ منهن ، وزعمت أني ان لم القهم فيوم كذا في مكان كذا اشرعت الى صدر الرمح ، فلو فعلت لقلبت اليك ظهر المجنّ ، والسلام .

ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الخوارج قال المهلب لابنــه المغيرة : إني أخافُ البيات على بني تميمٍ ، فانهض إليهم فكنْ فيهم ، فأتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلالٍ : يا أبا حاتمٍ ! أيخاف الأمير أن يؤتى من ناحيتنا ؟ قل له فليبت آمناً فإنــّا كافوه ما ِقبَلَنا إن شاء الله . فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالحُ بن ِمخراقٍ في القوم الذين أعدّهم إلى ناحية بني تميم ، ومعه عبيدة بن هلالٍ وهو يقول :

إني لمُذْكٍ للشُّراة نارها ومانعٌ ممّن أتاها دارها

وغاسلٌ بالطّعن عنها عارّها

فوجد بني تميمٍ أيقاظـــاً متحارسين ، فخرج إليهم الحريش بن هلالٍ ، وهو يقول :

لقد وجدتم وُقُراً أنجادا لا كُشُفا ميلًا ولا أوغادا
هيهاتَ لا تلفونَنا رُقَّادا لا بل إذا صيح بنا آسادا

ثم حمل على القوم فرجعوا عنه ، فاتبعهم وصاح بهم : إلى أين يا كلاب النار ؟ فقالوا : إنما أُعدَّت النـــار لك ولأصحابك . فقال الحريش : كل مملوكٍ لي حرٌّ إن لم تدخلوا النار إنْ دخلها مجوميٌّ فيما بين سَفَوان وخراسان .

قوله « وجدتم وُقراً » : جمع وُقورٍ . و « النَّجْـد » ضد البليد ، وهو المتيقّظ الذي لا كسل عنده ولا فتور . و « الامْيل » فيـه قولان ؛ قالوا : الذي لا يستقرُّ على الدابة ، وقالوا : هو الذي لا سيف معـه . و « الأكْشَف » الذي لا تُرْس معه . و « الأجمُّ » الذي لا رُمح معه . و « الحاسر » الذي لا درع عليه . و « الأعزل » الذي لا يتقوَّم على ظهر الدابة . و « الوغد » الضعيف .

ثم قال بعضهم لبعضٍ : نأتي عسكر ابن مخنفٍ فإنه لاخندق عليهم ، وقد تعب فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أنّا أهون عليهم من ضرطة جملٍ ، فأتوهم ، فلم يشعر ابنُ مخنفٍ وأصحابه بهم إلا وقـد خالطوهم في عسكرهم ، وكان ابن مخنفٍ شريفاً ، يقول رجلٌ من غامدٍ لرجـــل يعاتبه ويضربُ بابن مخنفٍ المثلَ :

تروحُ وتغدو كلَّ يومٍ معظماً كأنك فينا مخنفٌ وابن مخنف

فترجل عبد الرحمن بن مخنفٍ فجالدهم فقُتل ، وقتل معه سبعون من القراء ، فيهم نفرٌ من أصحاب عليٍّ بن أبي طالبٍ صلوات الله عليه ، ونفرٌ من أصحاب ابن مسعودٍ ، وبلغ الخبر المهلبَ ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنفٍ عند المهلب ، فجاءهم مغيثاً ، فقاتلهم حتى ارتثَّ وصُرع ، ووجَّه المهلب إليهم ابنه حبيباً فكشفهم ، ثم جـــاء المهلبُ حتى صلى على ابن مخنفٍ وأصحابه رحمهم الله ، وصار جنده

في جندِ المهلبِ ، فضمهم إلى ابنه حبيبٍ ، فعيرهم البصريون ، فقال رجلٌ لجعفر ابن عبد الرحمن :

تركت أصحابنا تدمى نحورهم وجئتَ تسعى إلينا خضفة الجملِ

قوله « خضفة الجملِ » يريد ضرطة الجملِ ، يقال خضفَ البعيرُ ، وأنشدني الرياشيُّ لأعرابيٍّ يذمُّ رجلًا اتخذ وليمةً :

إنا وجدنا خلفاً بئس الخلفْ أغلقَ عنــا بابهُ ثم حلف

لا يُدخل البوابُ إلا من عرفْ عبدٌ إذا ما ناء بالحملِ خضفْ

يقال « ناء بحملهِ » إذا حمله في ثقلٍ وتكلُّفٍ ، وفي القرآن : (ما إن مفاتحهُ لتنوءُ بالعصبة أُولي القوةِ) والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتيح ، وقد مضى تفسير هذا ، وتقول العرب « حبج الرجل وحبق وخضَف وردم » كل ذلك إذا ضرط .

فلامهم المهلب ، وقال : بئسما قلتم ، واللهِ ما فروا ولا جبنوا ، ولكنهم خالفوا أميرَهم ، أفلا تذكرون فراركم يوم دولاب ، وفراركم بدارس عن عثمان ، وفراركم عني ؟!

* * *

ووجَّه الحجــاجُ البراء بن قبيصة إلى المهلبِ يستحثُّه في مناجزة القوم ، وكتب إليه انك لتحبُّ بقاءهم لتأكل بهم . فقال المهلب لأصحابه : حرِّكوهم ، فخرج فرسانٌ من أصحابه إليهم ، فخرج إليهم من الخوارج جمعٌ ، فاقتتلوا إلى الليل ، فقال لهم الخوارج : ويلكم أما تملُّون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملُّوا ، قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميمٌ ، قالت الخوارج : ونحن بنو تميم ، فلما أمسوا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرةٌ من أصحاب المهلب وخرج إليهم عشرة من الخوارج ، فاحتفر كل واحدٍ منهم حفيرةً وأثبت قدمه فيها ، فكلما قُتلَ رجلٌ جاء رجلٌ من أصحابه فاجترهُ ووقف مكانه ، حتى أعتموا ، فقال لهم

الخوارجُ : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ! من أنتم ؟ فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم ، فرجع البراءُ بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال له : مهْ ؟ قال : رأيت قوماً لا يعينُ عليهم إلا الله .

وكتب إليه المهلب : إني منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موتٌ ذريعٌ ، أو جوعٌ مضرٌ ، أو اختلافٌ من أهوائهم .

وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحــدٍ ، كان يتولى ذلك بنفسه ، ويستعين بولده وبمن يحل محلهم في الثقة عنده .

وقال أبو حرملة العبدي يهجو المهلب :

عدمتكَ يامهلب من أميرٍ أما تندى يمينك للفقيرِ
بدولابٍ أضعت دماءَ قومٍ وطرت على مواشكةٍ درور

فقال المهلبُ ويحك ! والله اني لأقيكم بنفسي وولدي ، قال : جعلني اللهُ فداء الأمير ، فذاك الذي نكره منك ، ما كلُّنا يحبُ الموت ، قال ويحك ! وهل عنه محيصٌ ؟ قال : لا ، ولكنا نكره التعجيل ، وأنت تقدم عليه إقداماً ، قال المهلب : أما سمعت قول هبيرة الكلحبة اليربوعيِّ :

فقلت لكأسٍ ألجميها فإنما نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا؟

قال : بلى والله قد سمعته ، ولكنْ قولي أحب الي منه ، وهو :

فلما وقفتم غدوةً وعدُوكم الى مهجتي ولّيتُ أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفلْ مقالة عاجزٍ يسافي المنايا بالرُّدينيةِ السُّمرِ

فقال له المهلبُ : بئس حشو الكتيبة والله أنت ! فإن شئتَ أذنت لك فانصرفت الى أهلك ؟ فقال : بل أُقيمُ معك أيُّها الأمــير ، فوهب له المهلبُ وأعطاه ، فقال يمدحه :

يرى حتماً عليـــه أبو سعيدٍ جِلادَ القوم في أُولى النَّفيرِ
اذا نادَى الشُّراةُ أبا سعيدٍ مشى في رفل مُحكمةِ القتيرِ

« الرَّفلُ » الذَّيل .

وقال المهلبُ : ما يسرني أن في عسكري ألف شجاعٍ بدل بيهس بن صهيبٍ ، فيقال له : أيها الأميرُ ! بيهسٌ ليس بشجاعٍ ، فيقول : أجلْ ، ولكنه سديد الرأي محكمُ العقلِ ، وذو الرأي حذرٌ سؤولٌ ، فأنا آمنُ أن يغتفل ، فلو كان مكانه ألف شجاعٍ قلت انهم ينشامون حتى يحتاج اليهم .

ومَطرت السماءُ ليلةً مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلّب وبين الشراة عقبةٌ ، فقال المهلّبُ : من يكفينا هذه العقبةَ الليلة ؟ فلم يقم أحدٌ ، فلبس المهلبُ سلاحه وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرةُ . فقال رجلٌ من أصحابه يقال له عبد الله : دعانا الأميرُ إلى ضبط العقبة ، والحظ في ذلك لنا ، فلم نطعه، فلبس سلاحَه واتّبعه جماعةٌ من أهل العسكر فصاروا اليه ، فاذا المهلب والمغيرة لاثالث لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأميرُ فنحن نكفيك إن شاء الله ، فلما أصبحوا إذا بالشُّراة على العقبة ، فخرج اليهم غلام من أهل عمان على فرس ، فجعل يحمل وفرسهُ يزلق ، وتلقاه مدركُ بن المهلب في جماعةٍ معه حتى ردهم .

فلما كان يومُ النّحر والمهلب على المنبر يخطب الناسَ إذا الشُّراة قد تألبوا ، فقال المهلّب : سبحانَ اللهِ ! أفي مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرةُ اكفنيهم ، فخرج اليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نجدٍ القُردوسيُّ ، وكان سعد بشجاعاً متقدّماً في شجاعته ، وكان المهلب إذا ظنّ برجلٍ أنّ نفسه قد أعجبته قال له : لو كنتَ سعدَ بن نجدٍ القردُوسي ما عدا - وقردوسٌ من الأزدِ - فخرجَ أمامَ المغيرة ، وتبع المغيرة جماعةٌ من فرسان المهلب ، فالتقوا ، وأمام الخوارج غلامٌ جامع السلاحِ ، مديدُ القامة ، كريهُ الوجه ، شديد الحملة ، صحيح الفروسية، فأقبل يحمل على الناس وهو يقول :

نحن صبحناكمْ غداةَ النّحر ... بالخيلِ أمثالِ الوشيج تجري

فخرج إليه سعد بن نجدٍ القردوسي من الأزد ، ثم تجاولا ساعةً ، فطعنه سعدٌ فقتله ، والتقى الناس ، فصرع يومئذٍ المغيرة ، فحامى عليه سعد بن نجدٍ وذبيان السّختياني وجماعةٌ من الفُرسان حتى ركب ، وانكشف الناس عند سقطةِ

المغيرة ، حتى صاروا إلى أبيه المهلب ، فقالوا : قتِلَ المغيرة ، ثم أتاه ذبيان السَّختياني ، فأخبره بسلامته ، فأعتق كلَّ مملوكٍ كان بحضرته .

* * *

ووجّه الحجاج الجرَّاحَ بن عبد الله إلى المهلب يستبطئه في مناجزة القوم ، وكتبَ إليه : أما بعد ، فإنك جبَيتَ الخراج بالعِللِ ، وتحصّنت بالخنادق ، وطاولتَ القومَ ، وأنت أعز ناصراً ، وأكثر عدداً ، وما أظن بك مع هذا معصيةً ولا جُبْناً ، ولكنك اتخذت أُكلًا ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ، فناجِزهم وإلا أنكرتني ، والسلام .

فقال المهلب للجرَّاح : يا أبا عُقبة ! والله ما تركت حيلةً إلا احتلتها ، ولا مكيدةً إلا أعملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكنّ العجبَ أن يكونَ الرأي لمن يملكُه دونَ من يبصره !! ثم ناهضهم ثلاثة أيامٍ ، يغادِيهم القتالَ ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرحٌ ، وبالخوارج قرحٌ وقتلٌ ، فقال له الجرَّاج : قد أعذرت .

فكتبَ المهلبُ إلى الحجاج : أتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم ، على أنك لاتظن بي معصيةً ولا جبناً ، وقد عاتبتني معاتبة الجبان ، وأوعدتني وعيدَ العاصي ، فاسئل الجراح ، والسلام .

فقال الحجّاج للجراح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال والله مارأيت أيها الأمير مثله قط ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، ولقد شهدت أصحابه أياماً ثلاثةً يغدون إلى الحربِ ثم ينصرفون عنها وهم بها يتطاعنون بالرماح ويتجالدون بالسُّيوف ويتخابطون بالعمَدِ ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً ، رَواحَ قومٍ تلك عادتهم وتجارتهم . فقال له الحجاج : لشدَّ ما مدحته أبا عقبة ! قال : الحق أولى .

وكانت ركب الناس قديماً من الخشب ، فكان الرجل يضرب ركابه فينقطع ، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمدٌ ، فأمر المهلب فضربت الركب من الحديد ، وهو أول من أمر بطبعهـا ، ففي ذلك يقول عمران بن عصام العنزي :

ضربوا الدراهم في إمارتهم وضربتَ للحدثان والحرب
حَلقاً ترى منها مرافقهم كمناكب الجمّالة الجرب

* * *

وكتب الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء الرّياحي ، من بني رياح بن يربوع بن حنظلة ، وهو والي أصبهان : يأمره بالمسير إلى المهلّب وأن يضمَّ اليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ، فكل بلدٍ تدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلّب أمير الجماعة فيه ، وأنتَ على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلداً فتحه لأهل الكوفه فأنتَ أمير الجماعة فيه ، والمهلّب على أهل البصرة .

نقدمَ عتّابٌ في إحدى جماديين من سنة ستٍّ وسبعين على المهلّب ، وهو بسابورَ ، وهي من فتوح أهل البصرة فكان المهلّب أميرَ الناس ، وعتابٌ على أصحاب ابن مخنفٍ ، والخوارج في أيديهم كرمان ، وهم بإزاء المهلب بفارسَ يحاربونه من جميع النواحي .

فوجّه الحجاج إلى المهلّب رجلين يستحثّانه مناجزة القوم ، أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن ، من بني عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبي عقيل جدّ الحجاج ، فضم زياداً إلى ابنه حبيبٍ ، وضم الثقفي إلى يزيد ابنه ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة ، فغادَوا الخوارج فاقتتلوا أشد قتالٍ ، فقتل زياد بن عبد الرحمن ، وفقد الثقفي ، ثم باكروهم في اليوم الثاني وقد وجد الثقفي فدعا به المهلب ودعا بالغداء ، فجعل النّبل يقع قريباً منهم ، والثقفي يعجب من أمر المهلب ، فقال الصّلتان العبدي :

ألا يا اصبحاني قبل عوق العوائق وقبل اخترامِ القوم مثل العقائق

غداة حبيبٌ في الحديد يقودنا　　تخوض المنايا في ظلال الخوافق
حرونٌ إذا ما الحرب طار شرارها　　وهاج عجاج الحرب في البوارق
فمن مبلغ الحجاج أنَّ أمينه　　زياداً أطاحته رماح الأزارق

قوله « وقبل اختراط القوم مثل العقائق » يعني السيوف و « العقائق » جمع عقيقةٍ ، يقال سيف كأنه عقيقة برقٍ ، أي كأنه لمعة برقٍ ، ويقال انعقَّ البرق اذا تبسَّم ، وللعقيقة مواضع ، يقال فلانٌ بعقيقة الصبي ، أي بالشَّعَر الذي ولد به لم يحلقه ، ويقال عققت الشيء أي قطعته ، ومن ذا فلان يعق أبويه ، وكذا عَققتُ عن الصبي ، اذا ذبحت عنه ، وقال أعرابيٌّ :

ألم تعلمي يادارَ بلجاء أنني　　إذا أجدبتْ أو كان خصباً جنابها
أحبُّ بلادِ الله ما بين مشرفٍ　　إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تميمتي　　وأولُ أرضٍ مسَّ جلدي ترابها

فلم يزلْ عتَّابُ بن ورقاء مع المهلَّب ثمانية أشهرٍ ، حتى ظهرَ شبيبٌ ، فكتب الحجاج إلى عتابٍ يأمره بالمصير إليه ليوجِّهه إلى شبيب ، وكتب إلى المهلب يأمره بأن يرْزُق الجندَ ، فرزق المهلبُ أهلَ البصرة ، وأبى أن يرزقَ أهل الكوفة ، فقال له عتابٌ : ما أنا ببارحٍ حتى ترزق أهل الكوفة ، فأبى ، فجرت بينهما غلظةٌ ، فقال عتابٌ : قد كان يبلغني أنك شجاعٌ فرأيتك جباناً ، وكان يبلغني أنك جوادٌ فرأيتك بخيلاً ، فقال له المهلَّبُ : يا ابن اللَّخناء ! فقال له عتَّابٌ : لكنَّك معمٌّ مخولٌ !! فغضبت بكر بن وائلٍ للمهلب للحلفِ ، ووثبَ ابنُ نعيمٍ بن هبيرةَ بن أبي مصقلةَ على عتَّابٍ فشتمه ، وقد كان المهلب كارهاً للحلفِ ، فلما رأى نُصرة بكر بن وائل له سرَّهُ الحلف واغتبط به ، ولم يزل يؤكِّده ، فغضبت تميمُ البصرةِ لعتاب ، وغضبت أزدُ الكوفة للمهلب .

قال أبو العباس : تحالف الأزْدُ وربيعةُ بعد الإسلام ، وادَّعوا أن ذلك كان قديماً في الجاهلية ، لقول النبي عليه السلام : « لاحلف في الإسلام ، وكلُّ حلفٍ في الجاهلية فلن يزيدَه الإسلام إلا شدَّةً » . والحلفُ العهد والصحبة ،

والحليفُ الصاحبُ . وإنما نهى رسولُ الله ﷺ عن الحلف في الإسلام لِئلا يُعين مسلمٌ على مسلمٍ ، فأمّا ما مضى فقد ثبتَ به حُرمةٌ لايزيدُها الإسلامُ إلا شدةً .

فلما رأى ذلك المغيرةُ بن المهلّب مَشى بين أبيه وبين عتّابٍ ، فقال لعتّابٍ : ياأبا ورقاء ! إن الأمير بصيرٌ لك إلى كلِّ ماتحبُّ ، وسأل أباه أن يرْزُقَ أهل الكوفة ، فأجابه ، فصلح الأمر ، فكانت تميمٌ قاطبةً وعتابُ بن ورقاء يحمدون المغيرةَ بن المهلب ، وقال عتابٌ : إني لأعرفُ فضله على أبيه ، وقال رجلٌ من الأزد من بني إياد بن سودٍ :

ألا أبلغ بني ورقاء عنّا ... فلولا أنّنا كُنّا غِضابا
على الشيخِ المهلب إذْ جفانا ... للاقَتْ خيلُكم مِنّا ضِرابا

• • •

وكان المهلّب يقولُ لبنيه : لاتبدؤُهم بقتالٍ حتى يبدؤكم فيبغوا عليكم ، فإنهم إذا بغوا نُصرتم عليهم .

فشخَصَ عتاب بن ورقاء إلى الحجاج في سنة سبعٍ وسبعين ، فوجّهه الى شبيبٍ ، فقتله شبيبٌ ، وأقام المهلب على حربهم ، فلما انقضى من مُقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا .

وكان سببُ اختلافهم أن رجلًا حداداً من الأزارقة كان يعملُ نِصالاً مسمومة ، فيرمي بها أصحاب المهلب ، فرُفِعَ ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجّه رجلًا من أصحابه بكتابٍ وألف درهمٍ إلى عسكرِ قطريٍّ فقال : ألقِ هذا الكتاب في عسكر قطري واحذَرْ على نفسك ، وكان الحدادُ يقال له أبزى ، فمضى الرسولُ ، وكان في الكتاب : أما بعدُ ، فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهتُ إليك بألف درهمٍ ، فاقبضها وزدنا من هذه النِّصال . فوقع الكتابُ والدراهم إلى قطري ، فدعا بأبزى ، فقال : ماهذا الكتابُ ؟ قال : لا أدري ، قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلمُ عِلمها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبدُ ربّه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له : أقتلت

رجلاً على غير ثقةٍ ولا تبيُّنٍ ؟! فقال له : ما حالُ هذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذباً ويجوز أن يكون حقاً ، فقال له قطريٌّ : قتلُ رجلٍ في صلاح الناس غيرُ منكرٍ ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكَّر له عبد ربه في جماعةٍ معه ، ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدَسَّ إليه رجلاً نصرانياً ، فقال له : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل : إنما سجدتُ لك ، ففعل النصرانيُّ ، فقال له قطري : إنما السجودُ لله ، فقال : ماسجدت إلا لك ، فقال له رجلٌ من الخوارج : قد عبدك من دون الله ، وتلا : (إنكم وما تعبُدون من دون الله حصبُ جهنم ، أنتم لها واردون) فقال قطريٌّ : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذمياً ؟! فاختلفت الكلمة فبلغ ذلك المهلب ، فوجَّه اليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدَّم به اليه ، فأتاهم الرجلُ فقال : أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدُهما في الطريق وبلغكم الآخرُ فامتحنتموه فلم يجز المحنة ، ماتقولون فيها ؟ فقال بعضهم : أما الميتُ فمؤمنٌ من أهل الجنة ، وأما الآخرُ الذي لم يجز المحنة فكافرٌ حتى يجيزها ، وقال قومٌ آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلافُ .

* * *

فخرج قطري إلى حدود إصطخر ، فأقام شهراً والقومُ في اختلافهم ، ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن مخراقٍ : يا قوم ! إنكم قد أقررتم أعين عدوِّكم وأطعمتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا فنادى : يا أيها المحلُّون : هل لكم في الطراد فقد طال العهد به ؟ ثم قال :

ألم ترَ أنا مُذْ ثلاثون ليلةً ... قريبٌ وأعداءُ الكتاب على خفضٍ

فتهايج القومُ وأسرعَ بعضهم إلى بعضٍ ، فأبلى يومئذ المغيرةُ بن المهلبِ ، وصار في وسط الأزارقة ، فجعلت الرِّماحُ تحطُّـهُ وترفعه ، واعتورت رأسَه السُّيوفُ ، وعليه ساعدُ حـديدٍ ، فوضع يده على رأسِه ، فجعلت السيوف لاتعملُ فيه شيئاً ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرع ، وكان الذي صرعهُ عبيدة بن هلالٍ ، وهو يقولُ :

أنا ابنُ خيرِ قومه هـلالِ　　　شيـخٍ على دين أبي بـلالِ

وذاك ديني آخر الليالي

فقال رجلٌ للمغيرة : كُنّا نعجبُ كيف تُصرعُ ، والآن نعجبُ كيف تَنْجو !!

وقال المهلب لبنيه : إنّ سَرْحكم لغارٌ ، ولستُ آمنهم عليه ، أفوكّلتم به أحداً ؟ قالوا : لا ، فلم يستتمَّ الكلام حتى أتاه آتٍ فقال : إنّ صالح بن مخراق قد أغار على السَّرح ، فشق ذلك على المهلبِ ، وقال : كلُّ أمرٍ لا أليه بنفسي فهو ضائعٌ ، وتذمَّر عليهم ، فقال له بشرُ بن المغيرة : أرِح نفسك ، فإن كنت إنما تريدُ مثلك فوالله لا يعدلُ أحدنا شِسع نعلك ، فقال : خذوا عليهم الطريق ، فثار بشرُ بن المغيرة ومدركٌ والمفضلُ ابنا المهلب ، فسبق بشرٌ إلى الطريق ، فإذا رجلٌ أسودُ من الأزارقة يشلُّ السَّرح ، أي يطرُده ، وهو يقول :

نحن قمعناكم بشلِّ السَّرح　　　وقد نكأنا القرح بعدَ القرح

« الشَّلُّ » الطـَّرد . ويقال « نكأت القرْحَـة » مهموزٌ ، و « نكيْت العدوَّ » غير مهموزٍ من النـِّكاية ، و « نكأت القرحة نكـأ » قال ابن هَرْمة :

ولا أراها تزال ظالمـةً　　　تُحدث لي قرْحةً وتنكؤها

ولحقه المفضل ومدركٌ ، فصاحا برجل من طيىءٍ : اكفنا الأسود ، فاعتوره الطائيُّ وبشرُ بن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلاً من الأزارقة ، فقال له المهلب : ممّن الرجل ؟ قال : رجلٌ من همدان ، قال : إنك لشَين همدان ، وخلى سبيله .

قال : وكان عياشٌ الكنديُّ شجاعاً بئيساً . فأبلى يومئذٍ ، ثم مات على فراشه بعد ذلك . فقال المهلب : لا وألَتْ نفس الجبان بعد عياشٍ .

وقال المهلب : ما رأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم .

• • •

ووجَّه الحجاج إلى المهلب رجلين ، أحدهما من كلب ، والآخر من سليمٍ ، يستحثّانه بالقتالِ ، فقال المهلب متمثلاً :

ومستعجبٍ مما يرى من أناتنا ... ولو زبنَتْه الحرب لم يترمرمِ

الشعر لأوس بن حَجَر .

وقوله « زبنَته » يقول : دفعته . و « لم يترمرمِ » أي لم يتحرَّك ، يقال : قيلَ له كذا وكذا فما ترمرم .

وقال ليزيدَ : حرِّكهم ، فحرَّكهم فتهايجوا ، وذلك في قريةٍ من قرى إصطخر ، فحمل رجلٌ من الخوارج على رجلٍ من أصحاب المهلب فطعنه ، فشكّ فخذه بالسّرج ، فقال المهلب للسُّلمي والكلبي : كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وحَمل يزيد عليهم وقد جاء الرقاد ، وهو من فرسان المهلب وهو أحد بني مالك بن ربيعة ، على فرسٍ له أدهم ، وبه نيفٌ وعشرون جراحةً ، وقد وضع عليها القطن ، فلما حَمل يزيد ولى الجمع وحامى فارسان ، فقال يزيد لقيسٍ الخشني مولى العتيك : من لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليها ، فعطف عليه أحدهما ، فطعنه قيسٌ الخشني فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعاً إلى الأرض ، فصاح قيسٌ الخشني ، اقتلونا جميعاً ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزوا بينهما ، فإذا معانقه امرأةٌ ! فقام قيسٌ مستحيياً ، فقال له يزيد : أمّا أنت فبارزتها على أنها رجلٌ ، فقال : أرأيت لو قُتلتُ أما كان يقال قتَلته امرأةٌ ؟!

وأبلى يومئذٍ ابن المنجب السّدوسي ، فقال له غلامٌ له يقال له خلاجٌ : والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرّهم فأستلب مما هناك جاريتين ،

فقال له مولاه : وكيف تمنّيت اثنتين ؟ قال : لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى !

فقال ابن المنجب :

أخلاج إنك لن تعانق طفلةً ... شرقاً بها الجادي كالتمثال
حتى تلاقي في الكتيبة معلماً ... عمرو القنا وعبيدة بن هلال
وترى المقعطر في الكتيبة مقدماً ... في عصبةٍ قسطوا مع الضُّلالِ
أو أن يُعلكَ المهلب غزوةً ... وترى جبالا قد دنت لجبالِ

* * *

قوله « طفلةٌ » يقول ناعمةٌ ، وإذا كسرت الطاء فقلت « طِفلةٌ » فهي الصغيرة . و « الجاديُّ » الزعفران . « الكتيبة » الجيش ، وإنما سمي الجيشُ كتيبةً لانضمام أهله بعضهم إلى بعضٍ ، وبهذا سمي الكتاب ، ومنه قولهم كتبْتُ البغلة والناقة إذا خرزت ذلك الموضع منها وكتبْتُ القربة . و « المعلمُ » الذي قد شهر نفسه بعلامةٌ ، إما بعمامة صبيغٍ ، وإما بشهرةٍ ، وإما بغير ذلك . وكان حمزةُ بن عبد المطلب رضوانُ الله عليه مُعلَما يوم بدرٍ بريشة نعامةٍ في صدره ، وكان أبو دجانة ، وهو سماكُ بن خرشة الأنصاريُّ ، يوم أحدٍ لما قال رسول الله ﷺ « من يأخذُ سيفي هذا بحقّهِ ؟ قالوا : وما حقّه يارسول الله ؟ قال : أن يضرب بــه في العدوّ حتى ينحني ، فقال أبو دُجانة : أنا ، فدفعَه إليه ، فلبس مشهّرة فأعلم بها ، وكان قومه يعلمون لما بلوا منه أنه إذا لبس تلك المشهرةَ لم يبق في نفسه غايةٌ ، ففعل ، وخرج يمشي بين الصفّين ، فقال رسول الله ﷺ : انها لمشيةٌ يبغضها اللهُ عزّ وجلّ الا في مثل هذا الموضع » . ويروى « أنّ رسول الله ﷺ سمعَ عليّاً صلوات الله عليه يقول لفاطمة ورمى اليها بسيفه فقال : هاك حميداً فاغسلي عنه الدم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال اليومَ لقد صدقــهُ معك سماكُ بن خرشةَ وسهلُ بن حنيفٍ والحرث بن الصّمّةِ » وفي بعض الحديث « وقيسُ بن الربيــعِ » وكل هؤلاء من الأنصارِ .

* * *

عاد الحديث إلى ذكر الخوارج

وعمرو القنا من بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدةُ بن هلالٍ من بني يشكُرَ بن بكر بن وائلٍ ، والذي طعن صاحب المهلب في فخذه فشكها مع السَّرجِ من بني تميمٍ ، قال : ولا أدرِي أعمروٌ هو أم غيرُه ، والمقعْطرُ من عبدِ القيسِ .

وقوله « قسطُوا » أي جاروا ، يقال قسط يَقسط فهو قاسطٌ ، إذا جار ، قال اللهُ جل ثناؤه : (وأمّا القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) . ويقال أقسط يُقسطُ فهو مُقسطٌ ، اذا عدلَ ، قال الله تعالى : (إن اللهَ يحب المقسطين) .

وكان بدر بن الهُذيلِ شجاعاً ، وكان لحّانةً ، فكان اذا أحسّ بالخوارج نادَى : ياخيل الله اركبي ! وله يقول القائل :

واذا طلبت الى المهلبِ حاجة عرضت توابع دونه وعبيد
العبد كردوسٌ وعبدٌ مِثله وعلاج بابِ الأحمرَينِ شديد

« كرْدوسٌ » رجلٌ من الأزدِ ، وكان حاجب المهلبِ . وقوله « وعلاج بابِ الأحمرين شديد » العرب تسميّ العجم الحمراء ، وقد مرَّ تفسيرُ ذا . وقوله « توابع » أراد به الرجال ، فجاز في الشّعْر ، وانما رده الى أصله للضّرورة ، وما كان من النعوت على « فاعلٍ » فجمعه « فاعلون » لئــلا يلتبسَ بجمع « فاعلةٍ » التي هي نعتٌ ، وقد قلنا في هذا ولم قالوا « فوارس » و « هالكٌ في الهوالك » .

وكان بشر بن المغيرة أبلى يومئذٍ بلاءً حسناً عُرف مكانه فيه ، وكانت بينه وبين بني المهلبِ جفوةٌ ، فقال لهم : يابني عمٍّ ! اني قد قصّرت عن شكاة العاتبِ ، وجاوزت شكاة المستعتب ، حتى كأني لا موصولٌ ولا محرومٌ ، فاجعلوا لي فرجةً أعشْ بها ، وهبوني امرأً رجوتم نصرهُ أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلموا فيه المهلب فوصله .

وولى الحجاج كردماً فارس ، فوجّهه الحجاج اليها والحرب قائمةٌ ، فقال رجلٌ من أصحاب المهلب .

ولو رآها كردمٌ لكرْدَما كرْدَمةَ العَيْرِ أحسَّ الضَّيغما

« الضَّيْغم » الأسد . « والكردمة » النُّفور .

* * *

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودَرَاب جَرْد لأرزاق الجند ، ففعل ، وقد كان قطريٌّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره ، وأراد مثل ذلك بمدينـــة فسا ، فاشتراها منه آزادْ مَرْدُ بن الهِرْبذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها ، فواقعه المهلب فهزمه ، ونفاه إلى كرمان واتّبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفاً وجّه به الحجـــاج إلى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به ، فرجع به المغيرة إليه وقد دَمّاه ، فسرّ المهلب بذلك وقال : ما يسرُّني أن أكونَ كنتُ قد دفعته إلى غيرك من ولدي ، اكفني جباية خراج هاتين الكورتين ، وضمّ إليه الرُّقاد ، فجعلا يجبيان ولا يعطيان الجند شيئاً ، ففي ذلك يقول رجلٌ منهم ، وأحسبه من بني تميم ، في كلمةٍ له :

ولو علم ابنُ يوسف ما نلاقي من الآفات والكُرَب الشّدادِ
لفاضتْ عينه جزعاً علينـا وأصلحَ ما استطاعَ من الفسادِ
ألا قلْ للأمير جُزيتَ خيراً أرحنا من مغيرة والرُّقادِ
فما وَزَنا الجنود بها قفيزاً وقد ساستْ مطامير الحصادِ

يقال « ساسَ الطعام وأساس » إذا وقع فيه السُّوس ، و « دادَ وأداد » من الدُّود . وروى ابو زيدٍ « ديدَ فهو مَدودٌ » في هذا المعنى .

فحاربهم المهلب بالسِّيرجان حتى نفاهم عنها إلى جيرَفت ، واتّبعهم فنزل قريباً منهم ، واختلفت كلمتهم .

وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اليشكري اتهم بامرأة رجل حداد رأوه مراراً يدخل منزله بغير إذن ، فأتوا قطرياً فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لانقاره على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيده فأخبره وقال : إنا لانقار على الفاحشة ، فقال : بهتوني يا امير المؤمنين ! فما ترى ؟ قال : إني جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البريء ، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم (إنَّ الذين جاءُوا بالإفكِ عُصبَةٌ منكم لا تحسبوهُ شراً لكم بل هو خيرٌ لكم) الآيات ، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا ، ففعل ، فقال لهم عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعكم ! فبايع عبد ربه منهم ناسٌ كثيرٌ لم يظهروا ولم يجدوا على عبيدة في إقامة الحدّ ثبتاً .

• • •

وكان قطريٌ قد استعمل رجلاً من الدهاقين فظهرت له أموالٌ كثيرةٌ ، فأتوا قطرياً فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُ عماله على مثل هذا ، فقال قطريٌ : إني استعملته وله ضياعٌ وتجاراتٌ ، فأوعز ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم مني .

وقالوا لقطريٍ : ألا تخرج بنا إلى عدونا ! فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتدّ ! فاتبعوه يوماً فأحسّ بالشرّ ، فدخل داراً مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : يادابة اخرج إلينا !! فخرج إليهم ، فقال : رجعتم بعدي كفاراً ؟! فقالوا أو لست دابة ؟ قال الله عز وجل : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) ولكنك قد كفرت بقولك أنا قد رجعنا كفاراً ، فتبْ الى الله عز وجلّ ، فشاور عبيدة ، فقال : ان تُبتَ لم يقبلوا منك ، ولكن قل : انما استفهمت فقلت أرجعتم بعدي كفاراً ، فقال ذلك لهم فقبلوه منه ، فرجع الى منزله ، وعزم أن يبايع المقعْطرَ العبدي ، فكرهه القوم وأبوه فقال

له صالح بن مخراقٍ عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقعطر ، فقال لهم قطريٌ : أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم واستعدوا للقاءِ القوم ، فقال له صالح بن مخراق : ان الناس قبلنا قد ساموا عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاصي ففعل ، ويجب على الإمام أن يُعفي الرعية مما كرهت ، فأبى قطريٌ أن يعزله ، فقال له القوم : انا خلعناك وولينا عبد ربه الصغير ، فانفصل الى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجلهم الموالي والعجم ، وكان هناك منهم ثمانية آلافٍ ، وهم القراء ، ثم ندم صالح بن مخراق فقال لقطري : هذه نفحةٌ من نفحات الشيطان فأعفنا من المقعطرِ وسر بنا الى عدوك ، فأبى قطريٌ الا المقعطر ، فحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فطعنه فأنفذه وأجرّهُ الرمح فقتله .

ومعنى « أجرهُ الرمح » طعنه وترك الرمح فيه ، قال عنترة :

وآخر منهم أجررتُ رمحي وفي البجليّ معبلةٌ وقيعُ

فنشبت الحربُ بينهم ، فتهايجوا ، ثم انحاز كلٌ قومٍ إلى صاحبهم ، فلما كان الغد اجتمعوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فأجلت الحرب عن ألفي قتيلٍ ، فلما كان الغد باكروهم القتال ، فلم ينتصف النهارُ حتى أخرجت العجم العربَ من المدينة ، وأقام عبد ربه بها ، وصار قطريٌ خارجاً من مدينة جيرفت بإزائهم ، فقال له عبيدة : ياأمير المؤمنين ! إن أقمت لم آمن هـذه العبيد عليك إلا أن تخندق ، فخندق على باب المدينة ، وجعل يُناوشهم .

وارتحل المهلب فكان منهم على ليلةٍ ، ورسول الحجاج معه يستحثُّه ، فقال له : أصلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يصطلحوا ، فقال المهلب : إنهم لن يصطلحوا . ولكن دعهم ، فإنهم سيصيرون إلى حالٍ لا يفلحون معها ، ثم دس رجلًا من أصحابه فقال : إيت عسكر قطري فقل : إني لم أزل أرى قطرياً يصيب الرّأي حتى نزل منزله هذا ، فبان خطؤه ، أنقيم بين المهلب وعبد ربّه ، يغاديه هذا القتال ويراوحه هذا ؟! فنمى الكلام إلى قطري ، فقال : صدق ، تنحوا بنا

عن هذا الموضع ، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون ، فقال له الصلتُ بن مرة : ياأمير المؤمنين ! إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ، وأنشأ الصلت يقول :

قل للمحلين قد قرّتْ عيونكم   بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دينٍ ففيّرنا   طول الجدال وخلط الجدّ باللعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم   عن الجدال وأغناهم عن الخطب
إني لأهونكم في الأرض مضطرباً   مالي سوى فرسي والرُمح من نشب

ثم قال : أصبح المهلب يرجو منّا ما كنا نطمع فيه منه ، فارتحل قطريٌ ، وبلغ ذلك المهلب ، فقال لهريم بن عديٌ بن أبي طحمة المجاشعيّ : إني لا آمنُ أن يكون قطريٌ كادنا بترك موضعه ، فاذهب فتعرف الخبر ، فمضى هُريمٌ في اثني عشر فارساً ، فلم ير في العسكر إلا عبداً وعلجاً ، فسألهما عن قطريٍّ وأصحابه ؟ فقالا : مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هريمٌ إلى المهلب فأخبره ، فارتحل المهلب حتى نزل خندق قطريٍّ ، فجعل يقاتلهم أحياناً بالغداة ، وأحياناً بالعشيّ ، ففي ذلك يقول رجلٌ من سدوس ، يقال له المعتقُ ، وكان فارساً :

ليتَ الحرائر بالعراقِ شهدننا   ورأيننا بالسفح ذي الأجبالِ
فنكحن أهل الجزء من فرساننا   والضاربين جماجم الأبطالِ

* * *

ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج يخبرهُ أنه قد نزل منزل قطريٍّ ، وأنه مقيمٌ على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجه في إثرِ قطريٍّ رجلاً جلداً في جيشٍ ، فسرَّ ذلك الحجاج سروراً أظهره ، ثم كتب إلى المهلب يستحثّه مع عُبيد بن موهبٍ ، وفي الكتاب :

أما بعد ، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ، فترجع بعذرك ، وذلك أنك تُمسك حتى تبرأ الجراح ، وتنسى القتلى ، ويجمّ الناس ، ثم تلقاهم

فتحتملُ منهم مثل ما يحتملون منك ، من وحشة القتل،وألم الجراحِ ، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجدّ لكان الداءُ قد حُسم ، والقرنُ قد قصم ، ولعمري ما أنتَ والقومُ سواءٌ ؛ لأن من ورائك رجالاً وأمامك أموالاً ، وليس للقوم إلا ما معهم ولا يدركُ الوجيف بالدّبيبِ ، ولا الظفر بالتعذيرِ .

فقال المهلب لأصحابه : إن الله عزّ وجلّ قد أراحكم من أقرانٍ أربعةٍ : قطريّ بن الفجاءه ، وصالح بن مخراقٍ ، وعبيدة بن هلالٍ ، وسعدِ الطلائع ، وإنما بين أيديكم عبدُ ربّهِ ، في خُشار من خشار الشيطانِ ، تقتلونهم إن شاء الله .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراحُ ، ثم يتحاجزون كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحكُ بعضهم إلى بعضٍ ، فقال عُبَيْدُ بن موهب للمهلبِ : قد بانَ عُذرُكَ ، وأنا مُخبِرُ الأميرَ ، فكتب المهلب إليه :

أما بعد ، فإني لم أعط رسلك على قول الحقّ أجراً ، ولم أحتجْ منهم مع المشاهدة إلى تلقينٍ ، ذكرت أني أجمُّ القوم ، ولا بد من راحةٍ يستريح فيها الغالبُ ، ويحتال فيها المغلوب ، وذكرت أن في ذلك الجمام ما ينسى القتلى ، وتبرأ منه الجراح ، وهيهات أن ينسى ما بيننا وبينهم ، تأبى ذلك قتلى لم تجنَّ ، وقروحٌ لم تتقرفْ ، ونحن والقوم على حالةٍ ، وهم يرقبون منّا حالاتٍ ، إن طمعوا حاربوا ، وإن ملوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرز إذا وقفوا ، ونطلُبَ إذا هربوا ، فإن تركتني والرأيَ كان القرنُ مقصُوماً ، والداءُ بإذن الله محسوماً ، وإن أعجلتني لم أطعكَ ولم أعصِ ، وجعلتُ وَجْهي إلى بَابِكَ ، وأنا أعوذ بالله من سخطِ اللهِ ، ومقتِ الناسِ .

* * *

ولما اشتد الحصار على عبد ربّه قال لأصحابه : لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صح توحيده عزّ بربه ، وقد أراحكم الله من غلظة قطريٍّ ، وعجلة صالح بن مخراقٍ ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلالٍ ، ووكلكم إلى بصائركم ، فالقوا عدوكم بصبرٍ ونيةٍ ، وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قُتلَ منكم قتلَ شهيداً ، ومن سلم من القتل فهو المحرومُ .

وقدم في هذا الوقت على المهلب عبيدُ بن أبي ربيعة بن أبي الصّلتِ الثقفيُّ يستحثُّه بالقتال ، ومعه أمينانِ ، فقال له : خالفت الأمير ، وآثرتَ المدافعة والمطاولة ، فقال له المهلب : ما تركت جهداً ، فلما كان العشيُّ خرج الأزارقة وقد حملوا حرمهم وأموالهم وخِف متاعهم لينتقلوا ، فقال المهلب لأصحابه : الزموا مصافكم ، وأشرعوا رماحكم ، ودعوهم والذهاب ، فقال له عبيدٌ : هذا لعمري أيسرُ عليك ، فقال للناس : ردوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا في الناس ، وقال لعبيدِ بن أبي ربيعة : كن مع يزيد فخذهُ بالمحاربة أشد الأخذ ، وقال لأحدِ الأمينينِ : كن مع المغيرة ولا ترخص له في الفتور ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى عقرت الدواب ، وصرع الفرسان ، وقتلت الرجال . فجعلت الخوارج تقاتل على القدحِ يؤخذ منها والسّوط والعلق الخسيس أشد قتالٍ ، وسقط ومحٌ لرجل من مرادٍ من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمراديُّ يقول :

الليلُ ليلٌ فيه ويلٌ ويلُ ... وسال بالقوم الشُّراة السّيلُ
• إن جاز للأعداء فينا قول •

فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغيرة : خلِّ عن الرمح عليهم لعنهم الله ، فخلوا لهم عنه .

ثم مضت الخوارجُ حتى نزلوا على أربعة فراسخ من جيرُفت ، ودخلها المهلب وأمر بجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق ، وختم عليه هو

والثقفي والأمينان ، ثم اتبعهم ، فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قويٌ ، يأتي الرجل بالدلو قد شدها في طرف رمحه فيستقي بها ، وهناك قرية فيها أهلها ، فغاداهم القتال ، وضم الثقفي إلى يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة ، واقتتل القوم إلى نصف النهار ، فقال المهلب لأبي علقمة العبديّ ، وكان شجاعاً عاتياً : أمدد بخيل اليحمدِ ، وقل لهم : فليعيرونا جماجمهم ساعةً ، فقال له : إن جماجمهم ليست بفخارٍ فتعار وليست أعناقهم كرادي فتنبت ـ قال أبو الحسن الاخفش : تقول العرب لأعذاق النخل : كرادِ ، وهو فارسيٌ أُعرب ـ وقال لحبيب بن أوسٍ : كرَّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقولُ لِيَ الأميرُ بغيرِ علمٍ ... تقدمْ حين جدَّ به المراسُ
فما لِي إنْ أطعتكَ من حياةٍ ... ومالِي غيرَ هذا الرأس راسُ

نصب « غيرَ » لأنه استثناءٌ مقدمٌ ، وقد مضى تفسيره .

وقال لمعْن بن المغيرة بن أبي صفرةَ : احملْ ، فقال : لا ، إلا أن تزوجني أمّ مالكٍ بنت المهلب ، ففعلَ ، فحمل على القوم فكشفهم ، وطعنَ فيهم ، وقال :

ليتَ من يشتري الغداةَ بمالٍ ... هُلكه اليومَ عندنا فيَراانا
نصلُ الكرَّ عندَ ذاك بطعنٍ ... إن للموتِ عندنا ألوانا

ثم جالَ الناسُ جولةً عند حملةٍ حملها عليهم الخوارجُ ، فالتفتَ عند ذلك المهلبُ إلى المغيرة فقال : مافعلَ الامينُ الذي كان معك ؟ قال : قُتِلَ ، وكان الثقفي قد هربَ ، وقال ليزيدَ : مافعل عبيدُ بن أبي ربيعة ؟ قال : لم أرَهُ منذْ كانت الجولة ، فقال الأمينُ الآخرُ للمغيرةِ : أنت قتلتَ صاحبي ، فلما كان العشي رجعَ الثقفيُّ ، فقال رجلٌ من بني عامر بن صعصعةَ :

مازلتَ ياثقفيُّ تخطبُ بيننا ... وتَغُمُّنا بوصيةِ الحجاجِ
حتى إذا ما الموتُ أقبل زاخراً ... وسما لنا صِرْفاً بغيرِ مزاجِ
ولّيتَ ياثقفيُّ غيرَ مناظرٍ ... تنسابُ بين أحزةٍ وفجاجِ

ليست مقارعةُ الكماةِ لدى الوغى
شرب المُدامةِ في إناءِ زجاجِ

قوله « بينَ أحزة » هو جمع حزيزٍ ، وهو مَتْنٌ ينقادُ من الأرض ويغلظ ، و « الفجاجُ » : الطرق ، واحدها فج .

وقال المهلبُ للأمين الآخر : ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيبٍ في ألفِ رجل حتى تبيّتوا عسكرهم ، فقال : ماتريدُ أيها الأمير إلا أن تقتلني كما قتلت صاحبي! قال : ذاك إليكَ ، وضحك المهلبُ ، ولم تكن للقوم خنادقُ ، فكان كلٌّ حذراً من صاحبه ، غير أن الطعام والعدةَ مع المهلب ، وهم في زهاء ثلاثين ألفاً ، فلما أصبح أشرفَ على وادٍ فإذا هو برجل معه رمحٌ مكسورٌ وقد خضبه بالدماء ، وهو ينشدُ :

جزاني دوائي ذو الخِمار وصنعتي ... إذا بات أطواءً بني الاصاغر
أخادعهم عنه ليُغبق دُونهم ... وأعلمُ غيرَ الظن أني مُغاورُ
كأني وأبدانُ السلاح عشيةً ... يمرُّ بنا في بطن فيحان طائرُ

فدعاه المهلبُ فقال : أتميميٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قال أحنظليٌّ ؟ قال : نعم ، قال : أيربوعيٌّ ؟ قال : نعم ، قال : أثعلبيٌّ ؟ قال : نعم ، قال : أمنْ آلِ نويرة ؟ قال : نعم ، أنا من ولد مالك بن نويرة ، وسبحانَ الله أيها الأمير ! أيكونُ مثلي في عسكرك لاتعرفه ؟ ! قال : عرفتك بالشعر ! !

قوله : « ذو الخمار » يعني فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ، قال جريرٌ يهجو الفرزدق :

بيربوع فخرتُ وآل سعدٍ ... فلا مجدي بلغت ولا افتخاري
بيربوعٍ فوارسُ كلَّ يومٍ ... يواري شمسه رهج الغبار
عتيبةُ ، والأحيمرِ ، وابن عمروٍ ... وعتابٌ ، وفارسُ ذي الخمار

قوله : « أطواء » يقال : رجلٌ طويّ البطن ، أي منطوٍ ، يخبرُ أنه كان يؤثر فرسه على ولده ، فيشبعه وهم جياعٌ ، وذلك قوله :

أخادعهم عنه ليغبق دونهم

و « الغبوقُ » : شربُ آخرِ النهارِ ، وهذا شيءٌ تفتخر به العرب ، قال الأسعرُ الجعفي :

لكنْ قعيــــدةُ بيتنا مجفوّةٌ   بادٍ جناجنُ صدرها ولها غنى
تقفي بعيشة أهلهـــا وثابةً   أو جرشعاً نهدَ المراكل والشوى

* * *

قال : فمكثوا أياماً على غير خنادقَ ، يتحارسون ودوابهم مسْرجةٌ ، فلم يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان ، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها عبد ربه جمع أصحابه وقال : يامعشرَ المهاجرين ! إن قطرياً وعبيدةَ هربا طلب البقاء ، ولا سبيل إليه ، فالقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة فلا يغلبنكم على الموت ، فتلقوا الرماحَ بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا يهبها لكم في الآخرة .

فلما أصبحوا غادوا المهلبَ فقاتلوه قتالاً شديداً ، نسي به ما كان قبله ، فقال رجل من الأزد من أصحاب المهلبِ : من يبايعـــني على الموتِ ؟ فبايعه أربعونَ رجلًا من الأزد وغيرهم ، فصُرعَ بعضهم ، وقتل بعضٌ ، وجرح بعضٌ ، وقال عبد الله بن رزامٍ الحارثي لأصحاب المهلب : احملوا ، فقال المهلب : أعرابي مجنونٌ ! وكان من أهل نجران ، فحمل وحده ، فاخترق القوم حتى نجم من ناحيةٍ أخرى ، ثم رجع ، ثم كرَّ ثانيةً ، ففعل فعلته الأولى ، وتهايج الناس فترجلت الخوارج وعقروا دوابهم ، فناداهم عمرو القنا ، ولم يترجل هو وأصحابه من العرب ، وكانوا زهاء أربعمائةٍ : موتوا على ظهور دوابكم ، ولا تعقروها ، فقالوا : إنّا إذا كنا على الدواب ذكرنا الفرار .

فاقتتلوا ، ونادى المهلبُ بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ، وقال لبنيه : تفرقوا في الناس ليروا وجوهكم ، ونادى الخوارجُ : ألا إن العيال لمن غلبَ ، فصبر

بنو المهلب ، وصبر يزيد بين يدي أبيه ، وقاتل قتالاً شديداً أبلى فيه ، فقال له أبوه : يابني إني أرى موطناً لاينجو فيه إلا من صبر ، وما مرَّ بي يومٌ مثل هذا منذ مارست الحروب .

وكسرت الخوارج أجفان سيوفها ، وتجاولوا ، فأجلتْ جولتهم عن عبد ربه مقتولاً ، فهربَ عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قومٌ ، وأجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيلٍ ، وجرحى كثيرٍ من الخوارج ، فأمر المهلبُ بأن يدفع كلَّ جريحٍ إلى عشيرته ، وظفر بعسكرهم فحوى مافيه ، ثم انصرف إلى جيرفت ، فقال : الحمد لله الذي ردنا إلى الخفض والدعة ، فما كان عيشنا بعيشٍ ، ثم نظر إلى قومٍ في عسكره لم يعرفهم ، فقال : ماأشدَّ عادة السلاح ! ناولوني درعي ، فلبسها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ، فلما صيرَ بهم إليه قال : ماأنتم ؟ قالوا : نحن قومٌ جئنا لنطلب غرتكَ لنفتك بك ، فأمر بهم فقتلوا .

* * *

قال أبو العباس : ووجه المهلب كعب بن معدان الاشقري ، ومرة بن تليد الأزدي من أزد شنوءة ، فوفدا على الحجاج ، فلما طلعا عليه تقدم كعبٌ فأنشده :

ياحفصَ إني عداني عنكم السفر وقد سهرت فأودى نومي السهر

فقال له الحجاج : أشاعرٌ أم خطيبٌ ؟ قال : كلاهما ، ثم أنشده القصيدة ، ثم أقبل عليه فقال له : أخبرني عن بني المهلب ؟ قال : المغيرةُ فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيهم قبيصة ، ولا يستحيي الشجاع أن يفرَّ من مدركٍ ، وعبد الملك سمٌ ناقعٌ ، وحبيبٌ موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ ليث غابٍ ، وكفاك بالمفضّل نجدةَ ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير ، قد أدركوا ماأملوا ، وأمنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟ قال : كانوا حماةَ السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لايدرى أين طرفها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخذوا يئسنا

منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاجُ : إن العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطريٌّ ؟ قال : كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلاّ اتبعتموه ؟ قال : كان الحد عندنا آثرَ من الفلّ ، قال : فكيف كان لكم المهلبُ وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقةُ الوالدِ ، وله منا برُّ الولد ، قال : فكيف اغتباطُ الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن ، وشملهمُ النفل . قال : أكنتَ أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لايعلمُ الغيبَ إلا الله . قال : فقال : هكذا تكونُ والله الرجالُ . المهلبُ كان أعلم بك حيث وجهك .

وكان كتابُ المهلب إلى الحجاج :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافي بالإسلام فقْد ماسواهُ ، الذي حكم بأن لاينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد ؛ فقد كان من أمرنا ماقد بلغك ، وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين ، يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم ، فقد كان علَن أمرهم حتى ارتاعتْ له الفتاةُ ، ونوم به الرضيعُ ، فانتهزتُ منهم الفرصة في وقت إمكانها ، وأدنيت السواد من السوادِ ، حتى تعارفت الوجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغَ الكتاب أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعدُ ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ قد فعلَ بالمسلمين خيراً ، وأراحهم من حدِّ الجهادِ ، وكنتَ أعلمَ بما قبلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا وردَ عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيئهم ، ونفّلِ الناس على قدرِ بلائهم ، وفضّل من رأيتَ تفضيله ، وإن كانتْ بقيتْ من القوم بقيةٌ فخلف خيلًا تقومُ بإزائهم واستعملْ على كرمانَ من رأيتَ ، وولِّ الخيلَ شهماً من ولدك ، ولا ترخص لأحدٍ في اللحاق بمنزله دونَ أن تقدم بهم علي ، وعجل القدوم ، إن شاء الله .

فولى المهلب ابنه يزيدَ كرمانَ . وقال له : يابني ! إنكَ اليومَ لستَ كما

كنتَ ، إنما لــك من مال كرمان مافضل عن الحجاج ، ولن تحتمل إلا على ماالحتملَ عليه أبوك ، فأحسن الى من معك ، وان أنكرتَ من انسانٍ شيئاً فوجهه الي وتفضل على قومك ان شاء الله .

وقدم المهلبُ على الحجاج فأجلسه الى جانبه ، وأظهر اكرامه وبرهُ ، وقال : ياأهلَ العراق ! أنتم عبيدُ المهلب ، ثم قال : أنت والله كما قال لقيطٌ الأيادي :

وقلدوا أمركم لله دَرُّكمُ رَحْبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعاً
لايطعمُ النومَ الا ريث يبعثه همٌ يكادُ حشاهُ يقصمُ الضلعا
لامُتْرَفاًانْ رخاءُ العيشِ ساعدهُ ولا اذا عضَ مكروهٌ به خشعا
مازال يحلب هذا الدهر أشطره يكونُ متبعاً طوراً ومتّبَعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لاقحماً ولا ضرعاً

فقام اليه رجل ، فقال : أصلحَ الله الأمير ، والله لكأني أسمعُ الساعة قطرياً وهو يقولُ : المهلبُ كما قال لقيطٌ الإيادي ، ثم أنشد هذا الشعر ، فسر الحجاجُ حتى امتلأ سروراً . قوله « نفل » أي أقسم بينهم ، والنفلُ : العطيةُ التي تفضل ، كذا كان الأصل ، وإنما تفضل الله عز وجل بالغنائم على عباده ، قال لبيدٌ :

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثٌ وعجل

وقال جل جلاله : (يسئلونك عن الأنفال) ويقال : نفلتك كذا وكذا أي : أعطيتك ، ثم صار النفل لازماً واجباً . وقول الايادي « رحب الذراع » فالرحبُ : الواسع ، وإنما هذا مثلٌ ، يريد : واسع الصدر ، متباعد ما بين المنكبين والذراعين ، وليس المعنى على تباعد الخلق ، ولكن على سهولة الأمر عليه ، قال الشاعر :

رحيب الذراع بالتي لا تشينهُ وان قبلت العوراءُ ضاقَ بها ذرعاً

وكذلك قوله جل وعز : (يجعل صدره ضيقاً حرجاً » وقوله « مضطلعاً »

انما هو « مفتعلٌ » من الضليعِ ، وهو الشديد ، يريد أنه قويٌ على أمر الحرب ، مستقلٌ بها . وقوله : « يكون متبعاً طوراً ومتبعاً » أي قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتُّبع فعلم ما يصلحُ الرئيس كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قد أَلَّنا وايلَ علينا ، أي قد أصلحنا أمور الناس ، وأُصلحت أمورنا . وقوله : « على شَزْر مريرتهُ » فهذا مثلٌ ، يقال شزرت الحبل : اذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه ، والمريرة : الحبلُ . و « الضَّرع » : الصغير الضعيف . و « القحمُ » : آخر سنّ الشيخ ، قال العجاجُ :

رأينَ قحماً شابَ واقلحَمّا طال عليه الدهر فاسلهمّا

والمقلحمُّ مثل القحم ، وهو الجافُ ، ويقال للصبيّ ملقحمٌ : إذا كان سيء الغذاء ، أو ابن هَرِمين ، ويقال رجـــلٌ إنقحلٌ وامرأةٌ إنقحلةٌ : إذا أسن حتى ييبس ، والمسلهمُّ الضامر ، قال الشاعر :

« لما رأتني خلَقاً إنقحلا »

ويقال في معنى : قحمٍ قحرٌ ، ويقال بعيرٌ قحاريةٌ ، في هذا لمعنى . وقوله « لا يطعم النومَ إلا ريثَ يبعثهُ همٌ » فريثٌ وعوضٌ مما يضافُ إلى الأفعال ، وتأويله أنه لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهمُّ ، فمعناه مقدار ذلك ، ومما يضاف إلى الأفعال أسماءُ الزمان ، كقوله عز ذكره : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) فأسماءُ الزمان كلها تضافُ إلى الفعل ، نحو قولك : آتيك يوم يخرجُ زيدٌ ، وجئتك يوم قام عبد الله ، وما كان منهـا في معنى الماضي جاز أن يضافَ إلى الابتداء والخبر ، فتقولُ : جئتك يوم زيدٌ أميرٌ ، ولا يجوز ذلك في المستقبل ، وذلك لأن المـاضي في معنى إذْ ، وأنت تقول : جئتك إذ زيدٌ أميرٌ ، والمستقبل في معنى إذا ، فلا يجوز أن تقول : أجيئك إذا زيدٌ أمير ، فلذلك لا يجوز أجيئك يوم زيدٌ أمير . فأمـا الأفعال في إذا وإذْ فهي بمنزلة واحدة ، تقول : جئتك إذْ قام زيد ، وأجيئك إذا قام زيد ، فهذا واضحٌ بينٌ . ومما يضاف إلى الفعل « ذو » في قولك افعل ذاكَ بذي

تسلمَ ، وافعلاهُ بذي تسلمانِ ، معناه : بالذي يُسلّمكُما ، ومن ذلك آيةٌ في قوله :

بآيةِ تقدمون الخيل شعثاً كأنّ على سنابكها مُداما

والنحو يتصل ويكثر ، وإنما تركنا الاستقصاء لأنه موضع اختصار . فقال المهلب : إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولا أحدَ ، ولكن دمغ الحقُّ الباطلَ ، وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للتقوى ، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة . فقال له الحجاج : صدقت ، اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم . فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج ، فقال لهم المهلب : ماذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله . ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء ، وقدمَ بنيهِ المغيرةَ ويزيد ومدركاً وحبيباً وقبيصة والمفضّل وعبد الملك ومحمداً ، وقال : إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاجُ : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم مني وإن حضرتَ وغبتُ ، إنهم لسيوف من سيوف الله . ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة والرُّقاد وأشباهها ، فقال الحجاج : أين الرُّقاد ؟ فدخل رجلٌ طويل أجنأ ، فقال المهلب : هذا فارسُ العرب ، فقال الرقاد : أيها الأمير ! إني كنتُ أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرتُ مع من يلزمني الصّبر ويجعلني إسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء ، صرت أنا وأصحابي فرساناً ؛ فأمر الحجاج بتفضيلِ قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولدا المهلب ألفين ، وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك .

قال يزيد بن حبناء من الأزارقة :

دعي اللوم إن العيش ليس بدائم ولا تعجلي باللوم ياأم عاصمِ !
فإذ عجلتْ منك الملامة فاسمعي مقالة معنيّ بحقكِ عالمِ
ولا تعذلينا في الهديّة إنما تكون الهدايا من فضول المغانم
فليس بمهدٍ من يكون نهاره جلاداً ويمسي ليله غير نائم

يريد ثوابَ اللهِ يوماً بطعنةٍ غموسٍ كشدقِ العنبريِّ بن سالم
أبيتُ وسربالي دلاصٌ حصينةٌ ومِغفرها والسيف فوق الحيازم
حلفت بربٍّ الواقفين عشيّةً لدى عرفاتٍ حلفةً غير آثم
لقد كان في القوم الذين لقيتهم بسابورَ شُغلٌ عن بزوز اللطائم
توقّدُ في أيديهم زاعبيّـــةٌ ومرهفة تفري شؤون الجماجم

قوله « من يكون نهاره جلاداً ويُمسي ليله غير نائم » يريد : يمسي هو في ليله ويكونُ هو في نهاره ، ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السّعة ، وفي القرآن (بل مكر الليل والنهار) والمعنى : بل مكركم في الليل والنهار ، وقال رجل من أهل البحرينِ من اللصوص :

أمّا النهار ففي قيدٍ وسلسلةٍ والليل في جوف منحوتٍ من السّاجِ

وقال آخر :

لقد لمتِنا يا أمّ غيلان في السُّرى ونمتِ وما ليل المطيّ بنائم

ولو قال : « من يكون نهاره جلاداً ويمسي ليله غير نائم » لكان جيداً ، وذاك أنه أراد : من يكون نهاره يجالد جلاداً ، كما تقول : إنما أنت سيراً ، وإنما أنت ضرباً ، تريد : تسير سيراً ، وتضرب ضرباً ، فأضمر لعلم المخاطب أنه لا يكون هو سيراً ، ولو رفعه على أن يجعل الجلاد في موضع المجالد ، على قوله : أنت سير ، أي أنت سائرٌ ، كما قالت الخنساءُ :

• فإنما هي إقبال وإدبار •

وفي القرآن (قل أرأيتم إن أصبح ماؤُكم غوراً) أي غائراً ، وقد مضى تفسير هذا بأكثر من هذا الشرح . ولو قال « ويُمسي ليله غير نائمٍ » لجاز ، يصيّرُ اسمه في « يُمسي » ويجعل « ليله » ابتداءً ، و « غير نائمٍ » خبرهُ على السعة التي ذكرنا . وقوله « غموسٍ » يريد واسعةً محيطة . و « العنبريُّ بن سالم » رجلٌ منهم ، كان يقال له الأشدق . و « اللطائم » واحدتها « لطيمةٌ » وهي الإبل التي تحمل البزّ والعطرَ . وقوله : « توقّـــدُ في أيديهم زاعبيّةٌ » يعني

الرّماح ، والتوقّدُ للأسنّة ، والزاعبيةُ منسوبةٌ إلى زاعبٍ ، وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح ، و « تفري » : تقُدُّ ، يقال : فرىٰ : إذا قطع ، وأفرىٰ : إذا أصلح .

وقال حبيب بن عوفٍ من قواد المهلب :

أبا سعيدٍ جزاك الله صالحةً ... فقد كَفيت ولم تعنفْ على أحد !
داويت بالحلم أهل الجهل فانقمعوا ... وكنت كالوالد الحاني على الولد

وقال عبيدة بن هلالٍ في هربهم مع قطريٍّ :

ما زالت الأقدار حتى قذفنني ... بقومسَ بين الفرّخان وصول

ويروى أن قاضي قطريٍّ وهو رجلٌ من بني عبد القيس سمع قول عبيدة ابن هلالٍ :

علا فوق عرشٍ فوق سبع ودونهُ ... سماء ترى الأرواح من دونها تجري

فقال له العبدي : كفرت إلا أن تأتي بمخرجٍ ، قال : نعم ، روح المؤمن تعرج إلى السماء ، قال : صدقت . وقال يذكر رجلًا منهم :

يهوي وترفعه الرّماح كأنه ... شلوٌ تنشّب في مخالب ضارِ
فثوى صريعاً والرماح تنوشه ... إن الشُّراة قصيرة الأعمارِ

« تنوشه » : تأخذه وتتناوله ، قال الله عز وجل : (وأنى لهم التناوشُ من مكانٍ بعيدٍ) أي التناول . ومثل بيته هذا قول حبيب الطائيّ :

فيم الشماتةُ إعلاناً بأسد وغىً ... أفناهم الصبر إذا أبقاكم الجزعُ

وقال أيضاً في شبيهٍ بهذا المعنى :

إن يتتحل حدثانُ الموت أنفسكم ... ويسلم الناس بين الحوض والعطن
فالماء ليس عجيباً أنّ أعذبهُ ... يفنى ويمتدُّ عمر الآجن الأسِن

وقال أيضاً :

عليك سلام الله وقفــاً فإنني ... رأيت الكريم الحر ليس له عُمْرُ

وقال القاسم بن عيسى :

احبكِ ياجنان فأنتِ مني مكان الروح من بدن الجبانِ
ولوْ أني أقول : مكان روحي خفت عليك بادرة الزمانِ
لإقدامي إذا ما الحرب جاشت وهاب حماتها حرّ الطعانِ

وقال معاوية بن أبي سفيان في خلاف هذا المعنى :

أكان الجبان يرى أنه يدافع عنه الفرارُ الأجلْ ؟
فقد تدركُ الحادثاتُ الجبانَ ويسلم منها الشُجاعُ البطلْ

رجع الحديث : وقال رجلٌ من عبد القيس من أصحاب المهلبِ :

سائل بنا عمرو القنا وجنودهُ وأبا نعامة سيّد الكفّارِ

أبو نعامة : قطريٌ . وقال المغيرة بن حبناءَ الحنظليُّ من أصحاب المهلب :

إني امرؤٌ كفني ربي وأكرمني عن الأمور التي في رعيها وخمُ
إنما أنا إنسانٌ أعيش كما عاشت رجالٌ وعاشت قبلها أممُ
ماعاقني عن قفول الجند إذ قفلوا عني بما صنعوا عجزٌ ولا بَكم
ولو أردتُ قفولاً ما تجهمني إذن الأمير ولا الكتاب إذرقموا
إن المهلب إنْ أشتقْ لرؤيته أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
أن الأريب الذي ترجى نوافله والمستعان الذي تُجلى به الظلُم
القائل الفاعل الميمونُ طائرهُ أبو سعيدٍ اذا ما عدت النّعمُ
أزمان أزمان إذ عضّ الحديد بهم واذ تمنى رجالٌ أنهم هزموا

قال أبو العباس : وهذا الكتاب لم نبتدئه لنتّصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شيءٌ بشيءٍ ، والحديث ذو شجونٍ ، ويقترح المقترحُ ما يفسخ به عزم صاحب الكتابِ ، ويصده عن سنته ، ويزيله عن طريقه ، ونحن راجعون ان شاء الله الى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فإن مرّ من أخبار الخوارج شيءٌ مرّ كما يمرُ غيره ، ولو نسقناه على ماجرىْ من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر نجدة وأبي فديكٍ وعمارة الرجل الطويلِ وشبيبٍ ، ولكان يكون الكتاب للخوارج مخلصاً .

الفهرس



10